

المدارس العتيقة بالمغرب

دور القبائل في التدبير والتمويل

تنسيق
محمد أيت حمزة
مبارك أيت عدي



المدارس العتيقة بالمغرب :
دور القبائل في التدبير والتمويل

المراجعة والتنسيق

محمد ايت حمزة

مبارك ايت عدي

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة دراسات وأبحاث ـ رقم: 51

العنوان	: المدارس العتيقة بالمغرب: دور القبائل في التدبير والتمويل
التنسيق والمراجعة العامة	: محمد ايت حمزة ومبارك ايت عدي
الناشر	: المعهد الملكي للثقافة الامازيغية
الإخراج التقني والمتابعة	: مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل
تصميم الغلاف	: وحدة النشر
صورة الغلاف	: مدرسة سيدي وكاك
الإيداع القانوني	: 2015 MO 1744
ردمك	: 978-9954-28-198-7
المطبعة	: مطبعة المعارف الجديدة 8 زنقة الرخاء الحي الصناعي –يعقوب المنصور– الرباط–

تقــديــم

يعد موضوع المدارس العتيقة بالمغرب من المواضيع التي استأثرت باهتمام العديد من الباحثين والدارسين، حيث انصب اهتمامهم بالخصوص على تاريخ ظهور هذه المؤسسات وتوزيعها الجغرافي ومناهجها التعليمية وإشعاعها العلمي والأدبي. ورغم هذا الاهتمام، فإن الموضوع لازال يطرح العديد من الإشكالات لم يولها البحث العلمي ما تستحق من الاهتمام بعد، في مقدمتها: علاقة هذه المدارس بأعراف وتقاليد المجتمعات التي ظهرت في أحضانها. نعم إن هذه المدارس إلى جانب ما تلقنه من علوم الدين واللغة العربية، ظلت وافية للأعراف القبلية التي رسختها وتفاعلت معها في ميدان التدبير والتنظيم، الشيء الذي يظهر من خلال الاعتماد على إنفلاس في البناء وتدبير التموين ومراقبة مجالات صرفه، ورعاية أحوال الطلبة والفقهاء والاستمرار في اعتماد العقوبات بالمال، لإرغام القبائل على الوفاء بالتزاماتها تجاه المؤسسة، وتقويم معلومات الطلبة القاطنين بها.

أكثر من ذلك، ترجم الامازيغ المواد المدروسة بهذه المؤسسات إلى لغتهم، بما في ذلك معاني القران الكريم وأمهات الكتب في الفقه والعقيدة والتصوف، كما اعتمدوا عاداتهم وتقاليدهم في وسائل للتلقين والحفظ. بناء عليه فقد تنافست القبائل في بناء هذه المؤسسات العتيقة وفي رعايتها واعتبرت ذلك من مظاهر التفوق والتطور بل التقوى، إلى درجة أعْتبرت القبائل التي لا مدرسة لها موضع السخرية والتهكم.

للمساهمة في تعميق النقاش حول علاقات المدارس العتيقة بالخصوصيات الحضارية والثقافية الأمازيغية، ارتأى مركز الدراسات التاريخية والبيئية إصدار كتاب خاص في الموضوع، وقد ساهم في تنفيذ هذا المشروع ثلة من الباحثين داخل المعهد وخارجه، تتبعوا دور القبائل في تأسيس هذه المدارس وفي الإشراف على موارد عيش الطلبة والفقهاء والزوار، مما مكن من كشف النقاب عن كثير من الجوانب الخفية في حضور اللغة الأمازيغية في مناهج ومقررات هذه المدارس، وأهمية المخطوطات العربية والأمازيغية المتداولة وذلك في كثير من جهات المغرب، مثل سوس والأطلس الكبير والريف.

لقد استندت هذه المساهمات إلى مصادر متنوعة، منها المباشرة وغير المباشرة، كما استعان بعض الباحثين بالرواية الشفوية المتداولة حول هذه المؤسسات التعليمية العتيقة.

ونحن إذ كنا سعداء بتقديم هذه الأبحاث والمساهمات إلى القاري ، فإننا واعون بأنها ليست سوى مساهمة أولية في موضوع يحتاج إلى المزيد من الجهد، لإبراز علاقات المدارس العتيقة بمحيطها القبلي، خاصة وأننا نلاحظ مقاومتها للعصرنة بكل الوسائل، مما يطرح تساؤلات حول سر تلك المقاومة و مدى إمكانية استمرارها ؟

قبل الختم نود أن نشكر السيد عميد المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الذي شجعنا على نفض الغبار على نفائس هذه الثقافة، كما ننوه بالمجهودات التي يبذلها فريق البحث بمركز الدراسات التاريخية والبيئية، إن على مستوى المساهمة العلمية، أو مراجعة مواد هذا الكتاب واعدادها للنشر.

ايت عدي مبارك

اليعقوبية : المدرسة المرجع للمدارس العتيقة في المغرب

ذ.إبراهيم أنوار،
باحث الرباط

المدرسة اليعقوبية، نسبة إلى مؤسسها أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (656 – 685هـ /1258 – 1286 م). والحلفاويين نسبة إلى مسجد بُني قريبا منها. والصفارين نسبة إلى الحي الذي يقع فيه المختص في صناعة النحاس الأصفر. هي أول مدرسة مرينية تم الانتهاء من بنائها في فاس سنة 678هـ /1279م؛ بها دشن المرينيون مسلسل بناء المدارس. وقد أثار محرابها عند تدشينها جدلاً في الأوساط العلمية والدينية والسياسية بفاس سنة 678هـ/ 1279م. فما الداعي إلى ذلك؟ الجواب على هذا السؤال يقتضي طرح أسئلة فرعية تساعد على إعادة صياغته من جديد. فما هي الظروف التي تم فيها البناء؟ ولماذا لقيت معارضة عند تمام هذا البناء؟ وما هي مظاهر هذه المعارضة؟ وكيف تم حل المشكل؟

سياق بناء المدرسة

انطلق مشروع بناء المدارس من قناعات بضرورة إيجاد مؤسسة تجمع الطلبة الآفاقيين في مقر يكون لهم سُكْنَى ومركز تكوين، وعند تخرجهم يصبحون في خدمة المؤسسة، وهي فكرة لم تتبلور إلا بعد استقرار المرينيين في العاصمة فاس واحتكاكهم بأهلها. فهم في الأصل قبائل رعوية استقرت في شرق المغرب، لم يكن في تصور أوائلـهم بناء دولة[1]. لكن الفراغ الأمني الناتج عن ضعف الموحدين شجعهم على الانتقال إلى بناء دولة على أنقاض الدولة الموحدية المنهارة؛ ولم يكن هذا ليتأتى لهم لولا الاحتكاك بالمجال الحضري، خاصة تازة ومكناس وفاس. هذا بالإضافة إلى الوضع الأمني المتدهور بهذه الجهات، جراء الفراغ الذي أحدثه تراجع السلطة الموحدية، مما أدى إلى تغيير في خطابهم السياسي الذي أخذ صبغة دينية، لها علاقة بمشروعية الحكم، فكان لابـد والحالة هذه من البحث عما يدعم شرعية قيامهم[2].

(1) Kably, (M), Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, pp 24-53.

(2) إبراهيم، أنوار، أوائل المرينيين والأزغار، الرباط، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج 5- 6، سنتي 2007 – 2008، ص 141 – 143.

تجلت هذه السياسة بوضوح فيما يخص موضوعنا في التدخل المباشر لأوائل المرينيين في شؤون المساجد. هكذا سجلت المصادر تعيين قارئ في القرويين براتب، ابتداءً من 651 هـ/ 1253م قبل أن يبدأ العمل بنظام الكراسي العلمية[3]، التي لعبت دورا فعالاً في التمهيد لعمل المدارس في المرحلة الانتقالية من تاريخ التعليم المريني. فما هي أهم المحطات التي ميزت هذه السياسة؟

المحطة الأولى 617-647 هـ /1218 - 1248م، اختيار سنة البداية يبرره أول خطاب رسمي تبناه المرينيون عند انتصارهم على قوات الموحدين وبداية توسعهم غرب رباط تازة. أما سنة النهاية فتمثل خضوع مدينة فاس لسلطتهم. وقد وجد أوائل المرينيين في فكرة الأمر بالمعروف وحماية الرعية ما يبررون به خروجهم عن طاعة الموحدين ومبايعة الحفصيين. ولم يكن هذا الخطاب ليتبلور بهذه الصيغة لولا احتكاكهم بفقهاء هذه الحواضر. وامتدت هذه الفترة التمهيدية مدة ثلاثين سنة، [4] تعرض خلالها غرب تازة لغزوات كان ضحيتها السكان الذين تأرجح ولاؤهم بين المرينيين والموحدين وحلفائهم من القبائل العربية، كرياح في منطقة الغرب (أزغار). كما ذهب ضحيته أمراء وشيوخ كبار في المعسكرين الموحدي والمريني[5].

أما المحطة الثانية 651 هـ/ 1253م - 678 هـ /1279م فقد دامت سبعة وعشرين سنة وهي مدة زمنية ليست بالهينة. بدأت بتعيين راتب لقارئ للقرآن في جامع القرويين وذلك في خضم الصراع الموحدي المريني حول المغرب، وانتهت ببناء مدرسة الحلفاويين، بعد إخضاع العاصمة مراكش بعشر سنوات.

سنة البداية تفصلها عن سقوط مراكش في يد المرينيين مسافة زمنية تقدر ب سبعة عشر سنة. فهل الحدث معزول أم أنه يدخل ضمن استراتيجية مرينية تقضي بالتقرب من الفقهاء والعلماء، بل من جمهور القراء والمستمعين لتلاوة القرآن، وكل المالكيين بفاس، تمهيدا لإخضاع العاصمة الموحدية، بحشد الهمم، وهو ما تحقق سنة 668 هـ/1269م. وما أن تم تمهيد البلاد حتى بدأت عمليات إرساء قواعد الحكم في العاصمة فاس، والبحث عن العناصر الداعمة لحكم المرينيين داخلها وخارجها، ولعل من أبرز هذه العناصر تقريب الفقهاء والعلماء، وتكوين نخب تعمل إلى جانبهم، وتتقاسم معهم مسؤولية تسيير الشأن العام في فاس وباقي البلاد الخاضعة لحكمهم. فوجدوا في تجربة إنشاء المدارس والتي سبقهم إليها أهل المشرق الإسلامي خير معين على ذلك. من هنا برزت فكرة إنشاء مدرسة.

---

(3) إبراهيم، أنوار، نقل المعرفة في المغرب المريني وإفريقية الحفصية، الرباط، مطبعة المناهل، سلسلة أبحاث، منشورات وزارة الثقافة، 2011، ص 27 - 30.

(4) Shatzmiller, (M), Islam de campagne et islam de ville, le facteur religieux à l'avènement des Mérinides, Studia Islamica, T, LI, 1980, pp : 131-134. Kably, (M), Société …p: 279.

(5) إبراهيم، أنوار، أوائل المرينيين والأزغار، ص 135 - 140.

تقع مدرسة الحلفاويين في فاس بعدوة القرويين، شرق جامعها، قريبا من عين ماء تسمى عين قرقف والتي جلب ماؤها إلى المدرسة[6]. يتوسط بَهْوَها صهريج ماء للوضوء، تطل عليه بيوت الطلبة، وبيت الصلاة الذي يقع محرابه في الجزء الجنوبي الشرقي، وهو بيت لإلقاء الدروس، شكله مربع. وبمحاذاته إلى جهة الشرق بيت الوضوء، تقابله بيوت الطلبة في الطابق الأرضي. في حين توجد باقي البيوت في الطابق العلوي للمدرسة. تتوفر المدرسة على صومعة، وهي نموذج بدائي للصومعة المرينية، مربعة الشكل، فيها زخارف من الفسيفساء. وجود بيت للصلاة وصومعة للأذان قريباً من جامع القرويين في بداية حكم أسرة حديثة العهد بمدينة فاس يطرح أكثر من سؤال عن أهداف إنشاء هذه البناية[7].

تولى مسؤولية إنجاز هذا المشروع والدفاع عنه كبار رجال الجهاز المخزني المريني، على رأسهم السلطان يعقوب بن عبد الحق (678هـ/1279م) الذي أمر ببناء المدرسة، وأشرف على العملية أبو أمية مفضل بن محمد الدلبي العذري، وكلف بوضع المحراب المعدل محمد بن الحباك.

إعطاء السلطان يعقوب بن عبد الحق الأمر بالبناء، وتكليف قاضي المدينة بالإشراف عليه، يدل على مدى عنايته وتحمسه للمشروع، وحضوره تدشين المدرسة يدل على مدى أهميتها ورهان المخزن المريني عليها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك، عندما خص السلطان المقيمين بها من طلبة ومشرفين عليها من مدرسين وقيِّمينَ بجرايات من جزية اليهود[8] وزودها بخزانة كتب كانت موضوع صلح بينه وبين ملك قشتالة سانشو سنة 684 هـ. تتكون من 13 حملا من الكتب المختلفة التي جمعها في البلاد التي أصبحت تحت حكمه بفعل حروب الاسترداد[9].

أما المشرف فهو قاضي المدينة ومن المحتمل جداً أن يكون وراء الفكرة، لأنه درَس بالمشرق، مصدر فكرة المدارس بصفة عامة[10]. أخذ عن علماء كبار منهم الفقيه الأصولي المعز بن عبد السلام الذي تتلمذ عليه جمّ غفير من العلماء الذين استقروا في بلاد المغرب.

---

(6) علي، بن أبي زرع، الذخيرة السنية، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص 163.

(7) الحاج موسى، عوني، مدرسة الحلفاويين، معلمة المغرب، الرباط، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ع11، ص 3544 – 3545.

(8) علي، بن أبي زرع، الذخيرة السنية، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص 16 – 163.

(9) المصدر نفسه، ص 363.

(10) هاينز، هالم، أصول المدرسة في الإسلام، المؤسسة الجامعية فكرة ودور، طرابلس، الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، ع 20 س 3، 1981، ص 11 – 17.

في حين تولى المعدل محمد بن الحباك أمر وضع محرابها، فإذا كان القاضي قد تم التعريف به من قبل المترجمين[11] فإن محمد بن الحباك تم إهماله إلا ما ذكر عنه من أنه هو المسؤول الوحيد عن انحراف قبلة صلاة المدرسة عن قبلة جامع القرويين[12].

المدرسة في المصادر المرينية:

أول مصدر اهتم بهذه المدرسة هو الذخيرة السنية حيث قال:« وولى (يعقوب بن عبد الحق) الفقيه أبا أمية الدلائي قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم، فبناها بإزاء عين قرقف من جهة قبلة جامع القرويين، وأجرى فيها ماء العين وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود...» [13]. يظهر هذا النص مختصراً جداً لكنه يختزن معلومات دقيقة بخصوص البناء والقاطنين والمداخيل. وهي عناصر مهمة لتحديد معالم المؤسسة. فالقاطنون بهذه المدرسة هم في الغالب الأعم آفاقيون لا يتوفرون على مساكن بفاس. مما يجعل متابعتهم للدراسة أمراً شبه مستحيل في غياب أماكن الإيواء. والنقطة الثانية قضية الإنفاق، لماذا تم الاقتصار على جزية اليهود، ولم يتم منذ البداية تعيين رواتب من بيت المال؟ أو وقف أحباس على المنشأة تضمن استمرارها ؟

المصدر الثاني الذي تناول المدرسة هو جنى زهرة الآس للجزنائي، حيث قال:"ومما جرى في انتصاب قبلته (جامع القرويين) فيما حكي عن أمير المسلمين أبي يوسف بن عبدالحق رحمه الله بناء المدرسة اليعقوبية التي بقبلته على يد قاضيه أبي أمية الدولبي سنة خمس وسبعين وستمئة، وكان الذي انفرد بنصب قبلتها المعدل محمد بن الحباك ولم يشاركه في ذلك غيره من أهل علم الهيأة، وظهر أنها منحرفة عن قبلة جامع القرويين. أنهي الأمر في ذلك لمولانا أمير المسلمين أبي يوسف المذكور، وقال بعض من حضره ممن لا يحسن العبارة في السؤال والجواب في ذلك: "إن في بعض مساجد فاس انحراف بعضها عن بعض". فرأى رحمه الله أن يجمع فقهاء زمانه للنظر في ذلك، فيحكى أنهم قالوا له:" إن جامع القرويين قد نصبت قبلته على سمت القبلة التي نصبها الإمام الصالح ولي الله إدريس بن إدريس... ومر على ذلك مئون من السنين، وقد صلى إليها جماعة من العلماء والصلحاء والقضاة وأمراء العدل، ممن يقتدى بأقوالهم وأفعالهم ممن لا يحل لأحد أن يظن بهم إلا خيراً فلم يغيروا ذلك ولا حرفوه، وما يظهر في بعضها من الانحراف عن بعض قد يتقارب من الصواب على رأي من يرى أن المطلوب من قبلة مغربنا بل من سائر الآفاق إنما هو لجهة مكة شرفها الله تعالى، لا عين

---

(11) أحمد، بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور، 1973 – 1974، 1ج، ص 339.

(12) علي، الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967م/1387هـ، ص 81.

(13) علي، بن أبي زرع، الذخيرة، ص 163 – 164.

الكعبة، والجهة في ذلك حاصلة، وهو القول الراجح عندهم... واجتهاد الأكثر أقرب إلى الصواب ولايعد من الخطأ، وقد يؤثر مخالفة الأكثر الشنآن بين المؤمنين والادخال في صلاة المصلين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بين المشرق والمغرب قبلة". فأقر ذلك كله على حاله رحمه الله "[14].

يظهر من هذا النص، أن قبلة مدرسة الحلفاويين كانت مثار جدل بين الفقهاء والمسؤولين عن بنائها، وأن هذا الجدل لم يتوقف عند حدود الفقهاء والبناة بل تجاوزه السلطان عندما دعا إلى عقد مناظرة بين من يُؤيد صحة قبلة المدرسة ومن يراها منحرفة، وأن هذا الجدال جرى بين مختص في علم الهيأة أي في الاتجاهات ومطالع النجوم ومطالع الشمس على مدار السنة والذي يختلف باختلاف الفصول وموقع الأرض من الشمس وبين فقهاء يعتمدون على التقليد، وهو ما يصرح به النص علنا عندما يرى الفقهاء أن القبلة الصحيحة هي الموروثة عن الخلف، لا التي تم التوصل إليها عن طريق علم الهيأة وهو علم يقوم على حسابات وقياسات فلكية ورياضية، فالخلاف في هذه المسالة ذو شقين: الأول معرفي، علم الهياة في مواجهة أثر موروث عن السلف. والثاني سياسي وهو جدل بين فقهاء المدينة وبني مرين حكامها الذين أخضعوها بالسيف، وهم قبائل رعوية مقاتلة، فهم بهذا المعنى يتجاوزون حدودهم ويحاولون المس بقدسية معالم فاس الدينية والعمرانية، بل وبنخبها العلمية (فقهاء فاس)، وهو أمر يرفضه هؤلاء. إذن بيت صلاة المدرسة لاتصح فيه الصلاة لأن استقبال القبلة شرط صحة مع القدرة والذكر، وهو مكان اجتماع الطلبة مع شيخهم فإذا حل وقت الصلاة أقيمت الصلاة والمكان غير صالح لذلك، والدراسة تابعة لأنها تعبد أيضا، فلا يصح أن تعقد في هذه المدرسة مجالس للعلم. فكانت الغلبة في هذه الجولة للتيار المحافظ من الفقهاء المعارضين للمشروع من أساسه والمتعللين بعدم موافقة قبلته لقبلة جامعهم الذي بناه مؤسس المدينة المولى إديس الثاني. فما الحل إذن؟

المصدر الثالث المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف لعبد الحق البادسي، جاء فيه:"لما بنى الأمير يعقوب المدرسة في قبلة القرويين من رحبة البقر، وأراد دخولها صلى في جامع القرويين يوم الجمعة وكان الفقيه إسحاق (بن مطهر الورياغلي الأعرج) يصلي في الجانب الغربي من الصف الأول، فلقيه الأمير يعقوب بعد صلاة الجمعة فقام إليه وعانقه ثم قعد معه وقال:" أسألك عن ثلاث مسائل" فقال له:" لافائدة لك في السؤال فإنك لاتعمل بالجواب" فألح عليه وأبى وقال له :" عد عن هذا فما أجيبك بشئ" فقال له :" ادع لنا" فدعا له وانصرف"[15].

---

(14) علي، الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص 81 - 82.

(15) عبد الحق، البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1402 هـ/ 1982م، ص 111.

يؤكد النص على وجود خلاف بين الورياغلي والسلطان يعقوب بن عبد الحق حول ثلاث مسائل لم يتم الافصاح عنها. والذي يظهر من السياق الخاص لورود الخلاف ذكر بناء المدرسة اليعقوبية (الصفارين) والتي كانت موضوع نقاش بخصوص قبلتها كما رأينا في نص الجزنائي والتي استدعت عقد مناظرة بين فقهاء فاس. فإلحاح الورياغلي على عدم قبول سماع السؤال الذي يستفتى فيه السلطان الفقيه دليل على وصول الطرفين الباب المسدود، فلا السلطان يرغب في التراجع عن مشروعه، ولا الفقهاء والمدرسون والذين يمثلهم الورياغلي معززين صفوفهم بطلبتهم، وهم المحسوبون على التيار الصوفي المعارض كما يظهر من ترجمة الورياغلي وسياق ورودها وما تضمنته من كرامات، يرغبون في التراجع. كما تظهر علاقته التي ساءت في لحظة من لحظات الخلاف بينه وبين السلطان والتي أفضت إلى طرده وطرد من تحزب له من الفقهاء والطلبة البربر.

المصدر الرابع المسند الصحيح الحسن تأليف محمد بن مرزوق التلمساني يقول:

"... وهو الذي بنى المدرسة بفاس بعدوة القرويين منها، ولم يكن لأهل المغرب عهد ولامعرفة بموضعها فيما علمت " [16].

يؤكد النص على أن بناء المدارس بالشكل الذي بنى به يعقوب بن عبد الحق مدرسته لم يكن معروفا في المغرب بحسب علمه، رغم ما ذكر في نصوص مختلفة من وجود بنايات مخصصة لتكوين الطلبة منذ القرن 5 هـ / 11 م والتي لم تكن مشابهة لا في الشكل ولا في الوظيفة التي تؤديها لما أحدثه هذا الأمير في فاس. وربما يكون هذا مصدر القلق الذي تملك المعارضين للمشروع. فكيف تم حل هذه الخلافات القائمة حول المدرسة والتي تم التعبير عنها بأشكال مختلفة وملتوية، على المديين القريب والبعيد ؟

حل الخلاف على المديين القريب والبعيد

اعترف المرينيون للتيار المحافظ في فاس بمكانته المتميزة داخل المدينة، وتحمل المعدل محمد بن الحباك المسؤولية كاملة في انحراف قبلة المدرسة عن قبلة القرويين. وهذا يستوجب التخلي عن الصلاة فيها لأنها غير مستوفية لشرط صحة الصلاة. وقد سبقهم إلى هذا الموحدون الذين تخلوا عن الصلاة في مساجد بناها المرابطون، خصوصا في مراكش والتي اعتبروها منحرفة عن سمت القبلة[17]. إذن بهذه الطريقة الذكية تمت محاربة المدرسة واستنهضت الهمم داخل فاس للقيام بذلك.

(16) محمد، بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في ذكر مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 هـ / 1981م، ص 116.

(17) علي صالح، الأيلاني، رسالة في تحقيق قبلة الصلاة بالمغرب، مخوط الخزانة الملكية، رقم: 12399، ص 28 – 30.

حل مسألة التدريس على المدى القريب اقتضى متابعة الدراسة خارج المدرسة، والذين أشرفوا على تكوين الطلبة توزعوا بين جامع الأندلس وجامع الأصدع، وعين لأبرزهما كرسيان باسميهما، الأول كرسي أبي الحسن الصغير الزرويلي بجامع الأصدع، والثاني كرسي سليمان الونشريسي بجامع الأندلس، بعيداً عن مصدر المعارضة التي مثلها جامع القرويين[18].

الفقيه الأول أبو الحسن الصغير الزرويلي ت 719هـ/ 1320م جمع بين قضاء الجماعة بمدينة فاس والتدريس، وهذان المنصبان لا يتولاهما إلا من كان مدرسا في المدارس المرينية بعد أن تم "التطبيع" معها في فترة لاحقة، اشتهر فقيها مالكيا مهتما بأصول الفقه، يحضر مجلسه أكثر من 100 شخص، نقل عنه طلابه شروحا على المدونة متداولة بينهم حتى بعد وفاته. صبور على خشونة تعامل "الطلبة البربر"، استعمل في السفارة إلى غرناطة،[19] وله مع سفير غرناطة إلى فاس قصة، ذلك أنه أمر بجلده عندما تبث عليه شربه الخمر. ما يدل على قوة شخصيته وعدم مجاملته. وهو بعد كل هذا حسن الملبس ذو سمت حسن، مهاب الجانب، وعليه وقار في مجلسه وخارجه.

الفقيه الثاني أبو الربيع سليمان الونشريس ت 705 هـ / 1306م درَّس الفقه في جامع الأصدع، وكان شارحاً للمدونة والتفريع لابن الجلاب في الفقه. له قصة مع أحد طلبته الآفاقيين تدل على صبره، لم توفّه المصادر حقه في التعريف به، تميز هو أيضا بحسن الخلق والسمت ورقة الذوق وحسن الملبس والهيئة؛ وهي صفات تجعله محط تقدير واعتبار من طرف عامة الناس وخاصتهم [20].

إذن اعتمد المرينيون لحل النزاع القائم حول المدرسة سبيل أوسط، يتمثل في الحفاظ على المدرسة مأوى، في حين توبعت الدروس خارجها وخارج القرويين. وتولى المهمة رجال جمعوا بين الثقة لدى المخزن، والتزكية لدى الفقهاء، ورغم ذلك لم يخل الجو من مناوشات بين الطلبة ومدرسيهم، وبينهم وبين زملائهم الذين تعرض بعضهم للطرد من فاس، أولسخط السلطان لما علم أنهم يرغبون في الخروج عن طاعته [21].

---

(18) إبراهيم، أنوار، نقل المعرفة. ص 25 – 30.

(19) إبراهيم، بن فرحون، الديباج المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ب. ت، ص 212 – 213. أحمد، المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، المغرب – الإمارات العربية المتحدة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ب. ت، ع 3 ، ص 23.

(20) إبراهيم أنوار، نقل المعرفة، ص 29، 61.

(21) عبد الحق، البادسي، المقصد الشريف، ص 111، 116.

النقطة الثانية موضوع الخلاف تتعلق بالإنفاق ومصادر التمويل، فاختيار جزية اليهود هو أيضا حل وسط لمسألة الإنفاق في انتظار إيجاد حل للمسألة في إطار أعم وأشمل. بالرجوع إلى النصوص التأسيسية المتعلقة بالمدارس المرينية نجد المدرسة الوحيدة التي تم التنصيص فيها على الانفاق من جزية اليهود هي اليعقوبية، أما باقي المدارس فالحديث فيها عن المرتبات والأحباس. وهذا الأمر يجعلنا نراجع مع الأستاذ محمد القبلي قضية الانفاق واستغراق ذمم رجال المخزن، والسياسة الجبائية المرينية التي تتجاوز حدود الشرع[22]. وهي موضع انتقادات الفقهاء لا فقط في هذه الفترة موضوع الدرس، بل على امتداد فترة حكم المرينيين. وهي التي جعلت أبا الحسن المريني يلوم الفقهاء على عدم التعاون مع المخزن المريني [23].

أما على المدى البعيد، فانطلاقا من 720 هـ/1321م أي مباشرة بعد وفاة أبي الحسن الصغير الذي ترتفع إليه معظم أسانيد المدرسة الفقهية المالكية في المغرب، تم تدشين مدرسة دار المخزن بعيداً عن فاس العتيق عدوة الأندلس وعدوة القرويين. وذلك في المدينة البيضاء(فاس الجديد)" التي اسسها يعقوب بن عبد الحق ومهدها واتخذها مسكنه ومسكن جيشه، ليميز ما بينهم وبين الحضر من أهل فاس" [24].

يظهر جليا من هذا النص أن بناء المدينة البيضاء كان ضرورة اجتماعية، وقراراً سياسياً يحاول تفادي أية اصطدامات بين المرينيين وسكان المدينة العتيقة بعدوتيها. والذي كان موضوع فتنة وتدخل للسلطات المرينية لوقفها[25] والتي رأت أن الحل لتجاوزها هو بناء مدينة جديدة خاصة بالجند والدخلاء الزناتيين ومن إليهم، أي مدينة لا يسكنها إلا الموالون للنظام الجديد والراغبون في الاستفادة منه والتعامل معه، ومن اختار المعارضة فلا محل له بين هؤلاء الحكام الجدد. ويلحق بهذا المدرسة التي بنوها والتي اشتغل فيها مدرسون موالون، وتابع الدراسة فيها المؤيدون. وبناء هذه المدرسة هو الذي دشن مسلسل بناء المدارس المرينية في فاس وخارجها بعد توقف دام من 678 هـ إلى 720 هـ، أي 42 سنة وهي فترة ليست بالهينة، لم يتوقف الحكام خلالها في البحث عن وسائل تضمن لهم استمرار مشروعهم من جهة والتزود بأطر موالية من جهة أخرى. وقد وجدوا في الكراسي العلمية التي تولاها الفقيهان الصغير الزرويلي، والونشريسي خير وسيلة لذلك. وبوفاة هذين الشيخين لم يعد الحديث عن الكراسي التابعة لأشخاص بل سميت الكراسي بأسماء العلوم التي تدرس عليها، عوض ارتباطها بأشخاص بعينهم، وهو تحول كبير له دلالات عميقة تهم التعليم والمؤسسات التعليمية وتهم المدرسين وطلاب العلم.

---

(22) محمد، القبلي، قضية المدارس، كتاب في النهضة والتراكم، الدار البيضاء، 1986، ص 59 - 61.

(23) أحمد، بن القاضي، جذوة الاقتباس، عدد 599.

(24) ابن مرزوق، المسند، ص 116.

(25) علي، بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص 161. محمد، المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، مطابع الأطلس، منشورات كلية الآداب الرباط، ب. ت، ص 292 - 293.

إذن مسلسل بناء المدارس عرف انطلاقته مع بناء هذه المدرسة والتي تبعتها المدرستان الكبرى والصغرى قريبا من جامع الأندلس721 هـ / 1322م ثم مدرسة العطارين قريبا من جامع القرويين 723 هـ/ 1323 ثم مدرسة سلا 733 هـ/ 1333م ومدارس في كل من تازة و أنفا وآسفي و أغمات و مراكش و القصر الكبير و سبتة بين 731 و749 هـ/ 1330 و1348م. ليعود المشروع من جديد إلى مدينة فاس ببناء المدرسة المصباحية 747 هـ/ 1350م والمتوكلية سنة 756 هـ/ 1355م. هذه الجولة التي تطلبت 36 سنة في المغرب الأقصى وامتدت خارجه. انتهت من الناحية العملية بإقرار المدرسة في فاس وخارجها. وشَكْلُ البوعناية ومَوْضِعها يوحي بانتصار المشروع في النهاية وفرض هذا النموذج على الساحة العلمية والتعليمية وتَحدِّيه لأية معارضة قائمة أو محتملة. [26].

أما بخصوص الإنفاق على المدارس ففي البداية كان من جزية اليهود واتضح أن هذا الحل هو توفيقي في انتظار إيجاد حل جدري للمسألة يضمن استمرارها، وينأى بها عن الارتباط بمداخيل غيرقارة. فمع بناء مدرسة دار الخزن أخذ الإنفاق شكلا جديدا يقول فيه بن أبي زرع: " ورتب فيها (مدرسة فاس الجديد) الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤونة في كل شهر، وحبس عليها الرباع والمجاشر. . . " [27] إذن انتقل الإنفاق من جزية اليهود إلى المرتبات الشهرية والأوقاف فما الداعي إلى هذا التحول؟ من الواضح أن التحول تم على مستويين : الأول تحسن في السياسة المالية المرينية مع توفر الرخاء على عهد أبي سعيد وابنه أبي الحسن اللذان ألغيا العديد من الضرائب والمكوس في البوادي والمدن ومنها بالخصوص: فوائد المروس، والخرص، والبرنس، والضيافة، والإنزال، والقاعة، والخطيئة. [28] وتعامل خريجي الكراسي العلمية أي المقيمين في المدارس الأولى مع المرينيين أولياء نعمتهم بعد رحيل الجيل المعارض للمشروع من أساسه، والمكون من فقهاء زهاد اختاروا الابتعاد عن الحكام بصفة عامة. والتحق بهم جمهور من المدرسين الوافدين من الأندلس على إثر تداعي المدن الأندلسية بسبب حروب الاسترداد، والذين وجدوا في المغرب الكبير ملاذا آمنا ودار قرار جديدة. وفي تنافس الدول الثلاث حول جلب هذه الأطر ما يغري بالرحيل إلى الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط.

بعد الذي لقيته المدرسة اليعقوبية في فاس، تمكنت من فرض نفسها على الساحة التعليمية المغربية في البوداي في الحواضر، ولم يتحقق لها هذا الاشعاع إلا مع التحولات التي عرفها المغرب خلال العصر الحديث. فخلال القرن السادس عشر بدأت بوادر تحول مراكز الثقل

(26) إبراهيم، أنوار، نقل المعرفة، ص 47 – 48.

(27) علي، بن أبي زرع، الأنيس الطرب، ص 411 – 412 .

Inscriptions arabes، Journal Asiatique، Juillet- Aout 1917 pp 165 166.

(28) محمد، بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص 282 – 284.

الثقافي والعلمي من الحواضر الكبرى في اتجاه البوادي وهو الأمر الذي ساعد على انتشار هذا النموذج من المؤسسات التعليمية خارج الحواضر مصدرها الأصلي. فالمدرسة السنية لم تكن معروفة في المغرب، وهو ما يؤكده نص بن مرزوق الذي يذكر إحداث يعقوب بن عبد الحق لهذه المؤسسة بالمغرب. رغم وجود مؤسسات تعليمية سابقة كالمساجد والربط.

في الختام يمكن أن نستنتج أن المؤسسات التعليمية الإسلامية في المغرب قديمة قدم الإسلام بهذا البلد وأنها عرفت تنوعا اختلف باختلاف الفترات التاريخية. ففي البدء كان المسجد هو المسيطر على العملية التعليمية. واقتضت ظروف الجهاد تأسيس الربط لإيواء المجاهدين لتتحول مع الزمن إلى أماكن للمرابطة والعبادة والدراسة. وعرفت البلاد مدارس أسسها عبد المومن بن علي الكومي لتكوين الطلبة الموحدين، ينافس بها كبار الشيوخ من الموحدين الأوائل الذين كانوا مصدر إزعاج لسلطته. وتم الاحتفاظ باسم الطلبة كفئة متميزة في العصر الموحدي ذات حظوة وامتياز إلى ما بعد هذا العصر على الأقل معنويا. وأسس المرينيون المدارس في عاصمتهم وخارجها تجمع الفقهاء المالكيين المعارضين السابقين للدولة الموحدية وتعمل على تكوين طلبة، كل هذا لدعم وجودهم على رأس السلطة، فهم مقاتلون رعاة لم ينطلقوا من عقيدة ولم يدافعوا عن مذهب حتى احتكوا بفقهاء فاس المعارضين للمذهب الموحدي. فإذا كان بناء المدارس المرينية يروم إلى تحقيق أهداف سياسية مثل دعم الدولة المرينية ونشر المذهب المالكي وتزويد الدولة بأطر مخزنية مدنية في الغالب، فإنه في النهاية استمر لكن خارج إطاره الأصلي أي الحواضر في العمل يؤدي دور تكوين النخب المتعلمة وكان له نصيب وافر في توسيع القاعدة المتعلمة خصوصا في البوادي، قديمة التعمير والاستقرار. واحتفظ باسم المؤسسة التعليمية المدرسة "لمدرست" والطلبة والفقهاء. وطرق التدريس التي تعتمد أساسا على الحفظ واستظهار النصوص حتى أضحى الحفظ خاصية ملازمة للطالب المغربي و"من لا يحفظ نصا فهو لص" ومن لم يلازم الشيوخ في المدارس فلا قيمة لما يقول، وجرى على ألسن الناس "من لا شيخ له فالشيطان شيخه". أما الكتب التي تم تداولها في المدارس المرينية فهي في الغالب كتب الفقه المالكي وعلوم القرآن، خصوصا القراءات وعلوم الآلة من لغة ونحو وصرف... ففي الفقه: رسالة بن أبي زيد القيرواني وشروحها المختلفة ومختصر بن الحاجب الفقهي وأضيف إليه مختصرالشيخ خليل بشروحه. وفي النحو: الأجرومية لأبي موسى بن آجروم، وألفية بن مالك. فمعظم هذه التآليف تم تداولها في المدارس المرينية. وهذا ما جعلنا نعتقد أن المدارس المرينية وخصوصا المدرسة الأم اليعقوبية أصل المدارس العتيقة في المغرب لأن المحتويات وأشكال التدريس بقيت على ما كانت عليه ولم يمسسها تغيير كبير.

البيبليوغرافية

المصادر:

- إبراهيم، بن فرحون، الديباج المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ب. ت.
- أحمد، بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، دار المنصور، 1973 - 1974.
- أحمد، المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، المغرب، الإمارات العربية المتحدة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ب. ت.
- محمد، بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في ذكر مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1401 هـ/ 1981 م.
- عبد الحق، البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1402 هـ/ 1982م.
- علي، بن أبي زرع، الذخيرة السنية... الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972 م.
- علي، بن أبي زرع، روض القرطاس...الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972 م.
- علي، الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، المطبعة الملكية، 1967م /1387هـ.

المراجع بالعربية :

- إبراهيم، أنوار، أوائل المرينيين والأزغار، الرباط، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزذوج 5 – 6، سنتي 2007 – 2008 م.
- إبراهيم، أنوار، نقل المعرفة في المغرب المريني وإفريقية الحفصية، الرباط، مطبعة المناهل، سلسلة أبحاث، منشورات وزارة الثقافة، 2011 م.
- محمد، المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، مطابع الأطلس، منشورات كلية الآداب الرباط، ب. ت.
- محمد، القبلي، قضية المدارس، ضمن كتاب في النهضة والتراكم، الدار البيضاء، دار توبقال، 1986م.
- هاينز، هالم، أصول المدرسة في الإسلام المؤسسة الجامعية فكرة ودور، طرابلس، الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، ع 20 س ، 1981م.

المراجع الفرنسية:

- Bel, (A), Inscriptions arabes, Journal Asiatique, Juillet- Aout 1917.
- Kably, (M), Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge, Paris, Maisonneuve et Larose, 1984.
- Shatzmiller (M), Islam de campagne et islam de ville, le facteur religieux à l'avènement des Mérinides, Studia Islamica , T, LI,1980.

التمويل القبلي للمدارس العتيقة وتحولاته
مدرسة سيدي يعقوب يإيلالنْ نموذجا

ذ.المحفوظ أسمهر وذ.مبارك أيت عدي
المعهد الملكي للثقافة الامازيغية
ذ.حسن رامو
معهد الدراسات الافريقية الرباط

تقديــم

تعتبر المدارس العتيقة إحدى المؤسسات الجماعية التي أفرزها التنظيم القبلي بالمغرب منذ عدة قرون، تلبية لحاجيات المجتمع من التعليم. ولضمان استمرارية هذه المؤسسات في أداء وظيفتها، تكلفت القبائل بتمويلها وتسييرها وفق نفس نظام تدبير باقي مؤسساتها ذات التدبير المشترك، مثل الأسواق والمخازن الجماعية وغيرها. غير أن التحولات العميقة التي عرفتها البنيات الاجتماعية والقبلية بمناطق انتشار هذه المؤسسات، أرخت بظلالها على هذا النظام. وزاد من وثيرة هذه التحولات، تدخل الدولة الرامي إلى هيكلة التعليم العتيق وجعله موازيا للتعليم العصري. فكيف تساهم القبيلة في تمويل المدرسة كمؤسسة جماعية؟ وهل يتشابه تمويل المؤسسة التعليمية الدينية مع أشكال أخرى من تمويل المؤسسات ذات الصبغة الاجتماعية أوالاقتصادية؟ وارتباطا بالدينامية الاجتماعية بالأطلس الصغير. ما هي أهم خصائص حركية تمويل القبائل للمدارس العتيقة؟

1. الإشكالية والمنهجية

يتناول هذا المقال موضوع التمويل القبلي للمدارس العتيقة وتحولاته، من خلال نموذج مدرسة عتيقة في عمق سلسلة الأطلس الصغير الأوسط، وهي مدرسة سيدي يعْقُوبْ بالمجال الترابي لقبيلة إيلاَلْنْ. وسنحاول أن نبين من خلال هذا النموذج دور القبائل بالجنوب المغربي في بناء مؤسسات التعليم العتيق، وفي تمويلها وتسييرها، متوخين الإجابة على سؤال محوري: هل المدرسة العتيقة مؤسسة جماعية قبلية، أم مؤسسة دينية مستقلة عن هذا التنظيم القبلي، يتم تسييرها وتمويلها وفق ضوابط شرعية بعيدا عن العرف الاجتماعي؟

يندرج الاهتمام بمدرسة سيدي يعقوب ضمن سلسلة أبحاث ميدانية حول إكَودار (المخازن الجماعية) الأطلس الصغير الأوسط، انطلقت منذ سنة 2010. بينت هذه الأبحاث التمهيدية أهمية دراسة منظومة المؤسسات القبلية بهذه المنطقة، خاصة ثلاثية: أكَادير والمدرسة العتيقة

(لْمْدْرْسْتْ) والزاوية (الزِّويتْ)، نظرا لتكامل أدوارها وتفاعلها، لدرجة يصعب معها استيعاب تاريخ أي منها بمعزل عن الأخرى.

فالمؤسسات الثلاث تشترك في كونها جماعية؛ تنتمي إلى نفس المجال الاجتماعي. لكن هل يخضع تدبيرها لنفس المقاربات علما بأنها تختلف من حيث وظائفها؟ فالزاوية مؤسسة جماعية، ذات وظيفة دينية أساسا، والمدرسة العتيقة لها توجه علمي تعليمي، بينما الأگادير، وإن تعددت وظائفه، يغلب عليه الطابع الاقتصادي والأمني.

واستحضارا لأهمية هذه المؤسسات الجماعية، فإنه يمكن القول إن منطقة سيدي يعقوب تشكل مجالا نموذجيا لدراسة تاريخها والتحولات التي تعرفها وقد زاد من هذه الأهمية، تجاور المؤسسات الجماعية االثلاث في مجال جغرافي ضيق، ومعزول عن التحولات التي تعرفها مؤسسات مماثلة. كما أن انعدام دراسات سابقة حولها جعل منها مجالا بكرا للدراسة.

من الناحية المنهجية، تظافرت عوامل عدة لإختيار موضوع المدارس العتيقة في هذا المجال بالضبط؛ فقد كان للتفاعل الإيجابي للقيمين على هذه المدرسة[1]، خلال الزيارات الميدانية المتكررة دورا كبيرا في تسهيل البحث، وبذلك أمكن الاطلاع على وثائق خاصة تهم تاريخ المدرسة وعلاقة القبائل بها، كما سمحت المقابلات مع الساكنة المحلية والقيمين الدينيين بجمع معطيات كثيرة حول تمويل القبائل للمدرسة.

ولعل أول ما يثير انتباه الباحث هو شح الدراسات التي تناولت هذا الموضوع. فالكتابات المهتمة، وعلى رأسها كتابات العلامة المختار السوسي، تشير إلى دور القبائل في تمويل المدارس، لكنها لم تتجاوز مستوى العموميات، فمدرسة سيدي يعقوب، لا نعرف عنها إلا إشارات شحيحة في كتابات عبد الرحمان التمنارتي، ومحمد بن أحمد الحضيكَي، والمختار السوسي، والفقيه محمد بن أحمد البقدوري، وبن عبد الله الالغي، والمهدي بن محمد السعيدي، وعليه، فمازلنا نفتقر إلى دراسة مفصلة تنفذ إلى جزئيات الموضوع، وهو ما يسعى إليه هذا المقال. ونعتقد أن مقاربة من هذا القبيل، إن شملت عينة من المدارس العتيقة، هي السبيل الأنجع لاستيعاب كنه العلاقة الموجودة بين القبيلة الأمازيغية بتقاليدها العريقة من جهة، وبين مؤسسات التعليم العتيقة بتجلياتها الدينية، والتي انتشرت في هذه المجالات بين القرنين 10 و13 للهجرة، من جهة أخرى.

---

(1) لم يكن ممكنا تخطيط هذه السطور لولا مساهمة عدد من أبناء المنطقة. وبهذه المناسبة، نتقدّم بالشكر الجزيل لسيدي يوسف اليعقوبي فقيه وإمام المدرسة، ولسيدي عبد الرحمن اليعقوبي وإلى جميع شرفاء المنطقة ومقدم الطلباء الحالي سيدي حسن، على حسن ضيافتهم و سعة صدرهم، والشكر موصول أيضا للسلطات المحلية وكل من مدّ لنا يد العون.

لأسباب منهجية، وبغرض الاحاطة بالموضوع، تمت برمجة زيارات ميدانية الى مجال نفوذ هذه الزاوية: الأول الى مقر الزاوية وحُرُومِها[2]، والثاني الى مجال القبائل المموِّلة. استهدفت الدراسة في المجال الأول مرافق المدرسة وظروف التدريس، ومقابلة القيّمين المباشرين عليها، مثل الفقيه ومساعده، وبعض المرابطين (إكَرَامْنْ) المنتسبين للزاوية[3].

على مستوى المواضيع، ركزت المقابلات على تاريخ المدرسة وإشعاعها العلمي وطرق تمويلها والتغيرات التي لحقتها، وهنا يبرز مشكل منهجي مرتبط بحساسية الحديث عن محور التمويل لدى المستجوبين وتحفظهم على التفصيل فيه، وبالتالي صعوبة التدقيق في هذا الموضوع، حيث ركز حديث المستجوبين على مناقب فقهاء المدرسة وعن الإشعاع الروحي والعلمي للزاوية، بينما تحاشوا الحديث عن جوانب التمويل نظرا لما يطرحه من حساسيات، غير أن هذه اللقاءات أثمرت الإطلاع على وثائق تاريخية متعلقة بالمدرسة والزاوية، وبالشخصيات العلمية التي بصمت تاريخها، والتي دّون مجملها في عهد سيدي علي أوسعيد (علي بن سعيد)[4].

توخى البحث في المجال الثاني، أي مجال القبائل المموّلة، دراسة مختلف العلاقات التي تربط المدرسة بهذه المجموعات البشرية. كان من المفترض نظريا، أن تشمل الزيارات القبائل الأربع، وهي: أيت تَصْدْمِيْت وإخَلْدْن وأگَارْنْ وأيت عْلي أوْعْلا، لكن تم الاقتصار على القبيلة الأولى. ويعزى ذلك الى، حدة الهجرة، التي انعكست سلبيا على حفظ الذاكرة المحلية ونقلها إلى جيل فترة الاستقلال، كما أفرغت قرى بأكملها من ساكنتها.

وأمام قلة المستجوبين المحليين، قمنا بمقابلة بعض أفراد هذه القبائل المستقرين بمدينة الرباط. لكننا لم نتمكن من مقابلة المحسنين الرئيسيين الممولين للمدرسة، والذين يتمركزون بدورهم في المدن الكبرى (أكادير والدارالبيضاء). تمكنا في مجمل هذه الأبحاث من رصد دور القبيلة في تاريخ المدرسة، ودور الفاعلين المحليين، والمهاجرين، خاصة التجار، في تدبير المرحلة الانتقالية التي تعيشها الآن هذه المؤسسة التعليمية القبلية.

تجدر الاشارة الى أن المقال لن يتناول كل القضايا التي تطرحها هذه المؤسسة القبلية، وإنما سيقتصر على إبراز مايتعلق بدور القبلية في تمويل التعليم العتيق وتسييره والتحولات التي يعرفها.

(2) يقصد بالحروم: المجال المحيط بمقر الزاوية، له حدود معلومة وقوانين تنظيمية. تقدر مساحته بحوالي 5 كلمترات في كل جهة. يحترمه الناس، اعتقادا في قدسية وبركة شيخ الزاوية.

(3) إكرّامن: جمع أگرّام، وهو مصطلح أمازيغي يطلق على العلماء ذوي مكانة اجتماعية وأحيانا علمية مرموقة. من المعلوم أنه في اللغة الأمازيغية نفرق بين أگرام، أي المرابط، وهو الشريف بصلاحه لا بنسبه، وبين شريف النسب الذي ينتهي نسبه إلى آل البيت.

(4) توفي هذا الفقيه عام 1240 هـ. أنظر حوله المختار السوسي، رجالات العلم العربي في سوس، ص 94.

1. التعريف بمدرسة سيدي يعقوب:

2.1. المدرسة تقع بمجال بيْقبلي

تقع مدرسة سيدي يعقوب بمنطقة الأطلس الصغير، وبالضبط في الجزء الأوسط لهذه السلسلة، المتميز بسطح طبوغرافي متقطع، يعكس بجلاء الطبيعة الجبلية للمجال. أما من الناحية الإدارية، فهي تابعة لقيادة وجماعة خميس إداوْكنضيف بإقليم اشتوكة أيت باها، المنتمي إلى المجال الترابي لجهة سوس ماسة درعة. تقع المدرسة عند نقطة التقاء المجالات الترابية للقبائل الأربع المولة. لذا يبدو أنه لا يمكن أن يكون اختيار هذا الموقع من باب الصدفة، بل تم اختياره بعناية فائقة، استحضرت إكراهات التنافس القبلي وحساسياته (أنظر الخريطة). ومما يرجح هذا الرأي، إشارة لوح الزاوية إلى أن حُرُمَها يتوسط مجال قبائل: إخَلْدن وأيت علي أوعْلا وأيت تصْدْميتْ، والهواريين (أݣارْنْ)، أي المولين الأساسيين للمدرسة. نفس المصدر أورد أن مكان الزاوية وحرمها هو من ملكية شرفاء إخلدن[5] المنتمون لقبائل إداوݣنضيف السوسية، مما يرجح تنازل هذه القبيلة عن هذا الجزء من مجالها الترابي، لأنه منطقة استراتيجية، يضمن وجود الزاوية والمدرسة به الاستقرار وحسن الجوار بين القبائل الأربع.



خريطة رقم 1: توطين المدرسة وزاوية سيدي يعقوب داخل المحيط القبلي والطبوغرافي

المصدر: الخرائط الطبوغرافية 1/50000 أيت عبدالله، تنالت، أيت باها، أسادس.

(5) نعتوا بالشرفاء، شأنهم شأن باقي قبائل إلالن. أنظر البقدوري، تاريخ قبائل هلالة بسوس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 51-74.

2.2. مرافق المدرسة تشمل عدة بنايات

ترتبط المدارس العتيقة في الجنوب المغربي باسم شخصية دينية أو باسم قرية أو قبيلة. وفي جل الحالات، فالقبائل هي التي شيدتها، بغض النظر عن الظروف التي دفعتها إلى ذلك. وبخصوص مدرسة سيدي يعقوب، فقد ارتبط اسمها باسم مؤسسها سيدي يعقوب بن يدر، الذي يعتبر أحد أقطاب التصوف في بداية العهد السعدي[6]. كما تسمى أحيانا ب " مدرسة تلاتْ نْ تْسرْكي[7]، وهو اسم المكان الذي اتخده سيدي عْقوبْ أوْ يدْرْ خُلوة له[8].

يصعب التأكد على كون المدرسة بُنيت في عهد سيدي يعقوب، وترجِّح بعض الكتابات التاريخية أن تكون انطلاقتها الفعلية في عهد العلامة سيدي علي بن سعيد، المتوفي سنة 1240 هجرية، والذي قدِم إلى المنطقة من بلاد إنْتيفنْ (هنتيفة) "فعمّر الشرض ونظم الدراسة ونشر العلم، فكانت المدرسة بذلك قِبلة للعلم والفقهاء والطلباء"[9]. ومع بلوغ المدرسة أوجها العلمي، وصل خبر هذا الولي إلى السلطان مولاي إسماعيل، فأمر ببناء قبة عليه وتشييد مسجدها[10].

كما هو الحال في باقي المدارس العتيقة القبلية، حرصت القبائل المؤسّسة لمدرسة سيدي يعقوب، على توفير عدد مهم من المرافق الضرورية لضمان أداء وظيفتها التعليمية، من قبيل غرفة التدريس[11] وغرف الطلبة[12] وغرفة الفقيه[13] وأخْرْبيشْ[14]. هذا إلى جانب مرافق

(6) سيرة هذا الولي مغمورة، لكننا نعلم أنه توفي عام 986 هـ، وأنه لم يكن له عاقب (البقدوري، تاريخ قبائل هلالة، ص 284). وصفه الحضيكي في طبقاته بالشيخ الرباني، العابد، الناسك، الظاهر البركة، المجرب قبره لقضاء الحوائج. (الحضيكي، الطبقات، ج 2، ص 610).

(7) أوردها المهدي بن محمد السعيدي باسم مدرسة تلات نتسركي، دون ذكر أصل التسمية، لأنها مشهورة باسم مدرسة سيدي يعقوب. فهل هذا يرجح أن المدرسة بنيت منذ زمن سيدي يعقوب، ولم تأخد اسم هذا الأخير إلا بعد وفاته؟ أنظر المهدي بن محمد السعيدي، (المدارس العتيقة وإشعاعها العلمي والأدبي بالمغرب: المدرسة الإلغية بسوس نموذجا)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 2006، ص 48.

(8) تعرب الوثائق التاريخية المحلية اسم هذا المكان ب « تلعة الملح»: التلعة باللغة الامازيغية هي تلات، و الملح هي تسركي.

(9) المختار السوسي، سوس العالمة، ص 284.

(10) البوقدوري، تاريخ قبائل هلالة، ص 262.

(11) تعرضت الغرفة الأصلية للتجديد والتوسيع. تقترب مساحتها حاليا من 50 مترا مربعا.

(12) كما جرت به العادة في المدارس القبلية، يقطن كل طالب في غرفة خاصة، لكن عند الإكتضاض يقتسمها اثنان. تعرف هذه البيوت بصغر حجمها واقتصارها على الضروريات، من حيث الأفرشة، و الأغطية، أو غير ذلك.

(13) هي بمثابة مكتب الفقيه وغرفته الخاصة. والراجح أنه، كما هو الحال في مدارس أخرى، كانت بها خزانة المدرسة من كتب ومخطوطات.

(14) يقصد بأخربيش في المدارس العتيقة، مكان تسخين ماء الوضوء، وكذا قاعة التدريس.

أخرى لها علاقة بالتمويل، مثل مخْزَنُ المدرسة[15]، الذي لعب دورا أساسيا في التدبير اليومي لإطعام الطلبة[16]. و مثل غرف التخزين الخاصة بالمدرسة في إگودار[17]، والتي لا تَخْفَى أهميتها كمخزون استراتجي من الشعير، باعتباره أساس التغذية، فضلا عن دورها في تسهيل جمع الأعشار وتبرعات القبائل[18]. وإلى عهد قريب كانت بالمدرسة خزانة كبيرة[19].

وغير بعيد عن مقر المدرسة، نجد منزلا للخادمة (تِكْمي نْ تْوايا) وصهريج الماء (تَنْضْفي نْ لْمدْرْسْتْ)، مما يبين الحرص على تجهيز المدرسة بالموارد الضرورية للتسيير حتى تضمن أفضل شروط التحصيل العلمي، فلا يمكن تصور مؤسسة جماعية في هذه المناطق الجبلية دون صهريج المياه الخاص بها ولا بدون خادمة تتولى عملية الطبخ.

غير أن هذه المرافق في غالبيتها عرفت تدهورا كبيرا اتجه بها نحو الاندثار؛ إذ تعرّض منزل الخادمة للخراب منذ بداية الإستقلال، نفس المصير لحق مخازن المدرسة (إحونا نْ لمدرْسْت) في إگودار القبائل الممولة، بعد التخلي التدريجي لقبائل المنطقة عن مخازنها الجماعية. كما تصدعت البناية القديمة للمدرسة، خاصة غرف الطلبة التي تعرف حاليا أشغال التجديد. أما غرفة التدريس وغرفة الفقيه، فقد تم تجديدها في السنوات الماضية، لم يبق إذن من المرافق القديمة للمدرسة إلا المسجد ومكان الوضوء ومخزن الأقوات وخزان الماء، فضلا عن ضريح الشيخ المؤسّس. ونود أن نشير إلى أن القبائل هي التي كانت تتكفل بكل أشغال الترميم والبناء التي تحتاج إليها هذه المرافق، لكن الأمر الآن يكاد يكون موكولا للخواص من المحسنيين، بتنسيق مع فقيه المدرسة الذي أصبح هو المسير الأول للمدرسة.

(15) تحتوي الزاوية والمدرسة على مخزن صغير لتجميع حاجيات المدرسة والزاوية. تتنوع هذه المخزونات بين الأفرشة، والكراسي، وطاولات الطعام. هذا بالاضافة إلى مواد غذائية كثيرة مثل الزيت، والدقيق، والخضر. كما خُصص لتجميع الحطب ومنتجات أوقاف الزاوية الفلاحية من لوز وأركان وكل ما كان يُهدى ويُتصدق به على الإمام وطلباء المدرسة من (تين، تمر، الخ) وإدام وزيوت (زيت زيتون، أركان، سمن، زبدة).

(16) على رأس كل شهر يقوم ممثلو كل قبيلة من القبائل الأربع باداع نصيب قبيلتهم من المؤن في مخزن المدرسة، وهذا ما يكلف كل واحد منها التنقل إلى مقر المدرسة مرتين في السنة.

(17) اعتبرناها من مرافق المدرسة، لدورها في جمع التموبل وتصريفه.

(18) لا يحتاج المرء التنقل إلى المدرسة إن أراد التصدق عليها بشيء، بما في ذلك النقود. وانما يكتفي بوضعها في غرفة المدرسة بأكادير.

(19) أورد المتوكل عمر الساحلي أنها خزانة « حافلة بالكتب والمخطوطات والمطبوعات النادرة». أنظر المتوكل عمر الساحلي 1990، ج 4، ص 163-164.

3. يخضع تسيير المدرسة لتنظيم قبَلي مُحكم

وضعت القبائل المولة للمدرسة هيكلا تنظيميا، يعمل على تسييرها في إطار التدبير القبلي للمؤسسات الجماعية. كما وضعت لهذا التسيير أنظمة وقوانين بعضها مضمن في لوح الزاوية. ويمكن تقسيم الجهاز الإداري لهذه المؤسسة على الشكل الآتي:

3.1. إنفلاس نْ لّمدرسْتْ

يعدون أعلى هيئة تقريرية داخل المدرسة، يتخذون جميع الإجراءات التي تضمن حسن سير المؤسسة. يقدر عددهم بستة عشر ممثلا: أربعة ممثيلين عن كل قبيلة من القبائل الأربع المولة للمدرسة. يعقدون اجتماعهم مرة واحدة في السنة[20] أو عند الضرورة. لا يشترط أن يحضر اجتماعاته جميع الممثلين ، فمن حضر من هؤلاء الأربعة ينوب عن الباقي، لكن لا يمكن أن يتخلفوا جميعهم. كما يحضر فقيه المدرسة اجتماعاتهم، لكن ليس له أي دور في القرارات التي يتخدها انفلاس القبيلة مثل باقي المدارس العتيقة بسوس. يُناط بمجلس إنفلاس مهام تدبير التموين القبلي للمدرسة ومراقبة مجالات صرفه، ورعاية أحوال الطلبة والفقيه، ومستوى تحصيل الطلبة وجديتهم في العلم. وهذا ما يوضحه نص للمختار السوسي حول مهام إنفلاس في المدارس العتيقة بسوس، والذي جاء فيه: " فمن كان غريبا عرفوه ومن كان أهليا عرفوه ومن ضرب أو شتم أو سب أو سرق أو فعل بطالب المدرسة أو مدرسها ما ينافي ما في السجل، نكلوا به بقدر فعله بعقوبة مالية معينة في السجل، أو من تعرض لمن ذهب إليها أي إلى المدرسة من رجل أو امرأة بشيء من ذلك فإنه يعاقب. . . رعيا للمصلحة المرسلة جوزها علماء سوس"[21]. كما ينظمون للطلبة نزهة سنوية في مجال القبائل المجاورة، والتي تكون مناسبة لحل النزاعات القبلية الطارئة[22] .

يتكلف إنفلاس أيضا بالبحث وباختيار الفقيه المدرّس وتحديد شروط عمله وبتنظيم تناوب نقل الزرع والحطب إلى مقر المدرسة، وتخصيص أيام عمل للترميم والإصلاح، أو غيرها من الخدمات المتعلقة بالسير العادي للمدرسة. وهكذا، وحسب لوح المدرسة والزاوية، ورغم المكانة العلمية الكبيرة لفقهاء المدراس العتيقة، فإنهم بقوا خاضعين لإرادة القبيلة ومن يمثلها من إنفلاس .

(20) عادة، قبل دخول شهر رمضان بعشرة أيام من كل سنة.

(21) السوسي محمد المختار، المعسول، ج 3، ص 276.

(22) هذه العادة معروفة أيضا في كثير من جهات المغرب. من أهدافها الترويح عن الطلبة وحل المشاكل بين القبائل.

2.3. الفقيه

بالإضافة إلى مهام التدريس، يعتبر حاليا هو المسؤول عن التدبير اليومي للتموين. فهو الأمين على مَخْزَن المدرسة، وعلى الأعطيات والهبات التي يقدمها الزوار والمحسنون لتمويل التعليم. كما ينسّق مع أعيان القبيلة في كل ما يتعلق بتسيير المدرسة، باستثناء الجانب العلمي وقبول الطلبة لمتابعة الدراسة؛ إذ أن كلمة الفصل فيها له لوحده، ويختار من بين طلبته مساعدا له، يسمى أمزوارْ نْ طْلبا (مقدم الطلبة).

أمام تراجع دور أمناء القبائل، أخذت مكانة الفقيه في تسيير المدرسة تتنامى، إلى أن أصبح المسؤول الأول عنها، بينما كانت هذه المسؤولية فيما قبل لانفلاس الذين ينوبون عن القبائل الممولة. وقد ساعد على ذلك كونه من عائلة المرابطين (إكْرامنْ) الذين لهم مكانة اجتماعية مرموقة، توارثوا التدريس بهذه المؤسسة.

3.3. مقدم الطلبة (أمْزوارْ نْ طْلبا)

يعتنى بشؤون الطلبة. يختاره الفقيه بين الطلبة النجباء ويفوض له بعض مهام التدبير والتدريس وينوب عنه أثناء غيابه. يتولى تنظيم عملية التناوب بين الطلبة في إعداد الوجبات وإيصال الدقيق إلى الخادمة لإعداد الخبز، كما يحدد الحاجيات اليومية للطلبة والضيوف.

تنامى دور هذا المقدّم ، بعد استقرار الفقيه الرسمي خارج المنطقة[23]، حيث فوّض له هذا الأخير الكثير من مسؤولياته، المتعلقة بالتدريس وبتسيير المدرسة وإمامة الناس في الصلوات[24]، لكن سلطاته لم تصل بعد إلى مستوى التقرير.

4.3. الطلبة (طْلْبَا)

إلى جانب العلم والتحصيل، يساهمون في التسير اليومي للمدرسة، وفق مبدأ التناوب، ففي كل يوم يشترك إثنان أو ثلاث في تحضير الطعام، و في طحن الشعير في أرحية المدرسة سواء تلك التي توجد في ملكية الزاوية او تلك التي تملكها القبائل المجاورة[25]. أما الآن فقد اقتصر دورهم على ايصال الدقيق يوميا إلى بيت الخادمة وتسليم الخبز منها. إلى جانب جلب الماء .

(23) يحرص الإمام على الحضور في المواسيم والمناسبات الدينية لاعطاء الدعاء وتسليم الصدقات والهبات بنفسه.

(24) هذا المسجد لا يصلي فيه الآن سوى الطلبة، دون عموم أهل البلد، الذين لهم مسجد خاص بهم .

(25) اطلعنا على وثائق ملكية بعض هذه الأرحية، وهي في إسم الفقيه العلامة سيدي علي بن سعيد، الذي عرفت المدرسة في عهده ازدهارا كبيرا.

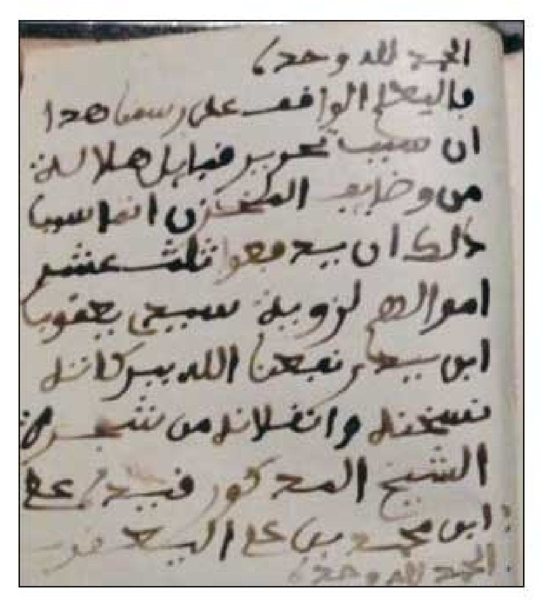
5.3. خادمة المدرسة (تَوَيا نْ لمدرستْ)

كانت في السابق تشترى ضمن العبيد الذين يباعون ويشترون بالمغرب، وتُحبَّس على المدرسة والزاوية وتعد واحدة من تركاتها، لكن بعد تراجع التجارة العبيد، أصبحت المدرسة تستأجر نساء -غالبا من السود- تسند لهن مهمة إعداد الطعام للطلبة وللفقهاء مقابل أجرة سنوية توخذ من مخزن الزاوية: ففي الوقت الذي استغنت فيه كثير من المدارس العتيقة، عن مثل هذه الخدمات تتميز مدرسة سيدي يعقوب بتشبتها بالخادمة. لكن تبقى الإشارة إلى أن عمل الخادمة ينحصر في إعداد الخبز، بينما إعداد المرق يخضع لمبدإ التداول بين الطلباء .

4. مصادر تمويل المدرسة

تعترض الباحث في هذا المحور صعوبات منهجية كبيرة. فبالنظر لسرية الاحسان وحساسية موضوع التمويل لدى المستجوبين (القيمين الدينين)، وصعوبة وصولنا الى سجلات خاصة بمداخيل ومصاريف المدرسة والزاوية، لا نستطيع تقدير مختلف التمويلات التي تقدمها القبائل لمدرسة سيدي يعقوب؛ وعموما، فقد أكدت معطيات البحث الميداني أن القبائل هي التي كانت، إلى عهد قريب، مصدر التمويل الوحيد والأساسي لهذه المؤسسة، فهي التي كانت تتولى مصاريف البناء والترميم، ومؤونه الطلباء وأجرة الفقيه وصيانة المدرسة وأجرة الخادمة. وتعتبر هذه المصاريف المحسوبة للقبيلة، حسب لوح زاوية سيدي يعقوب، هي السبب في إعفاء قبائل إيلالن من الكلف المخزنية، لأنها تؤدي ثلث أعشارها للزوايا والمدارس العتيقة، لكن رغم صراحة نص لوح الزاوية، فإننا نقرّ بمحدودية معرفتنا لحيثيات هذا الإعفاء.

«الحمد لله وحده
فليعلم الواقف على رسمنا هذا أن سبب تحرير قبائل هلالة من وظايف (واجبات) المخزن إنما سبب ذلك أن يدفعوا ثلث عشر أموالهم لزوية سيدي يعقوب بن بدر نفعنا الله ببركاته. نسخناه وانتقلناه من شجرة الشيخ المذكور قيده علي بن محمد بن علي اليعقوبي».



المصدر: مخطوط لوح زاوية سيدي يعقوب، غير منشور.

وبالتطرق لمصادر التمويل مع المستجوبين، وحسب الرواية الشفوية المحلية، يمكن إجمال هذه التمويلات في ما يلي:

1.4. الأعشار (الشَّرْض أو تَفَرْضْ)

يقصد بها نصيب معلوم من المواد الفلاحية، تعاهدت القبائل على دفعه للمدرسة كل سنة، لتغطية نفقات عيش الطلباء والفقهاء وتيسيرا لأسباب التحصيل فيها[26]. وتتكون هذه المواد من ثلث عُشُر الشعير، باعتباره أغلب قوت أهل البلد[27]، ومن الماشية التي حُدد النصاب السنوي فيها في شاة واحدة لكل قطيع. أما بالنسبة للحطب المستعمل في المطبخ وفي تسخين ماء الوضوء والتدفئة، فقد حُدد مقدار الشرط السنوي فيه في ستة أحمال من البغال أو الحمير لكل قبيلة. بالاضافة الى مواد الإنارة المتمثلة في زيت أركان باعتباره منتوجا محليا يستعمل كذلك في الأكل والطبخ. ومقدار الشرط فيه ربع لتر لكل أسرة سنويا[28].

(26) القبائل التي تمون مدرسة سيدي يعقوب بثلث أعشارها الفلاحية هي فرقة اخلدن وفرقة ايت تصدميت وأيت علي أوعلا التي تعد أسرها ب 400 أسرة»، انظر :المتوكل عمر الساحلي، المعهد الإسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضا، 1990، ص 164.

(27) نظرا لاعتماد سكان المنطقة على الزراعة البورية، يعد الشعير من أغلب المواد المزروعة، باعتباره يتحمل قلة التساقطات، وتقسم زكاة الشعير العُشر(1/10) على ثلاثة، يمنح الثلث منه لمدرسة سيدي يعقوب وثلثه الثاني لمدرسة المدشر والثلث للفقيه و لمساكين المدشر.

(28) هذه المعلومة اخذناها من الشيخ محمد، آخر انفلاس قبيلة تصدميت. يعد هذا الرجل المصدر الأساسي للكثير من المعلومات المتعلقة بتمويل القبائل لمدرسة سيدي يعقوب.

2.4 الصدقات والزيارات

بالإضافة إلى المداخيل المرتبطة بالشرط السنوي، تساهم القبائل بموارد أخرى لا تقل أهمية، وذلك خلال «لمْعْروف ن تْقبلين»، الذي ينظّم بالزاوية في عدة مناسبات سنوية. تجدر الإشارة إلى أن هذه المواسم غير مقررّة في الأعراف القبلية المنظمة للعلاقة مع الزاوية، لكنها تكاد تكون ملزمة للقبائل، لما لها من مكانة في المُعتقد المحلي؛ باعتبارها مجلبة لبركة الطلباء؛ ومناسبة لطلب البركة في الضرع والزرع.[29] ومن أشهر هذه المواسم: «موسم البخاري»[30]، الذي ينعقد وجوبا أسبوعين قبل كل شهر رمضان، تحضره جميع القبائل المموِّلة للمدرسة. يحصل الطلبة خلاله على حصة مهمة من الذبائح[31]، بالإضافة إلى ما يكفيهم طيلة شهر رمضان من الإدام والذهون، كالزيت وأرْگانْ واللحوم[32].

إلى جانب هذا الموسم المشترك، تنفرد كل قبيلة من القبائل المجاورة لسيدي يعقوب بموسم خاص بها، تزوّد خلاله الطلباء والفقهاء ببعض المواد التي تنفرد بإنتاجها. من أهم هذه المواسم: مَعْروفُ أيْتْ إيوالْ من قبيلة إخالدن ومعروف إداوكنيظيف ومعروف أيت ترْكا نْ تشْكا. يستفيد الطلبة والفقهاء بنصيب الأسد في الأضاحي وفي التمار والخضر التي تجلبها كل قبيلة إلى المدرس.

بالإضافة إلى ما سبق، تسدي القبائل خدمات غير مباشرة للمدرسة، حيث تتكفل بحرث الأراضي المحبّسة على الزاوية والمدرسة، عن طريق توزي، مثل تلك الموجودة بأولاد برحيل وتارودانت[33]. ومن المعلوم أن غلات هذه الأراضي كانت تنفق في مصلحة الزاوية و المدرسة أو تباع عند الفائض ويُستفاد من ثمنها في نفقات المدرسة. ومن عادات قبائل سوس

---

(29) تشير إحدى الوايات التي أخذناها عن المرابط سيدي عبد الرحمان، إبن عم الشيخ الحالي للمدرسة سيدي يوسف، إلى أن سكان تركا نتيشكا عانوا من جفاف كبير لعدة سنوات، بسبب توقفهم عن الزيارات التي كانوا ينقلونها الى الزاوية، ولم ينعموا بسنوات الخصب إلا بعد أن عادوا إلى إرسال صدقاتهم إلى هذه المؤسسة.

(30) سمي بهذا الإسم ارتباطا بصحيح البخاري الذي يختم نهاية كل شهر رمضان، كما هو الحال في كثير من جهات المغرب.

(31) حول كيفية تقسيم لحوم الأضاحي بين الطلبة والفقيه والزوار، جاء عند المختار السوسي، في إطار حديثه عن مدرسة سيدي بوعبدلي أن الذبائح « ربعها للطلبة والنصف للأستاذ والربع للاضياف الذين أتوا بالذبيحة، هذا خلاف الدجاج فإنه يكون للطلبة خاصة»، خلال جزولة، ج4، ص 20.

(32) ذكر الشيخ مْحْمْدْ أخر إنفلاس تصدميت المكلفين بجمع صدقات المدرسة أن مقدار مساهمة كل أسرة من حيث مادتي الزيت وأركان هي ربع لتر لكل أسرة قبل شهر رمضان. كما جاء عند المختار السوسي أن مقداره هو لتر وربع، إلا أنهم أي القبائل ردوه اليوم إلى لتر، فيكون من السمن إن كان وإلا فمن الهرجان»، خلال جزولة، ج4، ص 20.

(33) اطلعنا على رسوم كثيرة لهذه الأراضي، وهي مكتوبة في إسم الفقيه سيدي علي بن سعيد.

أنها تخصص لفقيه المدرسة شيئا من التبن وما تيسر من عشّر الحبوب، وشيئا من الصوف بحسب رؤوس الغنم، ومقدارا من السمن في فصل الربيع[34] ولم تستثن مدرسة سيدي يعقوب عن هذه القاعدة.

5. رصدت القبائل أجهزة ومؤسسات لتدبير التمويل

1.5. الأمين وانفلاس أهم الموراد البشرية لتدبير مداخيل المدرسة

كما هو الأمر بالنسبة لكثير من المؤسسات الجماعية، انتدبت القبائل المولة لمدرسة سيدي يعقوب جهازا إداريا محكما، يشرف على علاقتها بهذه المؤسسة؛ يتم اختيار أعضائه من إنفلاس القبائل، اعتمادا على عدة مقاييس منها: التجربة والنزاهة والفصاحة والرأي السديد. حُدد عددهم في أربعة رجال عن كل قبيلة، أي ما مجموعه ستة عشر رجلا. يشرفون على جمع الأعشار بعد جني المحاصيل، وعلى تطبيق القوانين العرفية ذات الصلة بهذا الجانب، والمقيدة في لوح الزاوية[35].

لا يستبعد أن يكون لمدرسة سيدي يعقوب أمينا في بداية عهدها، كما هو الحال في باقي المدارس العتيقة القبلية. ومن المعلوم أن الأمين يحتل المرتبة الثانية في الهرم التسييري لهذه المؤسسات، إذ يأتي بعد إنفلاس، من مهامه أنه يدفع للفقيه وللطلبة نفقاتهم في كل شهر، كما توضع مفاتيح مخازن المدرسة في يده. ولأسباب كثيرة استغنت المدارس عن الأمين وتولى الفقيه مهامه.

يقدم لوح الزاوية تفاصيل مهمة حول الشخصيات التي تولت مهمة إنفلاس بمدرسة سيدي يعقوب خلال الفترة المتدة مابين 1136هـ و1299هـ. تضمن أسماء هؤلاء وقبائلهم، كما نظّم هذا اللوح علاقاتهم بمن يمثلونهم. ومما تم التنصيص عليه في هذا الإطار، أن من لعنهم أو شتمهم في مصالح ومسائل الزاوية:« يغرم ثلاثين أوقية[...]ويغرم أيضا صاعا من التمر وطاسة من السمن وصاعا من الدقيق»[36]. كما أن من جمعهم في غير أوقات الاجتماع السنوي، في أمور تهم تمويل الزاوية أو المدرسة فإنه:«يعاقب صاعين من الدقيق وطاستين من السمن لكل يوم إلى فصل مسألته»[37]. كما حسم هذا اللوح في قطعية قرارات إنفلاس، والتي لا رجعية فيها، عندما نص على أن: « من أبَى وعَنَدَ الحق والعرف واللوح يوقف عليه ماله حتى يرجع إلى الحق »[38].

---

(34) صالح بن عبد الله الإلغي، المدرسة الأولى، مرجع سابق، ص 23.

(35) أورد لوح الزاوية مجموعة من الأحكام تفصل في العقوبات ذات الصلة بجمع شرط المدرسة.

(36) لوح الزاوية، الورقة22.

(37) نفسه، الورقة نفسها.

(38) نفسه، الورقة 36.

2.5. يساهم الأكَادير في جميع التمويلات

من المعلوم أن من تقاليد القبائل الامازيغية في الأطلس الصغير الأوسط، التردد بشكل شبه يومي على أكَادير، قصد جلب قوتها من غرف التخزين (أحَانُو). ولا يختلف هذا النظام عما كان معمولا به في المدارس العتيقة، حيث أن إكودار القبائل كانت تشكل حلقة أساسية في تصريف التموين الموجه للطلبة وللفقهاء المدرسيين. ففي مدرسة سيدي يعقوب، اعتمد ممثلو القبائل نظاما يزودها بمتطلباتها االيومية انطلاقا من غرف المدرسة بإكودار. هكذا، يقومون على رأس كل شهر[39]، بنقل المؤنة من هذه الغرف إلى المخزن الموجود بمقر المدرسة. والملاحظ أن القبائل لم تفكر قط في وضع الحاجيات السنوية للمدرسة دفعة واحدة بمقر المدرسة، رغم توفر هذه الأخيرة على مخازن تسع لذلك، ورغم ما تتمتع به الزاوية من حماية روحية، تجعلها في منأى عن السرقة.

قد يبدو أن إكراهات التنقل بين المدرسة وغرفها بإكودار هي التي دفعت إلى اعتماد هذا النظام، لكن في الواقع هناك إيجابيات أخرى تفسر هذه السياسة التدبيرية، فقد بينت التجربة أن الشعير الذي هو أساس التغذية اليومية في المدرسة لا يتعرض للتلف داخل أكادير[40]، كما أن هذا الإجراء يسمح للقبائل بجعل القوت السنوي الموجه للمدرسة تحت تصرفها، ولا تعطي للمدرسة إلا بحسب حاجيات الطلبة، الذين يزيد عددهم وينقص حسب الفصول والسنوات. وهذا الأمر يوضح بجلاء وضعية المدرسة كمؤسسة جماعية تحت تصرف وإرادة القبيلة، كما أن علاقة المدرسة بباقي المؤسسات الجماعية تخضع لميزان قوى ومصالح تتحكم فيها القبيلة بصفة شمولية. وهذا ما يفسر المكانة المحورية لأكَادير ودوره الكبير في تمويل المدرسة. ولربما قد تكون من الأسباب التي دفعت الفقيه سيدي علي بن سعيد إلى قبول بناء أكَادير في حُرُم الزاوية، بالرغم من رفضه لذلك في البداية[41]. نلمس هذه المكانة بوضوح في امتلاك المدرسة والزاوية لغرفتين في أكادير الزاوية، فضلا عن التي تملكها في إكَودار القبائل الأخرى الممولة.

ويساهم الأكادير في تجميع الأعشار المخصص لتغذية الطلبة والفقيه وأسرته والخادمة التي تسهر على شؤون المدرسة في غرف خاصة بالمدرسة ولا علاقة لها بالزاوية. كما تجمع أيضا كل أصناف الصدقات الموجهة إلى إمْحْضَارْنْ (طلبة المدرسة).

---

(39) بتنسيق مع فقيه المدرسة الذي يقدر الحاجيات وفق عدد الطلبة، تحمل من أكادير إلى المدرسة مؤونة الشهر. وهكذا تكون الدورة مرتين في السنة لكل قبيلة.

(40) التلف قد يكون طبيعيا، لأن التقنيات المستعملة تسمح بالحفاظ على جودة الشعير لسنوات عدة. وقد يكون بشريا، لأن وجود الشعير في أكادير يجعله في منأى عن التبدير.

(41) من هذه الاعتبارات، حسب لوح الزاوية، عدم مطابقة الحكم العرفي لأكادير مع الحكم الشرعي.

3.5. للخادمة دور يومي في تصريف التغدية

عند الحديث عن دور الخادمة، يمكن تمييز مرحلتين في تاريخ هذه المدرسة:

♦**مرحلة الأمة** والتي استمرت إلى حدود الثمانينات من القرن العشرين؛ كانت تلعب خلالها دورا محوريا، لأنها هي المكلفة بإعداد الوجبات اليومية[42]. فهي التي كانت تسهر على أعمال المطبخ، وإليها كذلك يعهد تدبير حطب والطهي واستقدام الماء من تنضفي. وغير بعيد عن مقر المدرسة هناك دار مهجورة كانت لأمة المدرسة « تكمي نْ تويا نْ لمدرسْتْ»، تشهد على هذه المرحلة، وعلى ماض زاهر للمدرسة، لعله عهد الفقيه العلامة سيدي علي بن سعيد، لأنها بجوار منزله. والراجح أن الازدهار الذي عرفته المدرسة في عهده هو الذي دفع إلى بناء هذه الدار وتجهيزها بكل الوسائل والمرافق الضرورية. ونود أن نشير إلى أن كثيرا من المدارس العتيقة القبلية بالجنوب المغربي كانت قبل الاستقلال تتخد لها أمةً تتكلف بأعمال المطبخ.

♦ **مرحلة الخادمة**، رغم تسميتها ب " تويا ن لمدرست"[43]، فهي في الحقيقة مجرد خادمة تعد الخبز اليومي للطلبة، أما باقي الخدمات المطبخية، فقد أسندت للطلبة. ونعتقد أن بقاء الخادمة بمدرسة سيدي يعقوب، رغم ما لحق أدوارها من تحول، راجع إلى عزلة المنطقة بسبب طبيعتها الجبلية الوعرة، مما لا يسمح باستقدام الخبز من المخابز العصرية. ومن المتوقع أن يتم الاستغناء عن خدمات هذه المرأة بمجرد ربط المنطقة بالشبكة الطرقية.

6. عرف تمويل القبائل للمدرسة دينامية كبيرة

أ- تحول التمويل من العيني إلى النقدي

مقارنة بسيدي محمد بن يعقوب بامي نْ تاتْلتْ، وفي البدايات الاولى لمدرسة سيدي يعقوب، لم تتعهد القبائل بأي التزام نقدي اتجاهها. فجميع إلتزاماتها كانت عينية، من غالب قوت أهل البلد، بل حتى الفقيه لا تقع النقود في يده إلا بعد بيع إحضاره العيني[44]. غير أنه نتيجة مجموعة من العوامل، كان من الطبيعي أن يتراجع هذا التمويل العيني القبَلي للمدرسة الذي ظل لقرون يضمن أداء رسالتها التعليمية.

---

(42) ربما استثني من ذلك الفطور، كما كان عليه الحال في هذه المدرسة وغيرها من المدارس القبلية في بلاد سوس.

(43) ساهم في استمرار هذه التسمية، أن العائلة التي تنتمي إليها آخر آمة للمدرسة، هي التي ما تزال تتولى مهمة خادمة المدرسة.

(44) لِحْضَارْ في اللغة الأمازيغية يقصد به الأجرة السنوية للفقيه، عينية كانت أم نقدية.

يأتي في مقدمة هذه العوامل التحولات العميقة التي عرفها الاقتصاد الفلاحي المعاشي، وكثافة نشاط الهجرة من المنطقة في اتجاه المدن منذ فترة مبكرة، خاصة مع جفاف 1945 ثم جفاف الثمانينات من القرن20م. كلها إذن عوامل تسببت في تراجع الاشتغال بالزراعة وبالتالي تراجع محصول الشعير بشكل كبير، ومع ذلك تراجع التمويل عن طريق الأعشار. نفس المصير عرفته باقي المنتوجات المحلية التي كانت المدرسة تستفيد منها، مثل زيت أركان والزبدة والحطب. حيث اختزل الكل في مقدار من المال تقدمه كل قبيلة سنويا.

يصعب تتبع تطور مبلغ الالتزام المالي للقبائل بالتدقيق، فالراجح أنه كان في حدود 500 درهم لكل قبيلة سنويا، مطلع الاستقلال، ليصل الآن إلى 2000 درهم سنويا (8000 درهم للقبائل الأربع). يُقتطع منه 2000 درهم كأجرة سنوية للخادمة. أما الباقي فيتم وضعه تحت تصرف الفقيه، باستثناء ثمن الإنارة، الذي بقي من التزامات القبائل، تعويضا لحطب الطهي والتدفئة، كان يقدر فيما سبق بحمولة ستة حمير لكل قبيلة سنويا عوض حاليا بستة قارورات غاز لكل قبيلة في السنة.

لم يعد التمويل النقدي الذي عوضت به القبائل تمويلها العيني يفي بحاجيات المدرسة، التي تكاد تعتمد على تمويلات المحسنين، وبذلك انتقل تمويل المدرسة من فاعل أساسي وهو القبيلة إلى عدة أطراف ومصادر مختلفة. ومع ذلك، فالقبيلة لا تزال تعتبر هي المصدر الأساسي لهذا التمويل الجديد، سواء عن طريق الشرط النقدي أو عن طريق الإحسان وأعشار التجارة.

2.6. تحولات في أجهزة تسيير المدرسة

فكما هو معروف، تقرر القبيلة، من خلال إنفلاس ن لْمدرستْ، في جميع شؤون المدرسة، باعتبارها مصدر التمويل. وأمام التراجع الذي عرفه هذا الأخير وأفول دور القبيلة الاجتماعي، واعتماد المدرسة في مواردها على التبرعات والصدقات، أصبح الفقيه يستأثر، بشكل تدريجي، بالدور التسييري الذي كان للقبيلة، إلى أن أصبح المسير الفعلي لهذه المؤسسة الجماعية. فالممولون الجدد (المحسنون) يضعون ثقتهم فيه، بل يكاد يكون مخاطبهم الوحيد، في الوقت الذي كاد يختفي فيه دور ممثلي القبيلة.

ولعل أهم مثال على هذا التغير الجوهري، أن ممثلي القبائل في مجلس تدبير المدرسة لا علم لهم بتفاصيل الأشغال الجارية حاليا لتجديد غرف إيواء طلبة المدرسة، ولا معطيات لهم حول مالية المدرسة ومصادر تموينها. فالفقيه هو وحده من يملك هذه التفاصيل، وشؤون المدرسة يديرها دون ما حاجة إلى الاستشارة مع ممثلي القبيلة. وانحصر التنسيق بين الطرفين (الفقيه والقبيلة) في المواسم فقط.

ومما يثير الانتباه في هذا المجال، أن رمزية المدارس العتيقة في الحفاظ على اللُحمة القبلية لا زالت مستمرة على مستوى القبيلة الوحيدة، في حين تكاد تفقد مدرسة سيدي يعقوب هذا الدور. تنسحب هذه الملاحظة على قبيلة تَصْدْمِيتْ التي لها مدرسة عتيقة صغيرة، لْمْدْرْسْتْ نْ أكَادير [45]، مايزال فقيهها يتلقى الشرط القبلي، رغم الهجرة شبه الشاملة للسكان.

خاتمـــة

لا يمكن استيعاب موضوع المدارس العتيقة بالمجالات الأمازيغية، إلا في إطار منظومة المؤسسات الجماعية، رغم الخصوصية الدينية لهذه المؤسسة؛ فمن خلال النموذج المدروس، (مدرسة سيدي يعقوب)، يتضح أن القبيلة أضفت خصوصية أمازيغية على هذه المؤسسة، بإعتمادها لنظام تمويلي وتسييري قائمان على أسس النظام القبلي وعلى لوح ينظم العلاقات بين القيمين الدينين وعلى مؤسسة إنفلاس. فهذه المدارس الدينية لا تختلف أجهزة تسييرها وروح قوانينها عن تلك التي نجدها في باقي المؤسسات القبلية العريقة في القدم، كأگادير مثلا، مما يبرهن على قدرة التنظيم القبلي على استيعاب الحاجيات الجديدة للقبيلة وتنظيمها وفق آليات اشتغاله.

فالقبائل الممولة للمدرسة، رغم التحولات العميقة التي جعلت فقيه المدرسة يستأثر بدورها في التسيير والبحث عن التمويل، ما تزال تبدل قصارى جهدها للحفاظ على حضورها بهذه المؤسسة القبلية، هذا في الوقت الذي انهارت فيه الكثير من المؤسسات القبلية. لكن الموضوع الذي يغري بالبحث هو تتبع كيفية انتقال المدرسة كمؤسسة جماعية قبلية أخضعتها القبيلة لقيم ثقافية أمازيغية إلى مؤسسة دينية يضفي عليها الفقيه قيما دينية ورمزية صوفية.

(45) بنيت هذه المدرسة قرب أكادير ن تصدميت، الذي سميت باسمه. فرغم أنها لم تعد تستقبل الطلبة ولا تقام فيها الصلوات الجماعية، فإن القبيلة لا زالت تحرص على تعيين الفقيه فيها وتقويمه.

بيبليوغرافيا

- Meunié- Jacques.D, le Maroc saharien des origines au XVIe sciecle, Paris, 1982.

- البقدري ، محمد، تاريخ قبائل هلالة بسوس ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 2000.

-الحضيكي، محمد بن أحمد، طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، الدار البيضاء، 2006.

- السوسي، محمد المختار، المعسول، مطبعة النجاح ، الدار البيضاء، 1963.

- الإلغي، صالح بن عبد الله ، المدرسة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998.

- المتوكل، عمر الساحلي، المدارس العلمية العتيقة بسوس ، الدار البيضا، 1990.

- السعيدي ، المهدي ، المدارس العتيقة وإشعاعها العلمي والأدبي بالمغرب ، الرباط ، 2006.

المساجد/المدارس* بالريف، نموذج أذوز يابقوين (قبيلة بقيوة)

ذة.صباح علاش

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقـديـم:

بقي المغرب، إلى غاية القرن 19، دون نظام رسمي للتعليم بمختلف مستوياته؛ فالسلطة المركزية اقتصر تدخلها على المساعدة التي تقدمها لمدرسة القرويين بفاس، وإعانات لبعض المراكز التعليمية الدينية بالمدن الرئيسية، كفاس ومراكش وتطوان وسلا والرباط؛[1] أما باقي المستويات التعليمية الأساسية فقد تكفل بها المجتمع، حسب مستوى وموقع وإمكانيات كل منطقة؛ وقد قامت القبائل المغربية ببناء المدارس العتيقة لتحفيظ القرآن وتلقين العلوم الدينية وغيرها من المعارف لأبنائها؛ وكان المتفوقون الذين تساعدهم إمكانياتهم المادية يتوجهون إلى فاس لمتابعة دراستهم بالقرويين، وفي حالات نادرة إلى الشرق، وخاصة الأزهر بمصر.

كانت هذه المدارس جزءا من مرافق المساجد، تتكفل بتعليم الصبيان والكبار، إلى جانب تقديم دروس فقهية ودينية للعموم، في إطار الوعظ والإرشاد؛ وساهمت في تكوين النخب المحلية التي تولت المناصب الرسمية، كتمثيل السلطة المركزية والقضاء، أوتولي التدريس وإمامة صلاتي الجماعة والجمعة.

تشير عدد من المصادر إلى ظهور هذه المدارس بجنوب المغرب،[2] وانتشارها بعد ذلك في مختلف مناطق المغرب؛ ويرجع عدد من الباحثين الظهور الرسمي لهذه المدارس إلى عهد المرينيين[3] الذين فصلوا بين المدرسة والمسجد. وكانت الزوايا من المحتضنين الأساسيين لهذا

---

* آثرنا استعمال المساجد/ المدارس بهذه الصيغة، إذ أكدت الأبحاث والمعاينات التي قمنا بها غياب مدارس مستقلة مجاليا عن المساجد، بل تكون مدمجة داخلها، وفي العقدين الأخيرين بدأت بعض الجمعيات تؤسس دور القرآن تكون مفصولة عن المساجد.

(1) بوجداد أحمد، السياسة التعليمية للحماية الاسبانية بالمنطقة الخليفية سابقا»، رسالة دكتوراه في القانون العام، جامعة محمد الخامس، كلية العلوم الاقتصادية والقانونية، الرباط، 1996، ص 7-8. (رسالة مرقونه)

(2) ابن الزيات التادلي، «التشوف إلى رجال التصوف»، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1984، ص 89.

– مقال حول المدارس العتيقة، إعداد باحثي مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ضمن موسوعة تربوية، قيد التأليف من قبل المجلس الأعلى للتعليم والبحث العلمي.

(3) القبلي محمد « مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط»، دار توبقال للنشر1987، الطبعة الأولى، ص ص 66 – 78.

- A.S Ettahiri «Locaux d'enseignement au maroc islamique: genèse et rôle de la medersa» revue amal N28-29 année 2003.p:28-58.
- M. Shatzmiller «Les premiers mérinides et le milieu religieux de Fès: L'introduction des Médersas », Studia Islamica, 1976, Tome XLII, p.110

التعليم العتيق، إذ كانت فضاءاتها مجالا لاستقبال المريدين، ولإيواء عابري السبيل، وكذلك لتقديم الخدمة التعليمية؛ كما أشرفت على تأطير وتوجيه بعض المدارس التي كانت بعيدة عن مقراتها الرئيسية، ومرتبطة بالمساجد القريبة منها.

ومع دخول الاستعمار بدأ التعليم العصري يزاحم هذه المساجد/ المدارس في أداء أدوارها، خاصة في الأوساط الحضرية التي استفادت من إنشاء المدارس العصرية؛ وبحصول المغرب على استقلاله سنة 1956 لم تتخل المساجد عن دورها في التعليم، بسبب ضعف تعميم التمدرس، خاصة في المناطق النائية؛ ومع الإقبال الواسع على التعليم العصري وتوسيع العرض المدرسي، اقتصر دور المدارس العتيقة، في الغالب، على التعليم الأولي وما يمكن اعتباره تعليما موازيا خلال العطل، حيث توجه العائلات أبناءها، لهذه المؤسسات، لحفظ القرآن؛ واستمر بعضها في أداء مهامه التعليمية التقليدية، ووضعت جسورا بينها وبين المدرسة العصرية، وباقي المؤسسات الوطنية. وتوجت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية هذه الجهود بالعمل على إعادة هيكلة وتنظيم التعليم العتيق، حيث أقر القانون رقم: 13.01 الخاص به، وصدر ظهير تنفيذه في 29 يناير 2002، ونشر في الجريدة الرسمية عدد 4977؛ في 11 فبراير 2002.

تعتبر هذه المدارس العتيقة ذاكرة حية شاهدة على تاريخ المغرب، وتختزن تراثا مغربيا زاخرا، فعلى المستوى المعماري تعتبر أغلبها متاحف معمارية تقدم معطيات غنية حول طرق البناء والمواد المستعملة والزخارف وتقنيات الهندسة المعمارية وتحتفظ بتراث مكتوب وشفوي، يقدم صورة واضحة حول طرق ومناهج التدريس والكتب والمنظومات الشعرية المعتمدة فيه؛ إلى جانب تراث لغوي أمازيغي غني، خاصة وأن الأمازيغية كانت ولا تزال، لغة التواصل في أغلب المدارس العتيقة، وفي الوعظ والإرشاد.

وللمساهمة في التعريف بهذه المدارس وأدوارها، وقع اختيارنا على موضوع المدارس العتيقة بالريف. سنقارب من خلاله خصوصياتها و مميزات التدريس بها، مع التركيز على نموذج لأحد أقدم هذه المدارس/ المساجد، ألا وهو مسجد أذوز (ⴰⴷⵓⵣ) بقبيلة إبقوين (ⵉⴱⵇⵇⵓⵢⵏ) الذي يعتبر معلمة دينية ومعمارية.

1. المدارس العتيقة بالريف:

نظرا لموقع الريف في شمال المغرب، الذي يعتبر منطقة عبور،[4] فقد تميز بحضوره البارز في مختلف الوقائع والأحداث التي عرفها المغرب؛ وساهم في بناء الشخصية العلمية للمغرب منذ عهد إمارة نكور (بين القرنين الثاني والخامس للهجرة)، وذلك باحتضانه

(4) كان منطقة للعبور العمودي- جنوب شمال- حيث ظل منتهى طرق القوافل التجارية البرية، ومنه تنقل البضائع في اتجاه أوربا، وصلة الوصل بين المغرب والأندلس التي خضعت للسيادة المغربية مع المرابطين والموحدين، ومنطقة عبور أفقي من الشرق إلى مضيق جبل طارق وبالتالي إسبانيا والبرتغال.

للعلماء، تفاعلوا مع باقي مدن المغرب والمناطق الأخرى للغرب الإسلامي. لكنه تميز بغياب مدارس مستقلة عن المساجد، إذ بقيت هذه الأخيرة تجمع بين دوري العبادة والتعليم، وكانت فضاءاتها تستقبل المتعلمين، وتوفر المأوى للطلبة القادمين من مناطق وقبائل بعيدة. وقد ساهمت هذه المساجد/المدارس في إشعاع المنطقة وتأهيل عدة متعلمين لاستكمال تعليمهم في جامع القرويين بفاس، ليصبحوا بذلك علماء كبار(5).

وتعتبر هذه المساجد/ المدارس ذاكرة حية لتراث ثقافي لا مادي، ديني ولغوي غني، تشكل الأمازيغية عماده الأساس؛ إلى جانب تراث مادي يتمثل في خصوصياته المعمارية المتميزة. وكانت كل قبائل الريف وجماعاته(6) تتوفر على مساجد خاصة بها، تنقسم إلى مساجد صغيرة لإقامة صلاة الجماعة طيلة الأسبوع، ومساجد متوسطة وكبيرة لصلاة الجماعة والجمعة، وهي السائدة. بعضها قديم لعبت أدوارا مهمة في التعليم والإرشاد الديني، واحتضنت علماء كبار. وتميز الريف، على غرار باقي مناطق المغرب، بوجود أسر اشتهرت بالعلم والصلاح، كانت حريصة على تعلم أبنائها داخل المنزل أولا، قبل الالتحاق بأهم مساجد المنطقة أو خارجها لمواصلة التعليم؛ وأغلب هذه الأسر مرتبطة بأعيان القبائل، كأسرة محمد بن عبد الكريم الخطابي، في قبيلة آيث ورياغل (ⴰⵢⵜ ⵡⵔⵢⴰⵖⵍ). كما اشتهرت عدة قرى بالعلم والصلاح، كقرية أذوز بإبقوين، وكدية أومْليلْ بآيت توزين،(7) وآيت لفقيه سيدي عيسى بدار الكبداني(8).

تتحدث المصادر عن أزيد من أربعين مسجدا بالريف الأوسط، كان إشعاعها كبيرا بداية القرن العشرين، بفضل مساهمتها في الرفع من المستوى العلمي للمنطقة، واحتضانها لعلماء كبار، من خريجي القرويين، نبغوا في مختلف العلوم والمعارف الدينية والعقلية؛ تشد إليهم الرحال طلبا للعلم من مختلف الأصقاع بالريف وغيره، منهم من تولى مسؤوليات قيادية في حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

---

(5) تتحدث الروايات عن علماء من الريف نبغوا في مختلف العلوم، ومنهم من أشرف على تعليم أبناء السلاطين، كالعالم المنفوشة، أحد أعمام محمد بن عبد الكريم الخطابي، الذي عاش في عهد الحسن الأول.

(6) الجماعة أو اجماعث، المقصودة هنا ليست بالمفهوم الترابي والإداري المعروف اليوم، ولكن بالمفهوم التاريخي القبلي والاجتماعي.

(7) حول قرية كدية أمليل يمكن مراجعة كتاب: «كدية أُومليل، القرية الصوفية العالمة» نموذج من قرى العلماء بالريف في النصف الأول من القرن العشرين، لمؤلفه عبد الله عاصم، دار القلم، الرباط الطبعة الأولى 2008.

(8) البطوئي، عيسى بن محمد الراسي، «مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح»، دراسة وتحقيق حسن الفكيكي، مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة 2000، الطبعة الأولى.

وأغلب هذه المساجد استمر إشعاعها العلمي، على الأقل، إلى حين حصول المغرب على استقلاله،[9] وكان معظم الفقهاء والعلماء الذين تولوا تحفيظ القرآن وتدريس مختلف العلوم للطلبة، ينحدرون من الريف ويتحدثون الأمازيغية. فأي حضور لهذه اللغة الأم في مختلف مراحل ومستويات التعليم بالريف؟

2. الأمازيغية وطرق التدريس في المساجد/ المدارس بالريف:

شكلت الأمازيغية اللغة الأساس في مختلف مراحل التدريس بالمساجد/ المدارس بالريف، كما اعتُمِدت في التثقيف الديني، في إطار دروس الوعظ والإرشاد، وخطب الجمعة. وللوقوف على هذا الحضور اللغوي الأمازيغي، تقصينا اعتماده في مختلف مراحل التعلم، وفي أشكال التواصل الديني داخل المساجد.

يمكن تقسيم مراحل التعليم بهذه المؤسسات، إلى أربعة أطوار كبرى[10]، تتمثل في القراءة، ثم الكتابة، بعدهما حفظ القرآن، وفي الأخير الرحلة العلمية لتلقي العلوم الشرعية؛ ينقسم كل طور إلى عدة مراحل لها أسماؤها الأمازيغية وخصائصها المميزة، كما تتفرع هذه المراحل إلى خطوات.

1.2. طور تعلم القراءة:

يلتحق الأطفال ذكورا وإناثا[11] بالمساجد/ المدارس، عن سن يناهز بين ست وسبع سنوات، وناذرا ما يلتحقون قبل هذا العمر؛ وخلال اليوم الأول يكون الطفل مرافقا

---

(9) ينظر الجدول المثبت في الملحق، والذي اعتمدنا في إنجازه على ما أورده أحمد البوعياشي في الجزء الأول من كتابه: حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، دار أمل طنجة، 1976، من الصفحة 64 إلى 75.

(10) لتحديد هذه المراحل قمنا بتقصي ميداني، شمل زيارات إلى مسجد أذوز الذي اعتبرناه نموذجا للمساجد المدارس بالريف، ومسجد مسطاسة وعقدنا عدة مقابلات مع فقهاء درسوا في هذه المساجد وغيرها لمدة طويلة، تزيد عن 40 سنة، وخطباء المساجد، وأعضاء بالمجلس العلمي للحسيمة، وقيمين دينيين، ومسؤولي مندوبية الأوقاف والشؤون الإسلامية بالحسيمة، إضافة إلي عدد من الذين سبق لهم أن درسوا في هذه المدارس، وتوقفوا مبكرا أو أتموا تعليمهم إلى غاية حفظ القرآن ثم اتجهوا لممارسة مهن أخرى لا علاقة لها بالمساجد والتعليم، نذكر من بينهم: امحمذ أعشير خطيب مسجد تانوت بجماعة آيت قمرة، مارس التدريس في مساجد الريف لمدة تزيد عن 30 سنة حفظ على يديه عشرات الفقهاء وطلبة القرآن الكريم، محمد أشهبار خطيب مسجد إمزورن عضو المجلس العلمي للحسيمة، رئيس جمعية الإمام مالك للعناية بالقرآن الكريم، مدير ثانوية سابق، متقاعد، محمد أورياغل، خطيب مسجد محمد السادس بالحسيمة، عضو المجلس العلمي بالحسيمة، أستاذ مادة التربية الإسلامية، عبد الخالد الرحموني، رئيس المجلس العلمي لمدينة الحسيمة، خطيب مسجد مورو بييخو، أستاذ التربية الإسلامية، امحمد الإدريسي قيم ديني بمسجد السنة في الحسيمة. ومحمد سيور أحد فقهاء مسحد أذوز وابن المنطقة.

(11) كان التحاق الفتيات بالمساجد/ المدارس محدودا مقارنة بالذكور، وكانت أغلبهن يغادرن التعلم في مراحله الأولى، وكانت منهن من يواصلن تعليمهن إلى غاية حفظ القرآن، وتلقي العلوم الشرعية المدرسة بمسجد الدوار، لكن لم يكن يسمح لهن بمغادرة العائلة لتلقي العلوم في مساجد أخرى.

بوالده،[12] الذي يقدمه إلى الفقيه، مصحوبا بهدية متواضعة، تكون قطعة نقدية، أو ما بين أربع وعشرة بيضات، كل حسب استطاعته؛ وعادة ما يقابل الفقيه الطفل بملامح صارمة، هدفها تحسيسه بجدية المرحلة التي سيدخلها؛ يُجلس الفقيه الطفل أمامه، بين أقرانه من الملتحقين حديثا بالتعليم، ليقضي بقية يومه في الاستئناس بالأجواء الجديدة التي سيتعود عليها مستقبلا؛ في اليوم الموالي يقوم الفقيه بكتابة الحروف الأبجدية الثمانية والعشرين للغة العربية على اللوح الذي يكون الطفل قد أحضره مسبقا، ليدخل بذلك المرحلة الأولى ضمن طور تعلم القراءة، تسمى مرحلة ألِفْ.

أ. مرحلة ألف:

تهم هذه المرحلة فئة الأطفال الملتحقين بالتعليم حديثا، يكون هدفها تعليم هؤلاء النطق السليم للحروف العربية، واحترام مخارج الأصوات، وتتضمن سبع خطوات متكاملة:

1. خطوة ألف:

يقوم الفقيه بقراءة الحروف الهجائية، يتبعه الأطفال بإعادة القراءة بشكل جماعي، ينتقل من حرف لآخر، وكل مرة يشير بعصاه إلى موقع الحرف في إحدى ألواح المتعلمين، وينتقل مع الحرف الآخر إلى لوح آخر وهكذا دواليك؛ تعاد هذه العملية يوميا، خلال جزء من الحصة الدراسية، وتنتهي بحفظ التلاميذ لكل الحروف الهجائية بشكل متتابع، وإتقانهم لنطقها؛ ليتم الانتقال إلى الخطوة الثانية، دون ضرورة التمييز التام بين رسم الحروف.

2. خطوة ألف وَارْ ئِنْقضْ (الألف لا نقطة له) ⴰⵍⵉⴼ ⵡⴰⵔ ⵉⵏⵇⵇⴹ:

الهدف من هذه الخطوة هو التمييز بين الحروف المنقطة وغير المنقطة، والتعرف على عدد وموقع النقط بالنسبة للحروف، وذلك على الشكل التالي: ألف وَارْ ئِنْقْضَ ⴰⵍⵉⴼ ⵡⴰⵔ ⵉⵏⵇⵇⴹ (الألف غير منقوط)، ألْبَا ئِشْتْ سْوَادّايْ ⴰⵍⴱⴰ ⵉⵛⵜ ⵙⵡⴰⴷⴷⴰⵢ (الباء نقطة واحدة من الأسفل)، أتّا ذْنَايْنْ سْ ظَارْغْ[13] ⴰⵜⵜⴰ ⵜⵏⴰⵢⵏ ⵙ ⴹⴰⵔⵖ (التاء نقطتان من الأعلى)، أثّا ذْرَاثَا سْنْـجْ ⴰⵝⵝⴰ ⵜⵔⴰⵜⴰ ⵙⵏⵊ (ⵙⴹⴰⵔⵖ) (الثاء ثلاث نقط من الأعلى)؛ وهكذا دواليك مع باقي الحروف.

تعاد العملية عدة مرات وعدة أيام، إلى أن يتأكد الفقيه من استيعاب وحفظ الربط بين الحروف ونوع تنقيطها، ليتم الانتقال إلى الخطوة الموالية. ويمكن للفقيه أن يسمح لبعض الأطفال بالانتقال للخطوة الموالية دون الآخرين، حسب تمكنهم من القواعد التي يحاول

---

(12) وفي حالة غياب الأب أو وفاته، يرافقه أقرب الأقارب من جهة الذكور، الذي يكون مسؤولا عن العائلة، كالجد، أو الأخ الأكبر، أو العم.

(13) يسجل اختلاف بين القبائل، في تسمية الأعلى، فهناك من يقول، أظارع ⴰⴹⴰⵔⵖ/ أضالع ⴰⴹⴰⵍⵖ / سنج ⵙⵏⵊ/ سوفجا ⵙⵓⴼⵊⴰ/.

إيصالها لهم، كما يمكن في بعض الحالات الخاصة قهقرة طفل أو أكثر إلى مرحلة أو خطوة أدنى إذا لاحظ عدم قدرته على المسايرة، لسبب ما كالمرض الذي اضطره للغياب، أو ضعف قدراته التمييزية، وبالتالي فالمبدأ التربوي الذي يحكم التعلم هو التدرج[14] من جهة، والتعلم حسب الإيقاع الشخصي لكل طفل.

3. خطوة أَلِفْ أَنْصْبْ ⴰⵍⵉⴼ ⴰⵏⵚⴱ :

يتم خلالها الربط بين كل حرف من الحروف الهجائية وحركة النصب، وتتم العملية بالتتابع، والإعادة بعد قراءة الفقيه كالتالي: ألف أَكْـ أَنْصْبْ ه ⴰⵍⵉⴼ ⴰⴳ ⴰⵏⵚⴱ ⵉⵇⵇⴰⵔ ئِقّا(رْ)[15] أ، أو ألف أَنْصْبْ ه ⴰⵍⵉⴼ ⴰⵏⵚⴱ ⵉⵇⵇⴰⵔ ئِقّارْ أَ، أَلْبَا أَنْصْبْ ئِقّارْ بَ، ⴰⵍⴱⴰ ⴰⵏⵚⴱ ⴱⴰ ⵉⵇⵇⴰⵔ وهكذا إلى أن ينهي الحروف الأبجدية الثمانية والعشرين.

4. خطوة ألف ئِخْفْضْ ⴰⵍⵉⴼ ⵉ ⴳⴼⴹ:

نفس الشيء يتم الربط بين الحروف وحركة الكسرة.

5. خطوة ألف أُوزْفْعْ ⴰⵍⵉⴼ ⵓⵔⴼⵄ :

وهو الربط بين الحروف وحركة الرفع وتبيان طريقة نطقها.

6. خطوة ألف إِكْزْمْ ⴰⵍⵉⴼ ⵉⴳⵣⵎ:

وهو الربط بين السكون وكل حرف من الحروف الهجائية.

7. خطوة التنوين:

يتم فيها الربط بين كل حرف، وحركة التنوين، الفتحتين، ثم الكسرتين، ثم الضمتين، مع الإشارة إلى أن السكونين، غير موجودين ولا يمكن أن يوجدا، وذلك بعبارة: «گْزْمَائِنْ أوجِّينْ أوتِرِينْ» ⴳⵣⵎⴰⵢⵏ ⵓⵊⵊⵉⵏ ⵓⵜⵉⵔⵉⵏ.

ب. مرحلة الْبَا وَاذْ سّينْ ⴰⵍⴱⴰ ⵡⴰⴷ ⵙⵙⵉⵏ :

تستمد هذه المرحلة تسميتها من تتابع حرفي الباء والسين في البسملة، ويتم فيها التركيز على تمييز الحروف داخل الكلمات، والتعرف على التغيرات التي تقع على كتابتها، دون

(14) هذا المبدأ معتمد في التعليم الإسلامي منذ العصر الوسيط، إذ اعتبره بن خلدون وجه الصواب، وطريق الإفادة، في الفصل 29 من مقدمته، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ص 589.

(15) ئقار ⵉⵇⵇⴰⵔ تعني يُقرأ، حرف الراء في قبيلة آيث ورياغر يحذف ولا يقرأ على سبيل المثال: يقولون ئقا ⵉⵇⵇⴰ أغوم ⴰⵖⵓⵎ، بدل أغروم ⴰⵖⵔⵓⵎ.

ربطها بالحركات؛ يكتب الفقيه على لوح كل طفل "بسم الله الرحمن الرحيم"، ويقرأ حروف كل كلمة بالتتابع مع تحديد مواقعها على ألواح التلاميذ، فبالنسبة لبسم يقول: وَا ذْ الْبَا، وَا ذْ سِّينْ وَا ذْ الْمِيمْ، (ⵡⴰⴷ ⵍⴱⴰ , ⵡⴰⴷⵙⵙⵉⵏ , ⵡⴰ ⴷⵍⵎⵉⵎ) هذا حرف الباء، هذا حرف السين، هذا حرف الميم، وينتقل إلى كلمة الله: وَا ذَالِيفْ وَا ذْ اللَّامْ، شَارْطْ سْ اللَّامْ، ثَا ذْ الْهَا ذْبَدْ، ⵡⴰ ⴷⴰ ⵍⵉⴼ, ⵡⴰ ⴷⵍⵍⴰⵎ, ⵛⴰⵕⴹ ⵙⵍⵍⴰⵎ ⵜⴰ ⴷⵍⵀⴰ ⵜⴱⴷ (هذا حرف الألف، هذا حرف اللام متبوع بحرف اللام، هذه الهاء الواقفة)، وينتقل لكلمة الرحمن، بنفس الطريقة: وَا ذْالِيفْ، وَا ذْ اللَّامْ، وَا ذَارَا، وَا ذْ الْحَا، وَا ذْ الْمِيمْ، وَا ذْ النُّونْ ⵡⴰ ⴷⴰ ⵍⵉⴼ ⵡⴰⴷⵍⵍⴰⵎ، ⵡⴰ ⴷⴰⵔⴰ, ⵡⴰⴷⵃⴰ, ⵡⴰⴷ ⵍⵎⵉⵎ ⵡⴰⴷⵏⵏⵓ، ونفس الشيء بالنسبة لكلمة الرحيم؛ ويعيد العملية عدة مرات مع البسملة، وينتقل بعد ذلك للقيام بنفس العملية مع كل كلمات سورة الفاتحة التي يكتبها للأطفال على ألواحهم، وتستغرق هذه المرحلة مدة كافية، تكون كفيلة باستيعاب التلاميذ لمختلف الوضعيات التي تتخذها الحروف داخل الكلمة، ليتم الانتقال للمرحلة الموالية.

ج. مرحلة الْبَا يُخْفْضْ ⴰⵍⴱⴰ ⵉⵅ ⴼⴹ:

تستمد هذه المرحلة تسميتها من باء البسملة المربوطة بالكسرة، يتم خلالها اعتماد نفس المتن السابق، البسملة وسورة الفاتحة، مع الربط بين كل حرف وحركته، والتمييز بين لامي التعريف للحروف القمرية والحروف الشمسية، وكذلك ألف المد التي تكتب مفصولة عن الكلمة، فعلى سبيل المثال كلمة الرحمن يقول عنها: وَا ذَالِفْ، وَا ذْ اللَّامْ أُورْ يِتْمَحِّيصْ أُورْ يِقِّيرْ ⵡⴰ ⴷⴰⵍⵉⴼ ، ⵡⴰⴷⵍⵍⴰⵎ ⵓⵔ ⵉⵜⵎⵃⵃⵉⵚ, ⵓⵔ ⵉⵇⵇⵉⵕ، وَا ذَا رَا غَاسْ أَنْصَبْ ذْ الشَّدَّة ⵡⴰ ⴷⴰⵕⴰ ⵖⴰⵙ ⵏⵚⴱ ⴷ ⵛⴷⴷⴰ، وَا ذْ الْحَا غَاسْ إِكْزَمْ ⵡⴰⴷ ⵍⵃⴰ ⵖⴰⵙ ⴳⵣⵎ، وَا ذْ الْمِيمْ غَاسْ أَنْصَبْ، ⵡⴰ ⴷ ⵍⵎⵉⵎ ⵖⴰⵙ ⴰⵏⵙⴱ، ذِينْ أَلِفْ إِخْذِفْ أُورْ يِتْمَحْص أُورْ يِقِّيرْ أُورْ يِطِيوْظْ أَوْ سْطِّيرْ يِقَّارْ أَكْـ الْمِيمْ مَا،[16] ⵡⴰ؛ ⴷⵉⵏ ⴰⵍⵉⴼ ⵉⵃⵃⴷⴼ ⵓⵔⵉⵜⵎⵃⵃⵉⵙ ⵓⵔ ⵉⵇⵇⵉⵔⵓⵔ ⵉⴹⵉⵡⴷ ⴰⵡ ⵙⴹⵉⵕ، وَا ذْ النُّونْ يِخْفْضْ ⵡⴰ ⴷ ⵏⵏⵓⵏ ⵢⵅⴼⴹ؛ (هذا ألف، هذا لام لا يشكل ولا يقرأ، هذه راء منصوبة ومشددة، هذا حرف الحاء مجزوما، هذا ميم منصوب وهناك ألف لا يشكل ولا يقرأ ولا يصل إلى السطر، يقرأ مع الميم ما، هذا حرف النون مع الكسرة).

بعد تمكن الأطفال من حذق وتمييز الحروف، منفصلة وداخل الكلمات والجمل، بدون شكل ثم مضبوطة بالشكل، دون حروف مد أو مع حروف المد، يكون طور نطق وقراءة الحروف والكلمات قد انتهى، ويكون الطفل مؤهلا لطور تعلم الكتابة.

---

(16) وإذا أراد الفقيه أن يضفي على الأجواء مسحة من المرح والضحك، يضيف عبارة «أَمْذْرُوسِّي ڭـو فْطِيرْ، ذْ التّسْبِيحْ ڭـيري أو فْقِيرْ»، (ⴰⵎⴷⵔⵓⵙⵙⵉ ⴳⵓ ⴼⴹⵉⵕ ⴷ ⵜⵜⵙⴱⵉⵃ ⴳⵉⵔⵉ ⵓⴼⵇⵇⵉⵔ) (كالسمن في الفطير والسبحة في عنق الفقير [يطلق عادة على المتصوف أو الشيخ الكبير العمر])

2.2. أَرْمَاذْ إِخْنِّيشْنْ نْ تِيرا ⴰⵔⵎⴰⴷ ⵉⵅⵏⵉⵛⵏ ⵏ ⵜⵉⵔⴰ (طور تعلم الكتابة):

يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل أساسية:

أ. مرحلة تعلم كتابة الحروف:

يقوم الفقيه بإعداد أقلام من القصب ويوزعها على الأطفال، ويأخذ الألواح ويكتب عليها بقلم القصب، مجموعة من الحروف/ إِخْنِّيشْن ⵉⵅⵏⵉⵛⵏ دون استعمال الحبر، ويطلب من الأطفال إعادة كتابتها باستعمال القصب المغموس في قليل من الحبر/ سْمْخْ ⵙⵎⵅ، وتعاد العملية عدة مرات، إلى أن يتأكد الفقيه من حسن استعمال الطفل للقلم، وتتبعه الجيد لأثر الحروف التي يكتبها له لينتقل إلى المرحلة الموالية.

ب. مرحلة كتابة الحروف والكلمات:

يقوم الفقيه في هذه المرحلة بوضع عدة سطور على ألواح الأطفال، دون استعمال الحبر، ويكتب في أعلى كل لوح مجموعة من الحروف، بالحبر أو بدونه، ويطلب من الأطفال إعادة كتابتها على السطور المعدة لذلك، تعاد العملية عدة مرات، وعندما يلمس الفقيه تحسن مهارة كتابة الحروف لدى الطفل ينتقل إلى كتابة الكلمات، التي تكون عادة مكونة للبسملة، وبعد إتقان الطفل لكتابة البسملة وسورة الفاتحة، يحق له أخذ المبادرة في كتابة السور القصار للقرآن الكريم، وهي المرحلة الأخيرة في تعلم الكتابة.

ج. مرحلة المبادرة والكتابة المسترسلة:

يأخذ كل طفل المبادرة في كتابة السور القصار التي يكون قد حفظها، مع باقي زملائه عن طريق القراءة الجماعية، وتتم هذه الكتابة تحت مراقبة وتوجيه الفقيه، إذ يسأله كل طفل استعصت عليه كلمة من الكلمات، أو اختلط عليه حرفان متقاربان في النطق، كأن يقول الطفل بالأمازيغية: "أَسِيذِي رْفْقِي إذا زلزلت التَّا مَا ذْبْذْ مَا ذْطّسْ" ⴰⵙⵉⴷⵉ ⵔⴼⵇⵉ ⵉⴷⴰ ⵣⵓⵍⵣⵉⵍⴰⵜ ⵜⵜⴰ ⵎⴰ ⵜⴱⴷ ⵎⴰⵜⴹⴹⵙ (يستفسر عن التاء، هل هي مربوطة، أم مبسوطة)، فيدله الفقيه إلى الكتابة السليمة، أو يسأل عن كلمة الصراط بقوله: "الصراط مَا سْ السِّينْ مَا سْ الصّادْ، مَا سْ التَّا ذَامْزْيَانْدْ نِيغْ سْ الطّا ذَامْقْرَانْدْ"، ⴰⵚⵚⵉⵕⴰⴹ ⵎⴰ ⵙ ⵙⵙⵉⵏ ⵎⴰ ⵙ ⵚⵚⴰⴷ، ⵎⴰ ⵙ ⵜⵜⴰ ⴷⴰⵎⵣⵢⴰⵏⵜ ⵏⵉⵖ ⵙ ⴹⴰ ⵜⴰⵎⵇⵕⴰⵏⵜ يجيبه الفقيه: "الصراط سْ الصاد، ذْ الطّا ذَامْقْرَانْدْ مِيغَا يْجَّا يْشْ"، ⴰⵚⵚⵉⵕⴰⴹ ⵙ ⵚⵚⴰⴷ ⴷ ⴹⴹⴰ ⵜⴰⵎⵇⵕⴰⵏⵜ ⴷ ⵎⵉⵖⴰ ⵢⵊⵊⴰ ⵢⵉⵛ والترجمة الحرفية لجواب الفقيه هي: «الصراط تكتب بالصاد، والطاء الكبيرة ذات القرن»؛ وتستمر هذه المرحلة لمدة طويلة، إلى أن يتمكن الأطفال من إتقان الكتابة؛ ويلاحظ في هذه المرحلة وغيرها الاعتماد الأساسي على الأمازيغية كأداة للتواصل والفهم. وبانتهاء طور الكتابة يبدأ طور الحفظ والمحو، الذي يستغرق سنوات.

3.2. طور الحفظ والمحو:

قبل إنهاء المتعلم لطور تعلم الكتابة يكون قد حفظ على الأقل السور القصار، المكونة للحزب الأخير (الستون)، المعروف بحزب سَبِحْ الذي يبدأ بسورة الأعلى، ومن له ذاكرة قوية يكون قد حفظ عدة أحزاب، وذلك بفضل القراءة الجماعية المعتمدة؛ وبدخول طور الحفظ والمحو تعاد كتابة السور المحفوظة، واستظهارها أمام الفقيه، ليتم الانتقال إلى اعتماد التحزيب[17] في الكتابة والحفظ، ويختلف حجم الكتابة في اللوح حسب قدرة المتعلم على الحفظ، إذ تتراوح بين نصف ثمن الحزب، والحزب بأكمله، مرورا بالثمن والربع وثلاثة أرباع الحزب؛ والقاعدة المعتمدة هي: لا محو، إلا بعد الاستظهار السليم لما كتبه المتعلم تحت إشراف الفقيه، الذي يأمر بالمحو أو تعميق الحفظ؛ وعندما يصل المتعلم إلى حفظ أزيد من عشرين حزبا يمكنه تغيير اللوح الخشبي إذا كان حجمه صغيرا لا يكفي للكتابة، ويعتمد الطلبة على القراءة الجهرية أثناء حفظهم، كما يلجأ بعضهم لاستعمال ما يسمى ذَقْسَّاخْث ⵜⴰⵇⵙⵙⴰⵅⵜ، وهي عبارة عن قطعة خشبية صغيرة يتابع بها ما يقرأه، وعندما تستعصي عليه بعض المقاطع، يتكئ عليها بِذَقْسَّاخْثْ بكل قوة، ويعيد قراءتها عدة مرات بصوت مرتفع، إلى أن يحفظها.

تتم عملية الحفظ للأحزاب الستين المكونة للقرآن بشكل مسترسل، في المرة الأولى، وتسمى بالأمازيغية ذِغْرِي نْ رُهُجَا ⵜⵉⵖⵓⵔⵉ ⵏ ⵔⵀⵊⴰ، أي القراءة بشكل متواصل ومسترسل، دون احترام علامات الوقف؛ وبعد إتمام كتابة وحفظ ومحو جميع أحزاب القرآن، يكون الطالب قد أتم السلكة/ أسْرْكْثْ الأولى ⵙⵙⵔⴽⵜ ⵜⴰⵎⵣⴳⴰⵔⵓⵜ ويعود مرة أخرى لكتابة وحفظ القرآن في سلكات أخرى، ولكن باعتماد القراءة بالوقف، أي احترام علامات الوقف. وهي قراءة صعبة، نظرا للآيات المتشابهة، وتعدد قواعد الوقف؛ وقد أبدع الفقهاء الأمازيغ في المنطقة مجموعة من الأراجيز تسمى "رْنْصُوصْ" ⵔⵏⵚⵓⵚ،[18] تم نظمها بالأمازيغية، لتحديد قواعد ومواقع الوقف، نذكر منها نموذجين على سبيل المثال: " إلاَّ اللهَ كْـ القرآن خْمْسَ إكْـ تْوْقَّافْنْدْ، إِذا لَقُوا ذِنْ إجّنْ، الْفَرِيقَيْنْ يْهْوْنْ، وَمَنْ يَقْنُطْ يَا طُورْبَا، أَهِنَّكُمْ وَاذْكُرُوا"، " سْتَ نْغْنِ سَارُوفْعْثْ إلاَّ اللهُ، على سفرٍ خْمْثْ، أحس أَكْنْ يْشْمْثْ، سارعوا أَكْنْ يْذْرَا، الجنة إِفْرْحْنْ، رْسْوْا إِنْسْ إِزْوْقْنْ، فظل إِغْوْجَانْ، جوابا ذِنْ إِتْنْزْرَا."ⵉⵍⵍⴰ ⵍⵍⴰⵀ ⴳ ⵍ ⵇⵓⵔⴰⵏ ⴳⵎⵙⴰ ⵉⴳⵉ
ⵜⵡⵇⵇⴰⴼⵏ, ⵉⴷⴰ ⵍⴰⵇⵓ ⴷⵉⵏ ⵉⵊⵏ, ⵍⴼⴰⵔⵉⵇⴰⵢⵏ ⵢⵀⵡⵏ, ⵡⴰⵎⵏ ⵢⴰⵇⵏⵓⵟ ⵢⴰ ⵟⵟⵓⵕⴱⴰ ⴰⵀⵉⵏⵏⴰⴽⵓⵎ

(17) تتم البداية من آخر حزب في القرآن، والتقهقر تدريجيا، إلى غاية سورة البقرة التي تتضمن الأحزاب الخمسة الأولى، ويتم تفييئ المتعلمين حسب عدد الأحزاب التي حفظوها.

(18) شملت هذه المنظومات الشعرية الأمازيغية مختلف الجوانب، سواء العبادات أو المعاملات، كانت هناك مدونة كاملة بالأمازيغية خاصة بقواعد رسم القرآن، وأخرى تتعلق بالإرث، وقد أكد لنا الأستاذ محمد أشهبار وقوفه على أراجيز أمازيغية خاصة بالوضوء، وأخرى خاصة بالصلاة، وقد عاينها مكتوبة ضمن الكتب التي كانت في مسجد أذوز، لكنها ضاعت، أو نقلت إلى جهة ما ضمن مجموع الكتب التي كانت بالمسجد.

ⵡⴰⴷⵇⵓⵔⵓ ⵙⵜⵜⴰ ⵏⵢⵏⵉ ⵙⴰⵔⵓⴼⵖⵜ ⵉⵍⵍⴰ ⵍⵍⴰⵀ, ⵖⴰ ⵍⴰ ⵙⴰⴼⴰⵔⵉⵏ ⵅⵎⵜ, ⴰⵃⵙ ⴰⵇⵏ ⴽⵛⵎⵜ, ⵙⴰⵔⵉⵖⵓ ⴰⵇⵏ ⴽⴷⵔⴰ ⵍⵊⵏⴰ ⵉⴼⵔⵃⵏ, ⵔⵙⵡⴰ ⵉⵏⵙ ⵉⵣⵡⵇⵏ, ⴼⴷⴰⵍⵍⴰ ⵉⵖⵡⵊⵏ, ⵊⴰⵡⴰⴱⴰⵏ ⴷⵉⵏ ⵉⵜⵏⵣⵔⴰ، باعتماد النص الأول يعرف الطالب أن إلا الله بالنصب، توجد منها فقط خمسة تحمل علامة الوقف، تحددها المؤشرات المقدمة؛ وباعتماد النص الثاني، يعرف مواقع الوقف الستة التي تكون بعد إلا اللهُ المرفوعة؛ وهناك رْنْصُوصْ التي تميز بين الكلمات التي تكتب بحرفي الظاء والضاد وغيرها.

تجدر الإشارة إلى أن العملية التعليمية في الأطوار والمراحل السابقة، كانت تتم في نفس المكان وتحت إشراف الفقيه،[19] الذي يصنف طلبته حسب مستوياتهم الدراسية، ويوزع توقيته بين جميع فئاتهم، حيث تتناوب المجموعات على المثول أمامه واستظهار ما حفظه أفرادها، كما يخصص أوقات محددة للذين يدققون كتابة القرآن ويتعلمون الوقف، وغالبا ما تكون بعد صلاة الفجر، أو بعد غروب الشمس.

4.2. طور الرحلة العلمية / أَخْنْشْ ⴰⵅⵏⵛ:

بعد حفظ الطالب للقرآن بالقراءة المسترسلة، "رْهْجَا" ⵔⵀⵊⴰ وقراءة الوقف، "رْوْقْفْتْ"ⵔⵡⵇⴼⵜ، يكون في حاجة إلى تدقيق حفظه وقراءته وكتابته للقرآن، وتسمى هذه المرحلة "أَصْفّي نْ جُّوحْ"ⴰⵚⴼⴼⵉ ⵏ ⵊⵊⵓⵃ؛ يبحث فيها عن فقيه متمكن من قواعد الوقف، يقال عنه "رْفْقِي ذَاخْطَّاوِي"ⵔⴼⵇⵉ ⴷⴰⵃⵟⵟⴰⵡⵉ، أو "رْفْقِي ئِسْنْ ذاخْطِّيثْ"ⵔⴼⵇⵉ ⵉⵙⵙⵏ ⵜⴰⵃⵟⵟⵉⵜ، أي أنه عارف وخبير بقواعد الوقف، والمتشابه في القرآن، والأخطاء الشائعة في الحفظ والكتابة والقراءة، فيشد الرحال إليه للاستفادة من علمه وخبرته، وقد ينتقل إلى فقهاء آخرين إلى أن ينهي تدقيق حفظه وكتابته، وقراءته للقرآن، وقد يتعلم عدة قراءات، على يد شيوخ وفقهاء مختلفين، وفي مدارس مختلفة، وتسمى هذه الرحلات العلمية، أَخْنْشْ ⴰⵅⵏⵛ، وطالب العلم أَمْخْنْشْ ⴰⵎⵅⵏⵛ.[20]

---

(19) قد يستعين الفقيه بأحد الطلبة الكبار الحافظين للقرآن في مساعدته، ويسمى هذا الطالب المُراجع، كما قد تضطر الجماعة التي تتولى الإشراف على تدبير المسجد/المدرسة إلى التعاقد/الشرط مع فقيه ثاني، إذا كان عدد الطلبة كثيرا.

(20) كانت اجماعث/الجماعة المستقبلة تتكفل بإطعام الطلبة، حيث كانوا يرسلون عادة أصغرهم سنا كل مساء، ليطوف حول عدد من المنازل ويجمع المعروف، وهو حصص من الأكل الجاهز، والخبز والبيض تكفي ليوم كامل؛ وتتم العملية بالتناوب بين مجموعات منازل. رغم الطابع غير الإلزامي للمعروف، فالسكان يعتبرونه التزاما أخلاقيا، ولا يتأخرون في الجود بما يملكون؛ على خلاف مؤونة الفقيه التي تكون إلزامية ومضمنة في الشروط المتعاقد عليها مع الجماعة، وتسمى «النوبث» ⵏⵓⴱⵜ، تجلب يوميا بالتتابع بين أسر الجماعة، قاعدتها أن كل رجل متزوج يعتبر "نوبة"، فكل منزل تكون به على الأقل نوبة واحدة؛ وعند أخذ الطالب للنوبة، يخبر المنزل الموالي ليعد نوبة الغد، وتكون مكوناتها أكلة ناضجة، أو مواد طازجة يتم طبخها في المسجد من قبل الفقيه.



بعد "أَصْفِّي نْ جُوخْ" ⴰⵚⴼⴼⵉ ⵏ ⵊⵓⵅ قد يعود الطالب إلى مسجده الأصلي أو مسجد آخر ليحفظ الأجرومية والألفية بنفس الطريقة التي حفظ بها القرآن، أي الكتابة والحفظ والاستظهار على مسامع الفقيه ثم المحو.

بعد ذلك يكون طالب العلم أمام خيارين: إما مواصلة الرحلة العلمية / أَخْنْشْ ⴰⵅⵏⵛ والاستزادة من معين العلوم الشرعية، إلى أن يكمل دراسته في جامع القرويين بفاس، ويصبح في نهاية المسار في مصاف العلماء، أو يختار إمامة الصلوات الخمسة، والتدريس في أحد المساجد، ويسمى بذلك فقيها صغيرا، إذا كان المسجد كبيرا وتقام فيه صلاة الجمعة التي يتكفل بها فقيه آخر مشهود له بالعلم يسمى الفقيه الكبير. أو يختار مسجدا صغيرا لا تصلى فيه الجمعة، يشرف فيه على إمامة الصلوات الخمس، وتعليم الصبيان.

تسمى دراسة العلوم اللغوية والشرعية، "ذِغْرِي نْ توْرِيقِينْ" ⵜⵉⵖⵔⵉ ⵏ ⵜⵡⵔⵉⵇⵉⵏ، وتعني حرفيا الدراسة في الأوراق، قد تكون التسمية مرتبطة بندرة الكتب، حيث كان المسجد يتوفر على نسخة واحدة أوراقها مفككة ومجموعة في ملف خاص، يأخذ منه الفقيه في كل مرة مجموعة من الأوراق يوزعها على طلبة العلم، لتقرأ بالتتابع، ويتدخل هو لتقديم التوضيحات والشروح اللازمة على كل ورقة؛ وقد يكون الأمر مرتبطا بصعوبة الطبع حيث كانت تنسخ الكتب يدويا بالمسجد/المدرسة[21] من طرف فقيه أو طالب له خط جيد، وتجمع أوراقها في ملفات للدراسة والتوضيح والشرح والتعليق من قبل العلماء.

ويبقى الطالب متنقلا بين مساجد الريف، وخاصة منطقتي غمارة وجبالة، يدرس أمهات العلوم، المرتبطة بالمعرفة اللغوية البلاغية، والفقهية العقدية، والأحكام الشرعية، والفتوى، وخاصة مؤلفات بن أجروم، وبن عاشر والإمام مالك، وأبي زيد القيرواني.

بعد الانتهاء من الدراسة في مساجد الريف، ينتقل الطالب الراغب في مواصلة مساره الدراسي إلى فاس، خاصة إذا كانت أسرته ميسورة أو معروفة بالعلم، ليحصل على إجازة عدد من الفقهاء، وكان من مفاخر الطلبة تعدادهم للفقهاء والشيوخ الذين تتلمذوا على أيديهم، ويمكن لطالب العلم أن يستمر بالقرويين إلى الحصول على شهادة العالمية؛ وفي حالات نادرة يتجه إلى المشرق، وخاصة الأزهر بمصر لاستكمال وتعميق معارفه.

5.2. اعتماد الأمازيغية في خطب الجمعة ودروس الوعظ والإرشاد:

إلى جانب الدروس التي تقدم للطلبة حسب مختلف أعمارهم ومستوياتهم الدراسية، كانت المساجد/ المدارس تقدم دروس الوعظ والإرشاد لكبار السن، باستعمال الأمازيغية وتكون مفتوحة في وجه الجميع، كما كان كبار السن يحضرون بعض الجلسات الدراسية الموجهة

(21) تمكنا من الإطلاع على نسخة للقرآن، وأخرى لأحد الكتب الفقهية منسوختين في مسجد أذوز، حسب إفادة محمد أشهبار، وتوجدان ضمن الوثائق التي يملكها، وقد استنسخنا عددا من صفحاتهما. (انظر الملحق)

للطلبة، وخاصة المتعلقة بالإرث وعلم التوقيت، وكانت، ولا تزال، خطبة الجمعة تقدم كذلك بالأمازيغية، وهناك صيغتين معتمدتين في مساجد الريف،[22] إحداهما يقوم فيها الخطيب بعد الآذان الأول بالصعود على المنبر وتقديم مضمون خطبة الجمعة بالأمازيغية مع الشرح الوافي، وبعد انتهائه، تؤذن الآذانات الثلاثة لظهر الجمعة، ويقدم خطبتي الجمعة، مرة أخرى، باللغة العربية الفصحى تتلوها صلاة الجمعة؛ الصيغة الثانية تقدم فيها خطبة الجمعة بالعربية بشكل عادي، وبعد الصلاة يعود الخطيب مرة أخرى إلى المنبر لتقديم مضمون الخطبة بالأمازيغية.

يلاحظ مما سبق أن الأمازيغية كانت حاضرة بقوه في مختلف المراحل التعليمية، باعتبارها اللغة الأم للمتمدرسين والمدرسين، تساعد على سرعة الاستيعاب والفهم، كما تسهل حذق القواعد الأساسية لمختلف العلوم والمعارف؛ وكانت اللغة الأساسية للتواصل مع عموم الجماعة، ورواد المساجد/ المدارس بالريف.

فما هي أهم الخصوصيات المعمارية والثقافية لفضاءات هذه المساجد/ المدارس بالريف، وخاصة مسجد قرية أذوز؟

3. مسجد قرية أذوز تراث ثقافي ومعماري:

يتميز الريف بكثرة المساجد والزوايا، والأضرحة والمزارات، نتيجة لانتشار ظاهرة الصلحاء والتصوف به منذ العصر الوسيط،[23] وشمولها لمختلف مناطق الريف بداية من تدغين، أعلى قمة في جبال الريف، حيث يوجد مزار «سيدي غِيرْ»، وصولا إلى أصغر الدواوير.

وتتوفر هذه الأنواع من المرافق الروحانية على تراث معماري غني،[24] يعتبر مسجد أذوز أبرز نماذجه، فهو معلمة بارزة في التراث المعماري المبني بالريف، إذ لا يشبهه سوى مسجد مسطاسة، غير أن الأول حافظ على جماليته وزخارفه التي تبهر كل زائر[25].

---

(22) نعتقد أن اعتماد الأمازيغية كان معمولا به منذ دخول الإسلام إلى الريف، وتم تأكيده كخيار مع الموحدين الذين كانوا يشترطون ازدواجية اللسان، العربي والأمازيغي، لدى الخطباء.

(23) البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، «المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف»، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط 1984.

(24) إلى جانب التراث المعماري، تعتبر هذه الفضاءات محمية لتراث طبيعي مهم ونادر، يشكل الغطاء النباتي أبرز مكوناته، خصوصا في محيط الأضرحة، وذلك راجع إلى خصوصية هذه الأماكن، التي تعتبر مقدسة ومحترمة من قبل الجميع، ويعتقد كثيرا في كرامات أوليائها، بل وفي انتقامهم من كل معتد على حرماتها. يستحق هذا التراث دراسات مفصلة لمعرفة طرق وتقنيات البناء منذ القديم، وأنواع التراث النباتي الذي انقرض أو في طريقه إلى ذالك.

(25) يحكي سكان الدوار، أن محمد بن عبد الكريم الخطابي قام بزيارة للقرية ومسجدها في إطار التعبئة للمقاومة، وعقد لقاء مع أعيان القرية والزاوية الحسونية، حيث طالبه بعضهم بإعفائهم من الجهاد باعتبارهم شرفاء، فأكد لهم أن الجهاد فرض عين على الجميع القيام به، وتقديرا لهم سيتم إعفاؤهم من أشغال السخرة/ الأشغال

يقع دوار أدوز[26] بقبيلة إبقوين (بقيوة) جماعة الرواضي. ويبعد عن مقر الجماعة، حيث يوجد سوق الأحد الأسبوعي، بحوالي 18كلم، ويحده شمالا البحر الأبيض المتوسط، وجنوبا الرواضي، وغربا بادس، وشرقا مايَّةَ وتِيقِيتْ.

وتعتبر قرية أذوز إحدى القرى العلمية بالريف، نظرا لإشعاعها العلمي والصوفي، منذ العصر الوسيط، إذ تميزت بوجود الزاوية الحسونية،[27] التي أكسبتها علاقة جيدة مع سلاطين المغرب، منذ عهد المرينيين إلى التاريخ الراهن، وهو ما تؤكده الظهائر الموجودة بحوزتنا،[28] وتعتبر هذه القرية نموذجا فريدا في معمار الريف،[29] باعتبار نوع سكنها المتجمع، على خلاف جل مناطق الريف التي يسودها سكن متشتت، وتتميز مبانيها بتنظيم محكم، ودقة ومتانة في البناء. (الصورة1)

يتميز مسجد أَذُوزْ بعدة خصائص تجعل منه معلمة عمرانية جديرة بالاهتمام، واتخاذ جميع الإجراءات الكفيلة بالمحافظة عليها وحمايتها.

تؤكد الرواية الشفوية المتواترة أن مسجد أذوز بوضعيته المعمارية الحالية يعود إلى الفترة المرينية، إذ تمت إعادة بنائه في عهد السلطان أبي الحسن، الملقب بالسلطان لكحل، والذي كان في زيارة لمنطقة الريف، واختار منطقة "تَاكْرَاكْرَا" القريبة من بادس، لإقامة معسكره، واستدعى وجهاء وأعيان المنطقة، وعقد معهم لقاء كان الحاج حسون من الحاضرين فيه، ونظرا لصفات العلم والصلاح التي أبان عنها في مجلس السلطان المريني، طلب منه الأخير

العمومية المرتبطة بتمهيد الطرق وغيرها، وأبدى لهم إعجابه بمعمار مسجدهم وحسن تنظيمه ونظافته، وتمنى أن تصبح مساجد الريف مثله.

(26) أذوز كلمة أمازيغية لم تعد مستعملة في الريف، حسب علمنا، يعتقد أنها تعني الربوة أو التلة وهذا المعنى ينطبق على خصائص الموضع الذي بني عليه دوار أذوز، وتوجد عدة مناطق بسوس تحمل اسم أدوز، باستعمال الدال بدل الذال، مادة أدوز في معلمة المغرب الجزء 1 ص 286-288.

(27) زاوية كانت موجودة منذ القرن 5 هـ/ 11م، وقد تحدث عبد الحق البادسي عن مؤسس هذه الزاوية، الشيخ الحاج حسون، وبحوزتنا وثيقة تاريخية، عبارة عن مخطوط في ثمانية صفحات، مكننا منها المحامي أحمد الحسوني من هيئة الناظور سنة1994، وقد قام امحند البخلاخي بنشر هذا المخطوط سنة2006، تحت عنوان «الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون» الذي اعتمد تعريفنا بقبيلة بقوية وأذوز الوارد في بحثنا للإجازة عن قبيلة إبقوين وجوانب من نظمها التقليدية، كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة، موسم1993 - 1994.

(28) نتوفر على عدة ظهائر للسلاطين المغاربة، أقدمها يعود إلى عهد السعديين، وآخرها إلى عهد محمد الخامس، وهي ظهائر تؤكد أهمية القرية والزاوية الحسونية، إذ تحمل عبارات التوقير والاحترام، وتمنح الهبات والامتيازات، كإقطاع الأراضي، والإعفاء من الضرائب؛ وهي ظهائر تمكنا من الحصول على بعضها في دراستنا السابقة لقبيلة إبقوين، وكذلك في تقصينا الميداني حول مسجد قرية أذوز. (انظر الملحق).

(29) صباح، علاش، مدخل إلى تاريخ وخصائص المعمار بالريف، مقال ضمن كتاب جماعي حول: التراث المعماري بالمغرب، منشورات مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية الرباط 2013، ص ص 241 - 272.

أن يقدم طلباته، التي لم تتجاوز حد رغبته في توسيع مسجد قرية أذوز، نظرا لصغر مساحته وعدم قدرته على استيعاب طلبة العلم الذين بتقاطرون عليه من قبيلة إبقوين، وغيرها من باقي مناطق الريف، وهو الطلب الذي استجاب له السلطان أبو الحسن؛ وقد أحضرت بعض مكونات وتجهيزات المسجد من فاس، مما جعله مسجدا من الطراز الممتاز.



الصورة رقم 1: قرية أذوز وفي وسطها يظهر المسجد(أرشيف شخصي)

يختلف هذا المسجد- إلى جانب مسجد مسطاسة[30]- عن غيره من المساجد الموجودة بمنطقة الريف، بمظهره الخارجي المتميز بقلة ارتفاع صومعته، والسقوف التي تعلو قاعة الصلاة المكونة من ثلاثة أجزاء، محمولة من الداخل فوق أقواس، إثنان عبارة عن هرمين طوليين متوازيين، يتوسطهما هرم أصغر قاعدته مربعة، يغطي القرميد (ذْهَارْ لْحْمَرْ) الملون بالأحمر الوجه الخارجي لهذه الأهرام الثلاثة. (الصورة 2)

وتتميز الأسوار الخارجية للمسجد بسمكها الكبير، إذ تتجاوز خمسين سنتمترا، مبنية بالحجارة، ومغطاة بطلاء من الرمل والكلس. وعند مدخل المسجد يوجد سوران متعامدان مع الحائط الرئيسي بهدف تدعيمه، وحمل سقيفة الباب الداخلي للمسجد. (الصورة2)

يتميز المسجد بوجود أقواس داخلية عادية، تعتبر دعائم لحمل سقوفه، وجعله يصمد أمام كل عوادي الزمن.

(30) تؤكد الرواية الشفوية أن مسجد أذوز بإبقوين، ومسطاسة ببني كميل، وأيث بويعقوب بتمسامان، بنيت في نفس الفترة، وقد عاينا التشابه الكبير بين مسجدي أذوز ومسطاسة، راجع في هذا الموضوع مقالنا، مدخل إلى تاريخ وخصائص المعمار بالريف.(المرجع السابق)



الصورة رقم2: السقف الخارجي لمسجد أذوز، وهو مغطاة بالقرميد الأحمر. (أرشيف شخصي)

أما الجانب الداخلي للسقوف الثلاثة، فكل جزء عبارة عن سقف ثاني من الخشب المنقوش والمزخرف بأشكال هندسية متماثلة ومتناسبة وألوان يغلب عليها الأرجواني والبني المفتوح، تبدو غاية في الروعة،[31] وكل سقف داخلي قوامه هيكل هرمي متناسب مع شكل السقف الخارجي:

- الهرمان الجانبيان يتميزان بقاعدة مجوفة مستطيلة الشكل، يرتبط وجهاها الطويلان بقطرين خشبيين متوازيين. أما الوجهان الصغيران والمتقابلان فهما مجوفان ومفتوحان على حائطي المصلى، وتوجد في كل واحد نافذة للإضاءة والتهوية. (الصورة3)
- الهرم الذي يتوسط سقف المصلى قاعدته مربعة الشكل ومجوفة، يتوسطها قطر خشبي، للهرم أربعة أوجه، خشبها منقوش ومزدان بزخارف وأشكال هندسية متماثلة ومختلفة عن الهرمين الجانبيين. (الصورة 4)

(31) زخرفتها تبدو مرينية معروفة بالبرشلة، إذ يتميز المزخرف المريني باعتماده تناسبا مزدوجا أفقيا وعموديا، يتيح له أن يتحرر ويبتكر التكوينات، مسهبا فيها ومقيما بينها المقابلات والتماثلات، فتأتي الأشكال متداخلة ومتنوعة ومتراتبة، الطاهري، أحمد صالح، الجمالية المغربية على عهد المرينيين، مجلة المناهل، عدد مزدوج 73 - 74 حول العمارة في المغرب قديما، فبراير 2005 ص 67.



الصورة 3: جانب من سقف مسجد أذوز. (أرشيف شخصي)



الصورة 4: جانب من الهرم الذي يتوسط سقف المصلى. (أرشيف شخصي)

ويتميز الفضاء الداخلي للمصلى بوجود محراب الصلاة، جزأه العلوي مزين بالجبس المنقوش، والجزء السفلي مغطى بزليج مزخرف بأشكال وألوان متناسقة مع زخرفة السقوف الخشبية؛ ويمتد جبس وزليج المحراب إلى جانبيه الخارجيين.

يوجد على يمين المحراب مكان مكشوف، خاص بمنبر صلاة الجمعة؛ وهو منبر خشبي قديم لكنه تعرض لإتلاف معالم نقوشه وزخرفته المشابهة للسقوف، بعد عملية صباغته بطلاء أزرق فاتح، لم يحافظ إلا على قليل من الزخرفة الأصلية، وكلمتين ترددت كتابتهما على جانبيه، وهما العافية[32] والباقية. (الصورة 5)

(32) يطرح هذا التعامل مع المنبر سؤال حماية هذه التحف الفنية التاريخية، من مثل هذه العمليات التي تفقدها قيمتها الأصيلة، كما تؤدي إلى ضياع رصيد وثائقي هام يفيد في دراسة وفهم مجموعة من الأحداث التاريخية، بدراسة الكتابات المثبتة على المنبر.

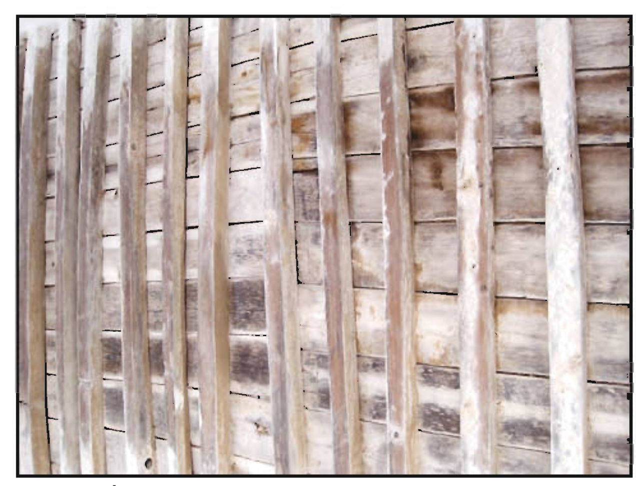
ويتميز الفضاء المخصص للصلاة بإضاءته وتهويته بطريقة جيدة وطبيعية.



الصورة 5: جانب من منبر مسجد أذوز (أرشيف شخصي)

يتوفر المسجد على مرافق أخرى منها غرفة خاصة بالفقيه، وأخرى خاصة بإقامة الطلبة الذين يحفظون القرآن ومختلف العلوم الدينية المتاح تدريسها، وخاصة قواعد اللغة العربية؛ وغرفة أخرى خاصة بتحفيظ القرآن يسمونها «رْمْعَامْرَة».

تتميز هذه الغرف بتواضع بنائها إذ لا زخرفة ولا جبس بها، وسقوفها خشبية عادية، عبارة عن عارضات خشبية متوازية تراصت فوقها ألواح خشبية، تم تقطيعها بشكل متناسق. (الصورة 6)



الصورة 6 جانب من سقف الغرفة المخصصة لإيواء الطلبة (أرشيف شخصي)

وكذلك غرفة أخرى لوضع الأدوات الخاصة بالمسجد كمحامل الموتى، سواء الخشبة أو المصنوعة محليا من الحلفاء، كما يعتبر مستودعا توضع فيها بعض التجهيزات المستبدلة كالباب الخشبي الخارجي، الذي استبدل بآخر جديد، وقد عاينا في هذا المستودع إحدى دفتي الباب فقط.[33] (الصورة 7)



الصورة7 دفة الباب المتبقية في المستودع (أرشيف شخصي)

وتتميز الصومعة ببنائها المتين الذي اعتمد فيه على أسوار سميكة، مبنية بالحجارة، تم الاعتماد على الخشب والأحجار في إنجاز الدرج والسقوف، (الصور الأربعة 8 – 9–10–11 أسفله).

(33) نظرا للقيمة التراثية والتاريخية لهذا الباب، تقصينا عن مصير الدفة الثانية، أبلغنا من فاعلين جمعويين محليا، بنقلها في ظروف غامضة إلى متحف الماريشال أمزيان في بلدية بني نصار بالناضور، ولم يتسن بعد التأكد من وجودها، فمهما كان الأمر نعتقد أن هذا الموضوع يطرح ضرورة التفكير في حماية هذا التراث، وتقنين نقله وعرضه في المتاحف، سواء الخاصة أو العمومية.



الصور 8-9-10-11: جوانب من التقنيات والمواد المعتمدة في بناء صومعة مسجد أذوز
(أرشيف شخصي)

على سبيــل الختــم:

أمام غنى الموارد الثقافية التراثية الذي تمثله المساجد/ المدارس، والحضور القوي للأبعاد الأمازيغية المكونة لها، وخاصة على المستويات اللغوية والتواصلية، وكذلك البيداغوجية والديداكتيكية، نجد أنفسنا أمام مجهود جبار ينتظرنا القيام به لتجميع ما يمكن تجميعه من هذا التراث، خاصة وأن جزءا كبيرا منه شفوي تختزنه ذاكرة عدد من الفقهاء الذين تعلموا وعلموا في هذه المدارس العتيقة، وأصبحت طرائقهم غير معتمدة اليوم حيث تعتمد مناهج مختلفة يطغى عليها استعمال اللغة العربية مع الانفتاح على اللغات الأجنبية، مما يجعل هذا التراث قاب قوسين أو أدنى من الضياع بعد وفاة هؤلاء الفقهاء.

كما يحتاج عدد من هذه المساجد إلى حماية تراثها المعماري، عبر تصنيفه كتراث وطني، واستفادته من عمليات الترميم والصيانة، ومساهمة المجتمع المدني بهذه المناطق في التحسيس بأهمية هذا التراث، ومساهمته في تحقيق التنمية.

البيبليوغرافيا:

- ابن خلدون، عبد الرحمان، " المقدمة"، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن الزيات، التادلي "التشوف إلى رجال التصوف"، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984.
- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل، "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1984.
- البخلاخي امحند، " الجوهر المكنون في عجائب أخبار ولي الريف سيدي الحاج حسون"، منشورات الصالون الأدبي لابن الريف، سلسلة التراجم رقم 1، طنجة، 2006.
- البوعياشي أحمد، "حرب الريف التحريرية ومراحل النضال"، دار أمل، طنجة، 1976.
- البطوئي، عيسى بن محمد الراسي، "مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح"، دراسة وتحقيق حسن الفكيكي، مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، الطبعة الأولى.
- القبلي، محمد، "مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط"، دار توبقال للنشر 1987، الطبعة الأولى.
- عاصم، عبد الله، "كدية أمليل، القرية الصوفية العالمة" نموذج من قرى العلماء بالريف في النصف الأول من القرن العشرين، دار القلم، الرباط 2008، الطبعة الأولى.
- علاش، صباح، "مدخل إلى تاريخ وخصائص المعمار بالريف"، مقال ضمن كتاب جماعي حول: "المعمار في المناطق الأمازيغية"، منشورات مركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية. 2013، ص ص 241 – 272.
- معلمة المغرب، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، سلا 1989، "مادة أدوز"، الجزء 1، ص 288-286.

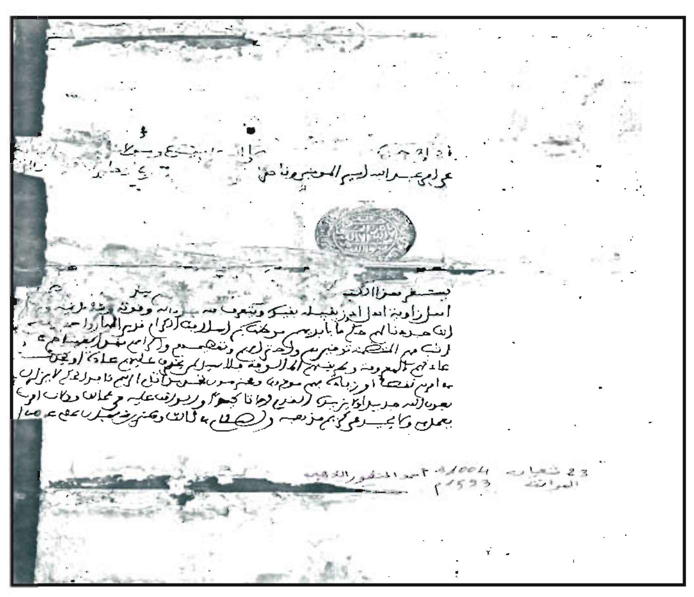
- Ettahiri, A.S, «Locaux d’enseignement au maroc islamique : genèse et rôle de la medersa», revue amal, n 28-29, année 2003.
- Angeles Lopez, Plaza, «Escuelas coranicas, Evolucion de Una institucion, simbolica en Marruecos», vol. 46, ARABE, pp. 149-181,1997.
- Sourdel Thomine, Janine,«La mosqué et la madrasa», In Cahiers de civilisation médievale, vol 13, N°50, 1970.pp97-115, htt p. : // www. presee.fr.

- المـلاحـق -

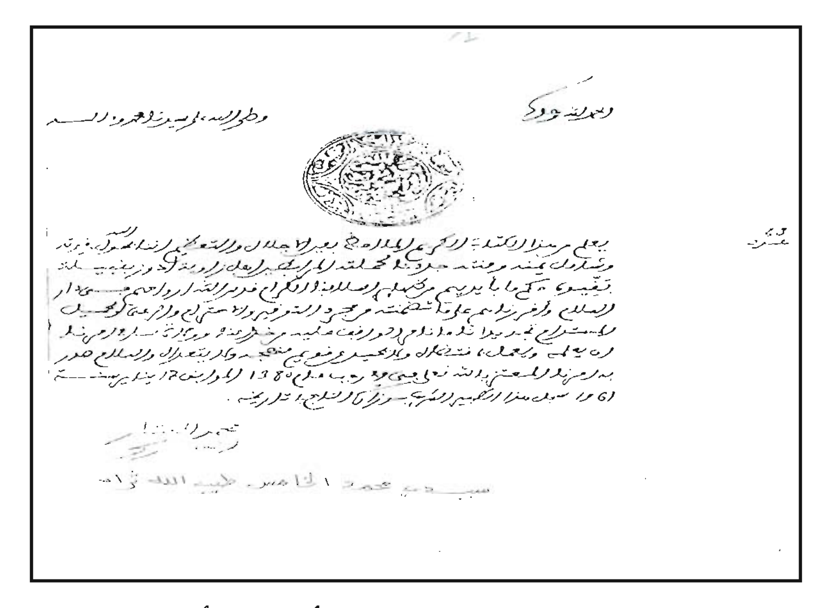
المدرسة/المسجد	القبيلة	الفخذة/الدوار	أهم الفقهاء	ملاحظات
مسجد المحلة	بقيوة	بادس	أبو القاسم الصبان	من علماء فاس
مسجد أجدير	آيت ورياغل	أجدير	التوزاني علي الأجديري	يقصده الطلبة من جميع القبائل
مسجد زاوية سيدي يوسف	آيت ورياغل	زاوية سيدي يوسف	محمد القاضي عبد الهادي	كلفه بن عبد الكريم الخطابي بتدوين وقائع حرب الريف
مسجد زاوية سيدي عيسى	آيت ورياغل	زاوية سدي عيسى	أحمد بن القاضي	تزوج عبد الكريم الخطابي الأب ببنته تيمونت
مسجد أرابظا الرابطة /	آيت ورياغل	أرابظا	سدي الحاج شعيب بن الحاج عمر	علامة في القراءات و النحو والاجتهاد، وعلم الكلام توفي 1958م
مسجد تازوراخت	آيت ورياغل	تازوراخت	السيد محمد بوزلماط	من عائلة الشركيين من بني توزير قرية تعمرت
مسجد بني بويخلف	آيت ورياغل	أيث بوخرف	سدي امحمد بن الحاج مسعود،	من قرية بني بوستة، كان يشرف على طلبة القرآن.
مسجد زاوية آيت هشام	آيت ورياغل	أيت هشام	السيد محمد الشركي	الفقيه القاضي النوازلي وعميد عائلة الشركيين
مسجد مشكور	آيت ورياغل	بني حذيفة	السيد محمد الخمليشي	كان متضلعا في النحو والفقه
مسجد سبعة أبواب	آيت ورياغل	بني عبد الله	محمد بن السيد محمد السكاكي	
مسجد سدي بويعقوب	آيت ورياغل	آيت زكري بني عبد الله	السيد محمد بن الصديق الموساوي	كان علامة في الفقه والنحو
مسجد قرية الطاعة	آيت ورياغل	أيت طعا	أبو يعقوب يوسف الطاعي	له منظومة إعراب لا إله إلا الله

مسجد بوثمنت			السيد عبد السلام الخمليشي	
مسجد سدي الوافي	زرقت		السيد الحاج علي الزرقتي	جد القاضي السيد محمد الزرقتي
مسجد سمار ن عمار	بني يطفت	سمار ن عمار	الفقيه السيد أحمد مشبال	
مسجد أغبال أحمد	بني يطفت	أغبال	الشريف سدي محمد الخمليشي	
مسجد عبد الله بوشعيب	بني بوفراح			
مسجد إيجار مرواس	أيت توزين		– سدي أحمد بن الصديق	علامة لغوي حفظ جل أبواب القاموس المحيط
مسجدزاوية سدي الحاج علي			سدي محمد على بولحيا التوزاني	من شرفاء بني وكيل
مسجد سيدي بويعقوب	تمسمان	سيدي بويعقوب		
مسجد تمرغتين	تمسمان	أيت مرغبن		
مسجد تانوت ن الرمان	قلعية	بني سيدال	الفقيه العلامة السيد الوليد	قبله كان سدي علال التنوتي
مسجد زاوية سدي ورياش	قلعية		الفقيه العلامة السيد محمد وأحمد	كان قاضي القضاة بالناظور أخيرا
مسجد تلايوسف	بقيوة	العلامة المتفنن	السيد شعيب التمسماني	العلامة المتفنن
مسجد زاوية أذوز	بقيوة	أذوز	مولاي علي الخمليشي	كان علامة نوازليا تولى مهمة القضاء بالحسيمة

1: جدول المساجد/ المدارس التي كان لها إشعاع كبير بالريف الأوسط إلى حدود منتصف القرن 20،
احمد البوعياشي، حرب الريف التحريرية ومراحل النضال،
دار امل، طنجة 1976، ج1، ص 64-75، بتصرف



2: ظهير التوقير والاحترام من السلطان أحمد المنصور السعدي لأهل زاوية أذوز مؤرخ ب 23 شعبان 1004هـ الموافق ل 1593م.
(نسخ الظهائر في ملكية محمد أشهبار وعائلة الحسوني بالحسيمة)



3 : ظهير السلطان محمد الخامس لأهل زاوية أذوز
مؤرخ ب 29 رجب 1380هـ الموافق 17 يناير 1961.
في ملكية محمد أشهبار، وعائلة الحسوني بالحسيمة)



4: صفحتان من مخطوط في العبادات، كان مستعملا في التعليم بمسجد/ مدرسة أذوز.
(المخطوط في ملكية الأستاذ محمد أشهبار)

5:صفحتان من مخطوط القرآن الكريم كان متداولا داخل مسجد/ مدرسة أذوز.

(المخطوط في ملكية الأستاذ محمد أشهبار)

6: صفحة من مخطوط القرآن الكريم كان متداولا بمسجد / مدرسة أذوز.

(المخطوط في ملكية الأستاذ محمد أشهبار)

الزوايا الدينية بالأطلس الكبير الغربي الأطلنتي: زاوية سيدي بوزكري نموذجا

ذ. أبيهي محمد
باحث

مدخـــل

عرف تاريخ المغرب منذ بداية الإسلام ظهور زوايا عدة، اضطلعت بأدوار دينية واجتماعية وحسمت في الأحداث التاريخية الكبرى بالمغرب[1]. ارتبطت بشكل وثيق بالرباطات الدينية خلال القرون الإسلامية الأولى وظلت عبر التاريخ تقوم بوظيفة الجهاد والتوعية الدينية وتعليم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. انتشر أغلبها في الحواضر الكبرى والقرى الهامشية.

وقد مثلت ساكنة الأطلس الكبير الغربي نموذجا للقبائل التي لعب فيها الدين دورا في المجتمع المحلي، حيث ظل مصدرا لفصل السلط داخل النظام السياسي والاجتماعي لهذه القبائل[2]. وكما ظهرت الزوايا والمدارس العلمية التي كونت ثلة من العلماء والأدباء، أمثال سيدي سعيد أو عبد النعيم الحاحي وعبد الله بن سعيد الحاحي[3]، حيث امتد تأثير هذه الزوايا إلى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية بقبائل الأطلس الكبير.

تعتبر زاوية سيدي بوزكري[4] من أهم المعالم التاريخية التي تعود للعصر المريني، وقد ساهم غنى تاريخها في إشعاعها الديني والثقافي، وكما أصبحت محورا في المجتمع المحلي والحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية للقبائل والفرق المتاخمة لها. واضطلعت كذلك

(1) ساهمت الزوايا الدينية بتأطير الحركة الجهادية ضد البرتغال في السواحل الأطلنتية بإحاحانْ وموكادور خلال العصر السعدي، حيث أصبحت قبائل الأطلس الكبير الغربي منطقة مستقلة عن سلطة مركزية خارجية مع بداية القرن 16م، مما ساعد السعديين على نشأة دولتهم، الوفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1998م، ص 51.

(2) لعبت فئة «اكَرامنْ» المنتمية للزوايا دورا كبيرا في تسيير شؤون القبائل بعد نهاية الدولة المرينية في ظل غياب السلطة المركزية، مما ساهم في استقرار الأوضاع الاجتماعية والسياسية بقبائل الأطلس الكبير، كلنير ارنست، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ترجمة: عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أكدال، العدد 11، 1985م، ص 175.

(3) الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق د. محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2003م، ص ص 93 و94.

(4) اشتق، بوزكري، من اسم مؤسس الزاوية، فعلى المستوى اللساني الأمازيغي تم تفخيمه، اختصارا لاسم أبي زكرياء، ويتداول هذا الاسم في المجتمع المحلي بقبائل احاحان، نسبة لمؤسس الزاوية.

بالوظيفة التعليمية لأبناء المنطقة، وكما تزخر بتراث عمراني إسلامي محلي جسد اهتمام الإنسان الأمازيغي بالمنشآت الدينية. فما هو دور زاوية سيدي بوزكري في المجتمع المحلي؟ وما هي وظائفها الدينية والعلمية والاقتصادية؟ وأين تكمن ضوابط وخصائص العمران الديني لهذه الزاوية؟

ثانيا: زاوية سيدي بوزكري: التاريخ والمجال

ظلت زاوية سيدي بوزكري من أهم المؤسسات الدينية الصوفية بقبيلة اداويسارن، حيث ظلت مركزا للتوعية الدينية ومصدرا للفصل في مختلف النزاعات القبلية. وسأحاول فيما يلي رسم معالم حضورها التاريخي من خلال إبراز الموقع الجغرافي للزاوية، وعلاقتها بمحيطها المحلي والإقليمي منذ تأسيسها.

أ. الموقع الجغرافي للزاوية:

تقع هذه الزاوية بقبيلة اداويسارن[5] والتي تنتمي إلى اتحادية قبائل إحاحان، وهي إحدى بطون قبائل «امْصْمودْنْ»[6]. حددها بن خلدون، قائلا:«...قبائل هؤلاء المصامدة بهده المواطن كثيرة فمنهم، هرغة، هنتاتة، تينمل، كدميرة، كنفيسة، وريكة، هزميرة، دكالة، حاحة، أصاده، بنو زكيت، بنو ماكر، هيلانة ».[7]

وتعتبر قبائل إحاحان من أكبر بطون مصامدة الأطلس الكبير الغربي، إلا أن تحديد امتدادها الجغرافي عرف نوعا من الغموض، حيث اختلفت حدودها باختلاف العصور والتي شملت من قبل مجالات جغرافية واسعة. سأستعرض فيما يلي بعض هذه الإشارات التي وردت في بعض المصادر التاريخية والجغرافية. حددها الحسن الوزان في «...ناحية من نواحي مقاطعة مراكش، يحدها البحر المحيط من جهة الغرب والشمال وتحدها جبال درن من الجنوب ويحدها من الشرق أسيف نوال الذي ينبع من الجبال الأطلسية ويصب في نهر تانسيفت...»[8]، وأشار الصديقي إلى أنه «...في التاريخ العام يطلق اسم حاحا، على

---

(5) اداويسارن من القبائل الحاحية العريقة المكونة لاتحادية قبائل احاحان، ويعتبر سميمو من أبرز مراكزه القروية، ويقع على بعد 40 كلم جنوب الصويرة.

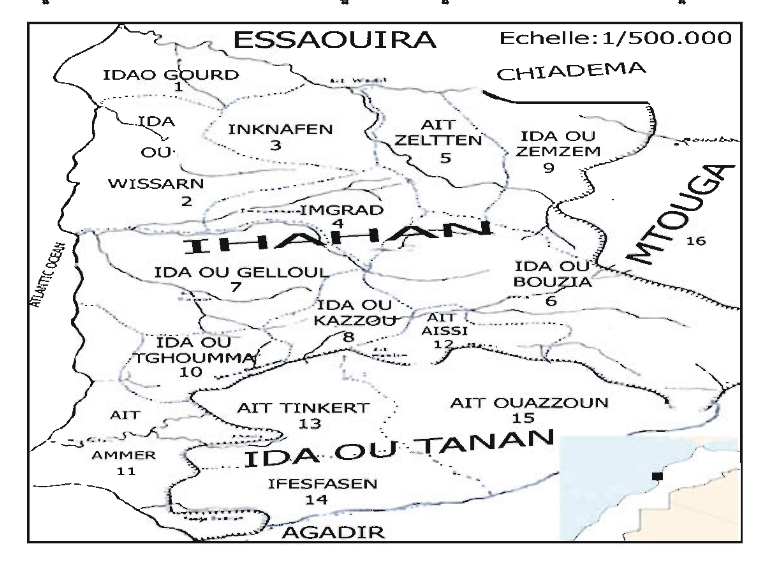
(6) يدل على الاسم الأمازيغي لمصامدة قبائل الأطلس الكبير، وهي من بين التشكيلات القبلية الكبرى بالمغرب، وحسب الرواية الشفوية فامصمودن من الناحية الطبونيمية مشتقة من أمصمود للدلالة على الزرع والحصاد، الذي شكل إحدى أنشطة هذه القبائل بحكم موقعها الجغرافي والطبيعي.

(7) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحاده، دار الرشاد الحديثة، ص 356.

(8) الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الجزء الأول، الرباط 1988، ص 75.

كامل بلاد رجراجة مما وراء تانسيفت من الجنوب...»،[9] وأما مارمول كربخال فيرى أنها:«...تحد من الغرب والشمال المحيط ومن الجنوب جبال الأطلس الكبير المتاخمة لإقليم سوس ومن الشرق نهر أسيف المال الذي يفصله عن إقليم مراكش...»[10]

وتتكون اتحادية إحاحان من اثنى عشر قبيلة، أبرزها قبيلة: اداويسارن التي تتكون من مجموعة من الفرق وهي:اقبيلن، اداوكونكي، اداوكضل، أيت تليت، اداوعزا، أيت ايدير، ولعل ما يميزها هو عراقة تقاليدها الأمازيغية واهتمام أهلها بالزوايا، حيث توجد بها مجموعة من الكتاتيب والمدارس العتيقة، أبرزها مدرسة سيدي بولبركات العبدري ومدرسة أزلا العتيقة ومدرسة سيدي بوزكري التي ذاع صيتها بين قبائل احاحان منذ تأسيسها على يد أبي زكرياء الحاحي خلال العصر المريني، فما هي جوانب الحضور التاريخي لهذه الزاويا.



الخريطة رقم 1:التشكيلات القبلية بالأطلس الكبير الغربي، نقلا عن كتاب:

- Montagne, Robert, Les berbères et le makhzen dans le sud du Maroc, casabalanca1989, P :190

ب . زاوية سيدي بوزكري وعلاقتها بمحيطها المحلي والإقليمي:

لقد خضع ظهور الزوايا بالأطلس الكبير الغربي لظروف تاريخية كان أساسها تراث الصوفية الأوائل، مثل الشاذلية والجازولية وكذا ظروف مرحلة حكم الدولة المرينية،[11]

(9) الصديقي، إيقاظ السريرة في تاريخ الصويرة، الجزء الأول، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص 20.

(10) مارمول، كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد الأخضر وأحمد التوفيق، الجزء الأول، الرباط، 1984م، ص 5.

(11) الزكاري أسامة، مقدمات أولية من أجل إعادة الاعتبار لعلاقة المخزن بالزوايا وبالمؤسسات التقليدية خلال فترة ما قبل الحماية، مجلة أمل:نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة، عدد مزدوج:22-23، السنة الثامنة، 2001م، ص 86.

وقد ارتبطت الزاوية بتطور الظاهرة الصوفية المحلية كحركة دينية ساد فيها التيار الجزولي الذي تفاعل مع التحولات التي أحدثها الغزو الأيبيري على سواحل المغرب[12].

ومن المرجح أن يكون ظهور الزوايا بالأطلس الكبير الغربي مرتبط بالرباطات الدينية التي تزعمها رجالات التصوف والفقهاء والعلماء خلال مرحلة الغزو البرتغالي لسواحل المنطقة، وذلك لتنظيم صفوف الحركة الجهادية من طرف الزوايا الدينية بالجنوب المغربي[13].

وتجمع جل المصادر التاريخية على دور الرباطات في ازدهار الحركة الصوفية، وقد اتخذ الاحتفال بعيد المولد النبوي لأول مرة في تاريخ المغرب رمزا للوحدة السياسية والمذهبية السنية المالكية خلال العهد المريني[14].

وقد شكلت الرباطات الدينية امتدادا للزوايا التي أسست بالأطلس الكبير الغربي، حيث ساهمت في تأطير رجالات التصوف الحاحيين والركراكيين اللذين عادوا بعد رحلات علمية وصوفية إلى مواطنهم الأصلية، وأسسوا بعدها مدارس علمية وزوايا دينية يعتكفون فيها على تربية مريديهم لنشر حفظ القرآن الكريم[15].

وظلت القبائل المستقرة حول مصب نهر تانسيفت وأمكدول تواجه خصومها من بورغواطة بسبب دخول المنطقة منذ عهد مبكر الإسلام وإقبال أهلها على مذهب السنة،[16] وقد ظهر رباط شاكر في أواسط القرن 8م، وكان أسوة حسنة لكل الخلايا التعليمية في المنطقة نظرا لدوره في تثبيت العقيدة الاسلامية ونشر تعاليمها بقبائل الأطلس الكبير الغربي[17].

ومن هذا المنطلق، فقد أسس أبو زكرياء الحاحي زاويته بسميمو القادم من رباط تيط بأزمور التي عرفت بازدهار الحركة الصوفية والعلمية، وأنشأ قطبا للتصوف السني من أجل نشر تعاليم الدين الاسلامي في تيغزا باداويسارن، وأصبحت زاويته خلال القرن

---

(12) القبلي، محمد، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط، منشورات الفنك، الدار البيضاء، 1998م، ص ص 20-26.

(13) قام البرتغال بتخريب مدينة تدنست وفر سكانها إلى الجبال «لأن جيرانهم الأعراب تواطؤا مع قائد جيش ملك البرتغال المقيم بأسفي وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى» الحسن الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ص 78.

(14) السبتي، عبد الأحد، فرحات حليمة، المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، قضايا ونصوص، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007م، ص 83.

(15) نفس المرجع، ص 83.

(16) زنيبر، محمد، إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط، مقال منشور، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، الذاكرة وبصمات الحاضر، سلسلة ندوات، منشورات كلية الآداب، أكادير، 1994، ص 81.

(17) الهدري، أحمد، مدارس التعليم العتيق بالإقليم الصويري، مقال منشور، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، ص 302.

السابع الهجري ملتقى أهل العلم، فخلال هذه الحقبة أنشأ المرينيون العديد من المدارس والمساجد والمكتبات والمؤسسات العلمية التي لعبت دورا دينيا وحضاريا في منطقة الغرب الإسلامي، [18]مما كان له الأثر في ظهور الزوايا والكتاتيب القرآنية بمنطقة الأطلس الكبير الغربي، التي تأثرت بهذه التحولات الدينية والفكرية ما بين العصر المرابطي والعلوي. [19]

وقد عرف الأطلس الكبير الغربي تطورات سياسية أثرت على الحركة العلمية للزوايا بفعل الحملات العسكرية التي وجهها يعقوب بن عبد الحق المريني لإخضاع قبائل حاحة وهشتوكة، [20] وكما تشير المصادر المخطوطة إلى أن السلطان المريني يوسف بن عبد الحق قد طلب من يمثل زاوية سيدي بوزكري في الوفد المغربي من أجل إرسال كسوة الكعبة إلى مكة المكرمة، نظرا لانتساب البوزكراويين إلى آل البيت الشريف، [21] فقد تم تشريف آل أمغار سيدي بوسكري بظهائر التوقير والاحترام بفعل دعمهم التاريخي للمرينيين في صراعهم مع الموحدين[22].

وخلال العهد السعدي، ازدادت المكانة الروحية للشيخ سعيد بن عبد النعيم في قبائل احاحان وسوس وعبدة، مما أزعج السعديين وخوفهم من قيام إمارة سياسية بالجنوب، وكما تمتع الشيخ يحي الحاحي بنفوذ روحي ديني أهله للقيام بوظيفة التحكيم في النزاعات القائمة بين القبائل، مما ساهم في التفاف قبائل الأطلس الكبير وسوس حول زاوية اداوزدغ، [23] واضطلعت زاوية سيدي بوزكري بتدبير شؤون القبيلة في مرحلة الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي ميزت هذه الحقبة من تاريخ المغرب، وظلت دار ندوة وامنٍ للسكان في الظروف العصيبة في أيام الجفاف والقحط. [24].

---

(18) علي حامد الماجي، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986 م، ص 195.

(19) الهدري، أحمد، مدارس التعليم العتيق بالإقليم الصويري، مرجع سابق، ص ص 310.

(20) بن محمد السعيدي، المهدي، المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المدرسة الالغية بسوس نموذجا، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006، ص 34.

(21) مخطوط مجهول، يؤرخ لأخبار أل أمغار البوزكراويين، ص 48.

(22) نفس المرجع، أعلاه، ص48.

(23) صادق نور الدين، حركة الشيخ يحي الحاحي وقيام إمارة تارودانت، الجزء الأول: من الدعوة إلى الإمارة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم: 2010، 23م، ص ص58-60-86.

(24) محمد الطيب الصويري، العادات والتقاليد التحضرية بقبائل الصويرة، مقال منشور بسلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، ص385.

أما في الفترة المعاصر، فقد ساهمت الزاوية في فك الخلافات بين قبيلتي اينكنافن واداويسارن، وقد أدت هذه الصراعات إلى العديد من الحروب القديمة بين القبلتين، حيث تدخل شرفاء سيدي بوزكري لوضع حد لهذا الصراع ضمانا لأمن المنطقة وتسهيلا لتنقل الأشخاص بين الحدود القبلية، مما جعل من السلطان المولى الحسن الاول يقوم بحركة سنة 1864م[25] من أجل وضع حد للصراعات القبلية القائمة باحاحان ومتوكة وإداوتنان وسوس بعد انهيار إيالة الحاج عبد الله أبيهي، [26] وكانت قبائل الأطلس الكبير الغربي محطة رئيسية لحركاته ومصدرا من المصادر الأساسية للتموين[27] .

ثالثا: الزاوية وإشعاعها الصوفي والعلمي والاقتصادي:

أ. الإشعاع الصوفي ونسب مؤسس الزاوية:

تنسب الزاوية إلى مؤسسها الشيخ أبي زكرياء بن أبي عمرو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيي الحاحي، خص له بن قنفذ القستنطيني وصفا كاملا، بقوله : عاصر أتباع زاوية سيدي بوزكري ووصف الحركة الصوفية والعلمية، حيث احتل الشيخ سيدي بوزكري مكانة روحية وصوفية بين القبائل الحاحية، وقد تزعم طائفة صوفية مشهورة في القرن السابع هجري سماها طائفة الحاحيين. [28]

وينتمي أبي زكرياء الحاحي إلى أسرة آل أمغار المعروفة في تاريخ المغرب بالتصوف والكرامات والتي أسست رباط تيط، منبع الصوفية والأولياء، وأول من دخل المغرب من هذه الأسرة عميدها الأول إسحاق بن إسماعيل أمغار جد الأمغاريين وأخواه أبو زكرياء يحي جد البوزكراويين من أهل احاحان. (أنظر الخطاطة رقم1)

---

(25) يعتبر موقع زاوية سيدي بوزكري محورا قديما للقوافل التجارية الآتية من جنوب المغرب، فخلال الفترة المعاصرة ظلت الزاوية إلى جانب النزايل محطة لاستراحة القوافل التجارية، حيث تتبع حركات السلطان المولى الحسن غالبا محور الطرقات التجارية في اتجاه الجنوب.

(26) شروتر، دانييل، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب، أكدال، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 6، الطبعة الأولى، 1997م، ص 348.

(27) عندما توفي السلطان محمد بن عبد الرحمن، كان ابنه مولاي الحسن ولي العهد وخليفته على مراكش يقوم بعمليات حربية في احاحان وبوريقي قرب دار القائد أنفلوس في حوض «وادايكرأونزار» حيث أعلن هناك سلطانا للبلاد، لويس آرنو، زمن لمحلات "السلطانية" الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب م بين 1860 و1912م، ترجمة محمد ناجي بن عمر، منشورات إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2001م، ص 25.

(28) تولى بن قنفذ القستنطيني منصب القضاء في مراكش خلال العهد المريني، وكما زار الزاوية عام 714-810هـ، وقد ألف كتاب «أنس الفقير وعز الحقير» الذي تحدث فيه عن تاريخ هذه الزاوية.

ففي هذا الصدد، قال بن قنفذ القسنطيني:«...والطائفة الخامسة الحاحيون، ومنهم جملة من جبل درن وهو الجبل العظيم الذي ليس على وجه الأرض مثله في الارتفاع والمياه... وهذه الطائفة الخامسة طائفة الشيخ الحاج الشهير أبي زكرياء الحاحي، ويقال أن من آل بيت النبي الكريم... وقبره بتيغزا من بلاد حاحة... وكان لأبي زكرياء... قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو ولي...» [29].

وظلت الزاوية تمارس طقوسها الدينية بين القبائل الحاحية حيث احتضنت الطرق الصوفية كالتيجانية والدرقاوية، [30] وكما ارتبطت بالزوايا الدينية بالجنوب المغربي من خلال الرحلة الدينية والعلمية التي كان يقوم بها البوزكراويون إلى زاوية سيدي أحمد أوموسى بتزروالت أثناء موسمها السنوي، لتأكيد أواصر الترابط الصوفي والديني بين هاتين الزوايتين.

وتحدث بن قنفذ القسنطيني عن أتباع أبي زكرياء الحاحي، قائلا:«...وكان لأبي زكرياء هذا عند الجمهور قبول تام وله في الفقر كلام حسن وتحقيق وتدقيق ووصايا حسنة بكلام لا يصدر إلا عن عالم أو ولي...وتغالى الجهلة من تلامذته في تعظيمه وتحقيقه وشدة اقتدائهم بجزئياته وتغليظه وترقيته وقوة انقباضهم عمن خرج عنه في تغريبه وتشريفه...»، [31] وكما ازدهرت الحياة العلمية في عهده وبرزت مدرسة سيدي بوزكري التي استقطبت وفودا من طلبة قبائل الأطلس الكبير الغربي.

ب. المدرسة العتيقة وإشعاعها العلمي:

❖ بناء المدرسة:

يصعب تحديد تاريخ بناء مدرسة سيدي بوزركري العتيقة لغياب المصادر التاريخية والأبحاث الأركيولوجية الخاصة بتحديد تاريخ هذه الزاوية ومدرستها، فإشارات بن قنفذ القسنطيني تشير إلى أن بداية إشعاعها العلمي قد بدأ منذ القرن السابع الهجري، حيث وصف الزاوية ومدرستها، قائلا:«فهي موضع خير وعلوم وقراءة وتدريس...وأكثر اعتناء الحاحيين بالتهذيب والفرائض والحساب...»، [32] خلال العصر المريني الذي تميز بازدهار الحركة العلمية، حيث أسس بنو مرين المدارس العلمية التي لازمت عصر دولتهم الذي سمي

(29) القسنطيني ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وادولف فور، الجزء الأول، سلسلة الرحلات، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة الرباط، أكدال، 1965م، ص 64.

(30) الهدري أحمد، مدارس التعليم العتيق، مرجع سابق، ص 307.

(31) القسنطيني بن قنفذ، مرجع سابق، ص 65.

(32) «ابن قنفذ القسنطيني»، مرجع سابق، ص ص 44 و 65.

بعصر بناة المدارس العلمية،[33] لتنطلق بذلك المدرسة في احتضان المريدين وطلبة العلم من مختلف قبائل الأطلس الكبير الغربي.

❖ الدور العلمي والتربوي:

عرفت المنطقة من الناحية الثقافية بتعاطي العلم منذ عهد الدولة المرابطية، وقد ساهمت المدرسة العلمية لزاوية سيدي بوزكري في نبوغ عدد وافر من الفقهاء والأدباء، وكما ظلت موطن إشعاع علمي وصوفي، حيث استقبلت وفودا من الزوار والمريدين وطلاب العلم من مختلف المناطق، وقد ساهمت في نشر التعاليم الدينية عند غير القارئين بواسطة مجالس الذكر والمذاكرة التي كانت تنظم بالزاوية. واضطلعت كذلك بدور التكوين في العلوم اللغوية وعلوم القرآن والفقه والحديث وسائر العلوم الشرعية، بالإضافة إلى نشر حفظ القرآن الكريم، ولم تتوان في نشر علوم الدين لدى أبناء القبائل، وهي من أقدم المدارس التي جمعت بين العلم والقرآت والتصوف.[34].

وقد تخرج من المدرسة العلمية لسيدي بوزكري عدد وافر من طلبة العلم، وفي هذا الصدد ازدادت أهميتها العلمية والدينية وأثرت في الحياة العامة للحاحيين. ومن جملة الفقهاء اللذين أحيوا المدرسة، نجد الشيخ أحمد بن الطاهر السوسي الأدوزي و الشيخ عبد الله الخنبوبي السوسي و الشيخ عبد الله الكردوسي السوسي والشيخ سيدي عبد الله اميحي الذي درس بها فن القرآت وعلوم الدين [35].

وترتبط ساكنة اداويسارن بالمدرسة العلمية العتيقة لسيدي بوزكري ارتباطا وثيقا كمجال لتعلم أبنائهم للاستفادة من العلوم الدينية، ويتجسد ذلك في احتفال الأمهات بتخرج أبنائهن عند استكمالهم حفظ القرآن الكريم، ويسمى هدا الاحتفال بتامغرا نْ امحضارنْ أو عرس الطلبة حيث تكلف النساء بطهي بعض الأكلات المحلية الأمازيغية كتمرخفيت، وهي أكلة محلية عبارة عن كسكس تمزج باللوز والثمر، ويتم تقديمها في كل موسم دراسي لطلبة العلم المتفوقين.

❖ مصادر وموارد تمويل المدرسة:

تعددت الموارد الاقتصادية لمدرسة سيدي بوزكري، حيث تعتمد على الموارد الجبائية لموسمها السنوي والمحاصيل الزراعية لأراضي الأحباس التابعة لها، أما على مستوى الاعتناء

(33) إسماعيل عثمان عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، 1993م، ص 191.

(34) الهدري أحمد، مدارس التعليم العتيق، مرجع سابق، ص 320.

(35) نفسه، ص 320.

بالمدرسة، فقد كانت تدبر من طرف عائلات ابوزكريتن المتفرعة عن مؤسس الزاوية، حيث يتم تمويلها وتقديم الدعم لطلبتها عن طريق الإعانات السنوية التي تقدم للمدرسة، وارتبطت هذه الأسر روحيا وصوفيا بزاوية سيدي بوزكري منذ القدم، وظلت تحافظ على الدور التعليمي وإشعاعها الديني من خلال الأعشار التي يدفعها أبناء قبيلة اداويسارن، بالإضافة إلى إشرافها على التنظيم السنوي لموسم الزاوية، (أنظر الجدول رقم 1).

ولأهميتها الجبائية فقد عين المولى الحسن كل من الأمناء، محمد من إيالة البوفنزي وعبد الله من إيالة الزلطني والسيد عمر من إيالة النكنافي والسيد علي من إيالة الجلولي، وقد كلفهم بتحصيل المستفادات والضرائب أثناء تنظيم المواسم الدينية بالمنطقة[36].

أما زاوية سيدي بوزكري، فقد عين عليها المولى الحسن الأمين عبد الله أمغار بوزكري لتحصيل الأعشار والمستفادات بقبيلة اداويسارن والزوايا المحيطة بها، وتشير وثيقة تاريخية إلى إلغاء المولى الحسن للإعفاء الضريبي للزوايا، وقد ألح السلطان للأمين المعين على رأس الزاوية، على ضرورة الحفاظ على جزء من المحاصيل الزراعية وإنفاقها على الضعفاء والفقراء لتأمين الموارد الغذائية و الفلاحية نتيجة توالي سنوات القحط والجفاف التي كان تأثيرها سلبيا على إنتاج الحبوب، حيث تضررت جل مناطق المغرب من رداءة الإنتاج وتأثير اجتياح الجراد على المزروعات والمحاصيل، وأصبح معه السكان عاجزين عن أداء الضرائب [37].

ومما جاء في هذه الرسالة:«...ويجعل في محل محترم كبعض الزوايا إلى أن تباع في الإبان والوقت التي يرضونه ويؤخذ عنها الواجب كما أجبنا بمثل من كتب في مثل ذلك من أبناء قبائل حاحا إذ المقصود في عدم قبضة من عين فأوجب حول بقاء الحبوب بقصد نفع الضعفاء والمساكين ساهم عليه الناس من الاحتياج إليه حتى إنه يجلب من الخير... »[38]، وذلك لتأمين حاجيات الزاوية ومدرستها من الموارد الغذائية ضمانا لسير مرافقها، وقد ظلت مسألة الماء من بين المشاكل التي واجهت الزاوية عبر التاريخ حيث بنى البوزكراويون مخازن لمياه المطر لضمان تزود المدرسة العتيقة من الماء في الظروف العصيبة.

(36) الكناش رقم 354، مستفاد احاحان 1887-1882، حساب ما بذمة الزوايا من بعض المنتجات المحصلة من طرف أربع أمناء زوايا احاحان لفترة 1300هـ - 1301هـ (موافق: 1883 - 1884م)، الخزانة الحسنية بالرباط،

(37) الناجي محمد، التوسع الأوروبي والتغير الاجتماعي في المغرب القرن 16 و 19، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات جذور، الطبعة الأولى، 2004م، ص87-89-91.

(38) رسالة من السلطان المولى الحسن إلى الأمين عبد الله المغاري، مؤرخة في 25 شعبان 1300 هجرية، وثائق أيت المقدم، زاوية سيدي بوزكري، سميمو.

ج . الإشعاع

الاقتصادي لموسم زاوية سيدي بوزكري:

فروع أسرة سيدي بوزكري	انتماؤها القبلي
انجايمين	اداويسرن ، اداوكضل
اعطارن	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
اد بن عمر	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
ادبلعادل	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
اد مولاي عبد الله أمغار	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
ادقدور	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
ادا أوزيو	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
احوزميضن	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
اشاظمين	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
ابراج	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
أيت أومالو	اداويسرن ، فرقة اداوكضل
اشوغاغ	اينكنافن ، فرقة أيت محند
ادبي احولين	اينكنافن ، فرقة درممان
أيت لمرس	اداوكرض ، ظهر أبلزيز

الجدول رقم1 :فروع أسرة سيدي بوزكري بقبائل احاحان .

ـالمصدر :شرفاء سيدي بوزركري بسميمو .

لم يعرف تاريخ بداية الاحتفال بالمواسم الدينية بالأطلس الكبير الغربي نظرا لانعدام المصادر الإخبارية المحلية وشح الوثائق المحلية، إلا أن المواسم ظلت مصدرا للإشعاع الاقتصادي لزوايا الأطلس الكبير الغربي وموردا جبائيا لتدبير شؤونها، وتحتفل زاوية سيدي بوزكري بموسمها السنوي في أواخر شهر غشت من كل سنة، وهي مناسبة روحية تجسد ارتباط الفرق والقبائل بالشيخ الصوفي أبي زكرياء الحاحي، وكما تعمل على الإشراف على أمن الأسواق ورعايتها أثناء الموسم .

وقد ساهم قرب الزاوية من محور الطرق التجارية في ازدهار الحياة الاقتصادية، حيث ظهرت مجموعة من النزايل أو (نزلت) بالمنطقة التي لعبت دورا مهما في استراحة القوافل

التجارية الآتية من عمق الصحراء والمتجهة شمالا، وتلزم على تجار القواقل بأداء رسوم وواجبات لضمان تأمينها، [39] ففي هذا الصدد نجد عبر المحاور التجارية الرابطة بين أكادير وموكادور العديد من النزايل التي تستقبل القوافل القادمة من الصحراء، أبرزها:نزالة بوشان بقبيلة اداوكرض، ونزالة اداوكيلول، ونزالة لوضا وامي أمسدناس.

وقد ارتبطت تجارة القوافل بشبكة من العلاقات الاجتماعية لعبت فيه الزاويا الدينية والمرابطون الموجودون في زوايا الجنوب المغربي دورا مهما في توفير الأمن لمحاور تجارة القوافل [40]، مما مكن هذه الزاوية من احتضان النشاط الاقتصادي عبر الخطوط التجارية المارة بأكادير والأطلس الكبير الغربي، والمتجهة إلى ميناء موكادور بعد تأسيسه من طرف السلطان محمد ابن عبد الله[41].

وكما يرتبط موسم الزاوية بالعديد من الطقوس الدينية الرمزية، وتحتل فيه الهدايا والهبات المقدمة إلى الزاوية طابعا رمزيا وروحيا[42] التي تقدم في اليوم الثاني، حيث تصل وفود القبائل وفرقها المجاورة إلى الزاوية ويعلنون بدء طقوس الذبيحة وتقديم هدايا نقدية وعينية لصالح شيوخ الزاوية وطلبتها، وهي طقوس وعادات تميز المواسم الدينية بالمنطقة.[43].

وكما تساهم في توطيد العلاقات بين الزاوية والقبائل، فهي مصدر التحالفات القبلية وأساس استمرار العلاقات بين القبائل، وكما تكتسي طابعا معنويا في تجسيد أواصر القرابة بين أفراد القبائل المتحالفة أو بين المريدين وشيوخهم من المتصوفة ومصدرا لقوة نفوذ الزواية. (أنظر الجدول رقم2).

(39) الخديمي علال، من التاريخ الاجتماعي للمغرب، مؤسسة النزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م، ندوة التجارة وعلاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب، عين الشق الدار البيضاء، 1992، ص ص 193 و 194.

(40) شروتر دانييل، تجار الصويرة، مرجع سابق، ص 174.

(41) أفا عمر، اليهود في منطقة سوس دورهم الاقتادي وعلاقتهم بالصويرة، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، ص 143.

(42) تعددت الدراسات التي خصت بالدرس والتحليل موضوع الهدية، ويعتبر الأنتروبولوجي مارسيل موس أول من اهتم بالمكانة الكبرى للهبة داخل المجتمعات الإنسانية، حيث بحث في الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والدينية مؤكدا على أن الهدية تمثل ترابطا لالتزامات ثلاثة:العطاء والقبول والرد، وهي التزامات تدفع إلى العودة إلى نقطة انطلاقتها، وترتبط بما هو رمزي داخل المجتمعات الإنسانية، للتوسع في الموضوع أنظر:
- Allain Caillé ;Don,intérét et désintéressement. Bourdieu, Mauss, Platon et quelques autres, Paris, Editions la Découverte, p 78.

(43) ظلت طقوس الذبيحة من الممارسات القديمة بالمغرب التي ارتبطت بالظاهرة الصوفية، حيث تتكلف القبائل والفرق بشرائها وإهدائها للزاوية.

(44) صادق نور الدين، حركة الشيخ الحاجي، مرجع سابق، ص 33 .

المواسم الدينية	أصحابها	الصنف	التوقيت	المكان
لموسم ن سيدي سعيد أو عبد النعيم	ـ عميد الأسرة المنانية الحاحية، ينتسب الى الشراء الأدارسة. (154)	موسم ديني	مارس كل سنة	مركز أيت داوود،
لموسم ن سيدي بولبركات العبدري	ـ محمد بن محمد بن علي العبدري الحيحي، صاحب رحلة العبدري. (155)	موسم ديني وتجاري	أواخر شتنبر	اداويعزا، قبيلة اداويسارن،
لموسم ن سيدي بوزكري	ـ ينسب لمؤسس الزاوية الشيخ أبي زكرياء الحاحي.	موسم ديني وتجاري	أواخر غشت	مركز سميمو، إقليم الصويرة
لموسم ن سيدي محند أوسليمان الجزولي	ـ صاحب دلائل الخيرات، وأسس زاويته بانكنافن خلال القرن 15م.	موسم ديني	بداية شتنبر	اينكنافن، تمسورين، إقليم الصويرة
لموسم ن زاويت ن التيجاني	ـ استقر باحاحان خلال أواخر القرن 19م بالمحصر بانكنافن.	موسم ديني	عيد عاشوراء	اينكنافن، ايت محند، إقليم الصويرة
لموسم ن سيدي عبد الواسع	ينتمي إلى أسرة سيدي سعيد أو عبد النعيم الحاحي.	موسم ديني وتجاري	أوائل أكتوبر	أيت واضيل، اينكنافن.
لموسم ن سيدي سعيد	ـ ينتمي إلى أسرة سيدي سعيد أو عبد النعيم الحاحي.	موسم ديني وتجاري	وسط يولويوز	مركز تمنار، إقليم الصويرة
لموسم ن سيدي أحمد أومبارك	ـ ينسب هذا الموسم للفقيه التناني سيدي مبارك وكريم بقبية اداوتغوما. (156)	موسم ديني	أوائل غشت	اداوتغوما، إقليم الصويرة
لموسم ن سيدي إبراهيم اولقاضي	ـ ينتمي إلى أسرة سيدي أولقاضي باداوزمزم. (157)	موسم ديني	وسط يوليوز	ادازمزم، إقليم الصويرة
موسم ن للالا مريم يحي الحاحي	تنتمي الى الاسرة الحاحية، دفنت باداكاركان بقبية اداوكيلول. (158)	موسم ديني وتجاري	أواخر يوليوز	اداوكاركال، اداكيلول، إقليم الصويرة

جدول رقم2: المواسم الدينية بإقليم الصويرة.

(45) أبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي، رحلة العبدري، تحقيق وتقديم محمد الفتسي، منشورات جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات، 1968، م ، ص4.

(46) الهدري أحمد، مدارس التعليم العتيق، مرجع سابق، ص 320.

(47) نفس المرجع سابق، ص 316.

(48) نفس المرجع سابق، ص 314.

رابعا: زاوية سيدي بوزكري وأنماط المعمار المحلي الديني:

اهتم الإنسان المحلي بعمران الزاوية عبر التاريخ، فرغم التدهور الذي يواجه هذا الموقع التاريخي نتيجة تأثير المتغيرات المناخية وتغيير الإنسان لكثير من المعالم العمرانية، فما زالت تحتفظ بمجموعة من الخصوصيات العمرانية ذات الطابع الأمازيغي والإسلامي، جسدت روح الإبداع وارتباط الإنسان بالدين الإسلامي.

أما من حيث الجانب المعماري وطريقة البناء، يلاحظ من خلال هندسة الزاوية، تأثرها بالبعد الثقافي الأمازيغي والإسلامي في بنائها، فقد ساهمت الحقب التاريخية المتعاقبة في ظهور خصائص عمرانية تختلف حسب شكل البناء والمواد المستعملة والزخرفة المعمارية وطبيعة المرافق الدينية للزاوية ودور الكفاءة المحلية على مستوى إتقان العمارة ارتباطا بما يوفره المجال الجغرافي للمنطقة من مواد بناء ومواد خام.

وقد حظي تخطيط العمارة الدينية باهتمام مؤسس الزاوية وأتباعه، وأعطيت لها المكانة الخاصة على مستوى تشييد مرافقها العمرانية لتستجيب بذلك للدور الديني والاجتماعي ولوظيفتها داخل المجتمع المحلي، ومن الخصائص التي تميزها هو تكامل وظائف مرافقها، وكما وفر المجال الجغرافي مواد البناء كالحجارة والآجر التي استعلمت في بناء الجدران والأعمدة، أما الخشب فيتم استعماله في تشييد السقوف والدعائم. (أنظر الصورة رقم3)

أما المسجد فتميز بصغر حجمه وضيق مساحته وهي خاصية ميزت مساجد الحقبة المرينية،[49] وشكل النواة المعمارية الأولى التي بناها مؤسس الزاوية وأتباعه لإقامة الصلاة، وتنظيم صفوف طائفة الحاحيين التي تزعمها الشيخ الصوفي، وتحروا في أن تكون الواجهة القبلية للمسجد مكشوفة حتى يتعرف عليه الغرباء لأنه المأوى الأول لأبناء السبيل.[50] .

وتعددت عوامل اختيار موقع بناء المسجد فنجد ملائمة الظروف الطبيعية من خلال توفر مواد البناء وإشراف الزاوية على مجرى مائي موسمي، وكما تميز مجال تنظيمها العمراني الأمازيغي بكفاءة الإنسان المحلي في العناية بإتقان العمارة الدينية وعيا منه على دورها ووظائفها كمؤسسة روحية واجتماعية ومنبعا للعلم والمعرفة الشرعية. (أنظر الرسم تخطيطي رقم1)

---

(49) إسماعيل، عثمان عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية، نفس المرجع، ص 279.

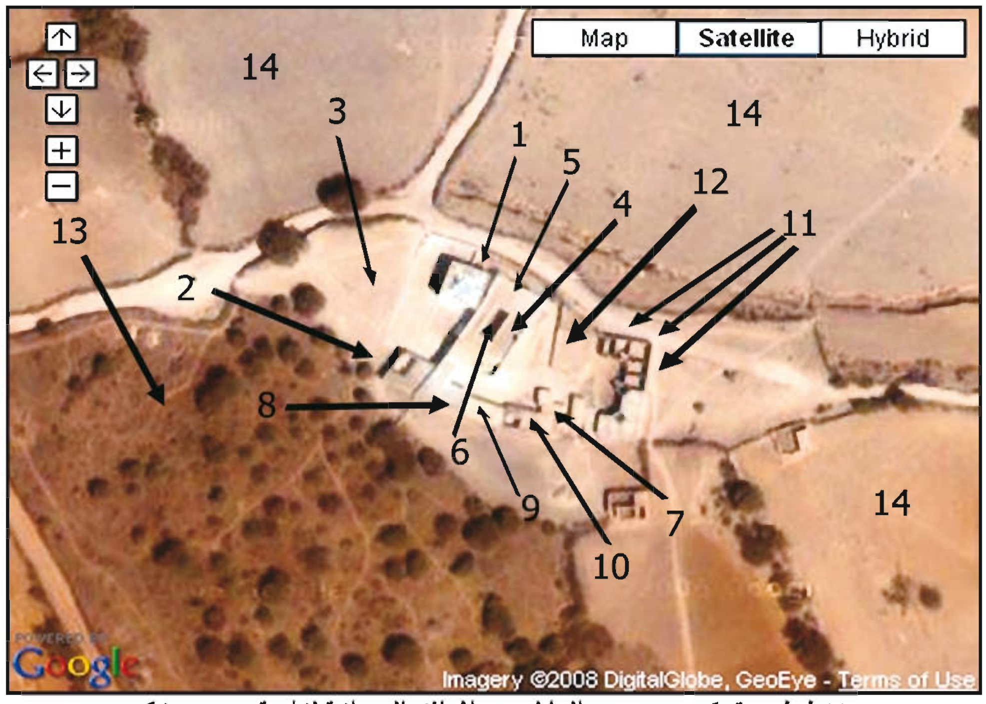
(50) محمد الطيب، الصويري، العادات والتقاليد التحضرية بقبائل الصويرة، مرجع سابق ص385.

خلاصـــة:

كان لزاوية سيدي بوزكري صيت كبير بقبائل احاحان ، فمنذ تأسيسها على يد العالم الجليل الشيخ أبي زكرياء الحاحي بدأت مدرستها العلمية في استقطاب وفودا من طلبة العلم لتلقي العلوم الدينية واللغوية والأدبية، حيث كان حضور الزاوية وازنا في المجتمع المحلي كمؤسسة ملازمة للحياة الدينية والاجتماعية والتعليمية لدى قبائل الأطلس الكبير الغربي، وكما أن إشعاعها الاقتصادي قد جعل من موسمها قبلة للتجار من مختلف المناطق بالجنوب المغربي.

ولكن ابتدأ ضعف الزاوية ومدرستها العتيقة في أواخر التسعينيات من القرن 20م بعد وفاة العلامة الشيخ سيدي عبد الله اميحي وتراجع عدد طلبة هذه المدرسة وأطالها الإهمال من مختلف الجوانب، فوضعيتها العمرانية في حاجة إلى ترميم معالمها التاريخية وإعادة الاعتبار لذاكرتها الأمازيغية والمحافظة عليها من انعكاسات الظروف المناخية.

وكما أن تاريخ هذه الزاوية ومدرستها العتيقة في حاجة إلى تظافر جهود الباحثين من أجل كشف الأرشيف المحلي الذي مازال حبيس الأسر البوزكراوية ورفوف المكتبات الخاصة، واستثمار الرواية الشفوية الأمازيغية في رصد علاقة الإنسان بالزاوية والمدارس العلمية العتيقة بالأطلس الكبير الغربي.



رسم تخطيطي رقم1: صورة عبر الساتل تبين المرافق العمرانية لزاوية سيدي بوزكري.

المصدر:أخذت هذه الصورة من برنامج(Google Earth)سنة 2008م.

المفتاح:

1. المزارة أو ضريح مؤسس الزاوية.
2. إقامة مقدم الزاوية.
3. ساحة استقبال ضيوف الزاوية.
4. مسجد صيفي علوي.
5. مسجد النساء.
6. باحة المسجد الخارجية.
7. أخربيش امحضارن.
8. قاعة ضيوف الزاوية.
9. مطبخ.
10. مرافق الوضوء ومغسل الأموات.
11. بيوت خاصة بالطلبة.
12. ساحة غسل ألواح الطلبة.
13. مقبرة الزاوية.
14. أراضي بورية تابعة للزواية.



الصورة رقم 2 : مدخل مسجد تصورين بقبيلة اداويسان وتصميمه مستوحى من الفن المعماري المحلي الخاص بالمساجد



الصورة رقم3: استعمال خشب الأركان في تشييد سقف مسجد تضورين ، قبيلة اداويسارن .



الصورة رقم 4: قبة مزارة الولي الصالح أبي زكرياء الحاحي، وفي الجانب فن " الشكل"
وهي عبارة عن شكل معماري فني محلي

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة:

أ.المصادر:

- أرنو، لويس، زمن لمحلات "السلطانية" الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب بين 1860 و1912م، ترجمة محمد ناجي بن عمر، الطبعة الأولى، منشورات إفريقيا الشرق، 2001م.
- الوزان، الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الجزء الأول، الرباط، 1988.
- القسنطيني، بن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وادولف فور، الجزء الأول، سلسلة الرحلات، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة الرباط، أكدال، 1965م.
- الشفشاوني، محمد بن عسكر الحسني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق د. محمد حجي، منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2003.

ب.المراجع :

- إسماعيل عثمان، عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، عصر الدولة المرينية ودولة بني وطاس، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، 1993م.
- الماجي علي حامد، المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1986م.
- السبتي عبد الأحد، فرحات حليمة، المجتمع الحضري والسلطة بالمغرب من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، قضايا ونصوص، منشورات دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2007م.
- السعيدي، المهدي بن محمد، المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب، المدرسة الالغية بسوس نموذجا، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، 2006.
- صادق، نور الدين، حركة الشيخ يحي الحاحي وقيام امارة تارودانت، الجزء الأول: من الدعوة إلى الإمارة، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم: 23، 2010م.

- الناجي محمد، التوسع الأوروبي والتغير الاجتماعي في المغرب القرن 16 و 19، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات جذور، الطبعة الأولى، 2004م.
- القبلي، محمد، حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط، منشورات الفنك، الدار البيضاء، 1998م.
- شروتر، دانييل، تجار الصويرة، المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب، أكدال، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 6، الطبعة الأولى، 1997م.
- شقير، محمد، تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكون والتمركز والهيمنة، من القرن الثالث ق.م إلى القرن 20م، افريقيا الشرق، 2002.

ج. المقـــالات:

- أفا، عمر، اليهود في منطقة سوس دورهم الاقتصادي وعلاقتهم بالصويرة، ،سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، من الصفحة 131 إلى الصفحة 149.
- الهدري، أحمد، مدارس التعليم العتيق بالإقليم الصويري، مقال منشور، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، من الصفحة 299 إلى الصفحة 349.
- زنيبر، محمد، إطلالة على منطقة الصويرة في العصر الوسيط، مقال منشور، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، من الصفحة 77 إلى الصفحة 90.
- الزكاري، أسامة، مقدمات أولية من أجل إعادة الاعتبار لعلاقة المخزن بالزوايا وبالمؤسسات التقليدية خلال فترة ما قبل الحماية، مجلة أمل:نظيمة الزوايا في علاقتها بالمجتمع والسلطة، عدد مزدوج:23–22، السنة الثامنة، 2001م، من الصفحة 85 إلى الصفحة 99.
- كلنير، ارنست، السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية، ترجمة:عبد الأحد السبتي، عبد اللطيف الفلق، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أكدال، العدد11، 1985م، من الصفحة 171 إلى الصفحة 191.
- الصويري، محمد الطيب، العادات والتقاليد التحضرية بقبائل الصويرة، مقال منشور، سلسلة ندوات، ندوة مدينة الصويرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، 1994م، من الصفحة 373 إلى الصفحة 386.

- الخديمي، علال، من التاريخ الاجتماعي للمغرب، مؤسسة النزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م، ندوة التجارة وعلاقاتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب، عين الشق الدار البيضاء، 1992، صص193 و 194.

د. الوثــائق والمخطوطات:

1. الخزانة الحسنية بالرباط:

- الكناش: 354، مستفاد احاحان1887-1882

2. الوثائق المحلية:

- مخطوط مجهول، يؤرخ لأخبار أل أمغار البوزكراويين.

- وثائق أل أمغار، أيت المقدم، رسالة من السلطان الحسن الأول إلى الأمين عبد الله الأمغاري، 25 شعبان 1300ه.

التعليم العتيق بتامسلمت
دوره التاريخي ووظائفه التربوية

إدريس صابي
باحث

تقديم

ما من شك في أن التعليم الشرعي كان يتميز بدور بارز في صيانة هوية الأمة وتعضيد تماسكها، فقد مارس وجوده بكل إيجابية في كافة المناحي، كما كانت له مكانة وازنة في جميع التحديات التي عرفتها دوائر التاريخ الإسلامي بمختلف تجلياته، حيث أن مسألة التعليم عموما، ومسألة التعليم الشرعي خصوصا، تعتبر عنصرا أساسيا في قضية الميلاد المتجدد للإنسان على الدوام، وإنما التقدم البشري واستكشاف المزيد من أسرار وآفاق العمران، هو في نهاية المطاف تجسيد لتصورات وإبداعات ذلك الإنسان، ولا تستقيم التصورات وتفيد التأملات إلا إذا كانت على بينة من العلم وأنوار المعرفة.

في هذا السياق يأتي حديثي عن التعليم الشرعي، لما له من أصالة وتجذر في الحضارة الإسلامية إلى حد التماهي، وسأحصر دراستي هذه في نموذج من النماذج التي يحق للمغرب الأقصى أن يعتز بمنجزاتها التربوية المتواصلة للمديد من العقود، ألا وهي المدرسة العتيقة بتامسلمت.

1. التعريف بتامسلمت وقبيلتها:

تامسلمت هي تجمع سكاني (دوار) ضمن ساكنة تالسينت في الجنوب الشرقي للمغرب. تعد من أقدم تلك التجمعات بناء على روايات ومعطيات تاريخية كثيرة، في مقدمة تلك الدعامات التاريخية الدالة على عمقها الزماني احتضانها لضريح مولاي علي بن عمرو الحسني الإدريسي، وقد كانت وفاته عام 859 هجرية 1396 ميلادية، حسب كتاب "الدرر السنية في أصل السلالة العمرانية الشغروشنية والسبعية" لمؤلفه: أحمد بن الحسن السبعي الإدريسي، ومعنى هذا أن استقرار قبيلة تامسلمت بمكانها المعروف الآن، كان قبل القرن السادس الهجري. غير أنه من الصعوبة بمكان تحديد بدايتها، إذ أن الأمر يتعلق هنا بروايات تغيب فيها التحديدات الزمانية المطلوبة، حيث عثر بعض سكان تامسلمت في بعض البساتين على مقابر فيها رفاة وجماجم لأشخاص موجهة وجوههم إلى مغرب الشمس؛ وليس إلى جهة القبلة التي يستقبل بها المسلمون موتاهم عند الدفن، وهذا يدل على أن وجود الإنسان وعمرانه

بهذه المنطقة بالذات يعود في غالب الظن إلى ما قبل الإسلام، والسبب المباشر في ذلك هو احتضان تامسلمت لعين مائية دائمة الجريان وبكميات غزيرة صيفا وشتاء، كما أنها تقع على مقدمات سفوح سلسلة جبلية متنوعة الأشجار والغطاء النباتي، الأمر الذي ساعد على القيام بالنشاط الرعوي والفلاحي في ظروف ملائمة.

هناك روايات شفوية متعددة تتحدث عن نقطة بداية تجمع أفراد قبيلة تامسلمت وتكوين جماعتهم في ذلك المكان بالذات، بيد أنها روايات تبرز الكيفية التي حصل بها التلاقي على تلك الربوع، أما بيان المرحلة السياسية فلا تشير إليها الروايات الشفوية لامن قريب ولا من بعيد؛ لأن من شأن تلك الإشارات لو حصلت أن تساعد على تحديد البداية الزمانية ولو بالتقريب، وسأكتفي بسرد رواية واحدة مفادها أن أول شخص استقر به الترحال في قرية تامسلمت هو تاجر متنقل بدابته بين خيام الرعاة المنتشرة بين السفوح والهضاب والسهول، ويسميه السكان المحليون باللغة الأمازيغية "أعطار"، وهي كلمة عربية في الأصل آتية من العطر أو العطور، إذ إن التجار المتنقلين بتجارتهم وبضائعهم على الدواب غالبا ما تكون العطور ولوازمها من المحتويات الأساسية التي يقصدون بها زبناءهم، وعندما اختار هذا التاجر المتنقل (أعطار) بناء مسكن دائم له في تامسلمت بدأ بعض الأفراد المضطهدين في الأماكن الممتدة في منطقة تالسينت يفدون عليه ويقررون المكوث معه في هذا المكان، وهكذا تكونت القبيلة وكثر عدد أفرادها إلى أن أصبحت مجموعة قائمة الذات، إلا أن تعرضها لهجمات واعتداءات من تجمعات الرحال سيؤدي بها إلى القبول بانضمام مجموعة أخرى تسمى بـ "آيت لغمان"؛ أي أهل الجمال؛ لأنهم جاءوا بجمالهم وذويهم، وإلى يومنا هذا لا تزال بتامسلمت أسر تُنعت بهذه الألقاب، فبعضهم يلقب بإعطارن نسبة إلى جدهم الأول الذي استوطن تامسلمت، وبعضهم يلقب بآيت لغمان نسبة إلى المجموعة البشرية الثانية المستوطنة لهذه المنطقة ، وبقيت قسمة مياه العين قائمة على هذا الأساس ومعروفة بهذه الأسماء والمسميات.

يعد سكان تامسلمت من القبائل الأمازيغية الأصيلة، ويظهر هذا جليا في مختلف تعابيرهم وطقوسهم الفنية التي تميزهم عن سائر القبائل المجاورة، وإلى جانب ذلك يظهرون رغبة ومبادرة واضحة في الانفتاح على الآخرين والتفاعل معهم؛ ولعل من الأسباب الكامنة وراء ذلك عنايتهم منذ غابر الأزمان واحتضانهم لمدرسة عريقة في التعليم العتيق.

2. المدرسة العتيقة بتامسلمت:

بالرغم من أن قرية تامسلمت استفادت من بناء مدرسة نظامية بمناهج حديثة إبان الاستعمار الفرنسي للمغرب، إلا أنها لم تأل جهدا في الحفاظ على التعليم العتيق، فبقايا المدرسة النظامية تلك و أطلالها ظلت شاهدة على أن المستعمر جعل التاثير على تامسلمت وأبنائها من بين أولوياته بغية السيطرة على مناطق النفوذ بقبائل آيت سغروشن في تالسينت،

غير أن قبيلة تامسلمت لم تخضع لرغبة الفرنسيين ولم يسجل عليها أن أبدت تعاونا يُذكر معهم، بل بقيت مدافعة عن حريتها ووطنيتها وقاومت الفرنسيين والمتعاونين معهم من القبائل الأخرى، وهكذا يظهر جليا أن المدرسة العتيقة أدت مهمتها في تنمية وعي شرعي ووطني قويين في القبيلة، وليس معنى هذا أن أبنائها لم يستفيدوا من المدرسة النظامية الأولى التي بُنيت في قريتهم ومن مناهجها العصرية، ولكن المقصود هو أنهم لم يفرطوا في جزء من مقومات حضورهم التاريخي الجمعي، وهو المتمثل في الحفاظ على التعليم الشرعي.

لا يعرف على وجه التدقيق متى أُسست المدرسة العتيقة بقرية تامسلمت، حيث تنعدم المعطيات التاريخية في هذه الناحية على وجه الخصوص، فحتى الشيوخ المتخرجون من هذه المدرسة والمتقدمون جدا في العمر لا يعلمون شيئا عن تلك البداية المبحوث عنها باستمرار؛ لأن ارتباط التدريس والتحفيظ بالمسجد أساسا يجعل أجيال القبيلة غير محتفين بأمر البداية، ومع توالي السنين والأيام أصبح ذاك الشأن نسيا منسيا، فالمدرسة لم تستقل ببنياتها إلا في العقود الأخيرة، وقد ذكر لي أحد المهتمين بتاريخ منطقة تالسينت أن التعليم الشرعي فيها عموما بدأ عن طريق إيفاد حكام منطقة تافيلالت لمجموعة من الحفاظ والمرشدين الدينيين إلى قبائل آيت سغروشن بتالسينت لتعليمهم القرآن الكريم واللغة العربية وفقه العبادات والمعاملات، وقد حدث هذا الأمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي ثم توالى بعد ذلك لعقود مديدة، والغاية منه أساسا ضمان تبعية تلك القبائل لنفوذ حكام تافيلالت روحيا وسياسيا، ثم الاستفادة المالية من هدايا قبائل آيت سغروشن التي يبعثون بها سنويا لشرفاء تافيلالت وحكامها للتبرك على عادة العرف المغربي.

ومن أولئك المحفظين والمرشدين الدينيين الموفدين إلى تالسينت في الحقبة المشار إليها الشريف الحسني الإدريسي سيدي يحيى دفين دوار تزندتشة والد سيدي أبي الطيب دفين مدينة ميسور، فهو سكن مغارة جبلية تسمى (إفري نطامزا) في منطقة قريبة من قرية تامسلمت وجعل وقته بالكامل للتحفيظ والتدريس، وممن عرف من تلاميذ قبيلة آيت بومريم الذين استفادوا من أولئك المحفظين الفيلاليين الشيخ المعروف بمولاي أحمد أفقير دفين دوار آيت مقران بأسداد، ولايستبعد أن يكون التعليم الشرعي وتحفيظ القرآن الكريم في تامسلمت قد عرف بدايته على يد شيوخ تم إيفادهم من تافيلالت في القرن السادس عشر على غرار ماذكرنا بالنسبة إلى عموم المنطقة، وربما قد تكون تامسلمت حظيت بهذه المسألة من قبل هذا التاريخ وبالطريقة ذاتها؛ ولأن الأمر وجد قبولا كبيرا من قبيلة تامسلمت فقد استمر وترسخ إلى أن بلغ شأوا كبيرا لم يتح له من طرف القبائل المجاورة التي بقيت فيها المبادرة والإقبال فرديين، ولعل انتشار الطريقة الفيلالية في القراء الثنائية بين حفظة تامسلمت منذ القدم ونظام إطعام المتعلمين الوافدين على شاكلة ما هو معروف في تافيلالت " نظام الرتبة"، والإقبال

الشديد لطلاب المدرسة العتيقة بتامسلمت لاستكمال دراستهم بتافيلالت، كل ذلك يدعم الفرضية التي ذكرناها بالرغم من أنه لا يحسم بشكل قاطع فيها.

تعنى المدرسة العتيقة بتامسلمت بحفظ القرآن الكريم في المقام الأول، فالقرية معروفة بكثرة الحفاظ، ولا يقتصر تحفيظ القرآن الكريم ومدارسته على أبناء تامسلمت فقط، بل يشمل طلابا يفدون على المدرسة من مناطق أخرى، حيث يتولى أفراد القبيلة رعاية شؤونهم والإنفاق عليهم، وهؤلاء يخضعون لنظام خاص في الدراسة بحكم تفرغهم التام لها، فالقبيلة تعين لهم محفظا خاصا بهم، والدراسة بالنسبة إليهم تبدأ من الفترة التي تلي صلاة الصبح وقراءة الحزب إلى صلاة العشاء، ويسمون بالتعبير المحلي بـ"إرتْبين"؛ أي إن مسألة إطعامهم تكون موزعة على أسر بعينها بشكل مرتب حسب أيام الأسبوع، فكل يطعم بقدر استطاعته وباستقبال العدد الذي يختاره بمحض إرادته من مجموع الطلبة الوافدين، وإلى جانب تحفيظ القرآن الكريم تقدم لهم دروس في المواد الشرعية واللغوية وأحكام التلاوة وضوابطها.

يحظى أبناء القرية أيضا بنصيبهم من التعليم الشرعي، غير أن مدة الدراسة اليومية بالنسبة إليهم تبدأ بعد أذان صلاة الظهر بشكل مباشر، ويزيدون على الطلبة الوافدين ببعض الواجبات، منها الإتيان بقطعة من حطب التدفئة في كل يوم، وأنهم يجمعون بين الدراسة في المدرسة النظامية والمدرسة العتيقة، ثم إنهم يتلقون نصيبهم من التعليم الشرعي العتيق في قسم منفصل عن الطلبة الوافدين؛ أي أن لهم مدرس خاص بهم، وهذا راجع إلى طبيعة برنامجهم الدراسي و إلى أعدادهم التي تكون وافرة في الغالب.

يعين المدرسون من أبناء القبيلة المشهود لهم بالإتقان في الحفظ والدراية بالمواد المدرسة، وهذه المهمة تعتبر دائما منفصلة عن خطة الإمامة والخطابة والإرشاد الديني التي يكلف بها شخص آخر لا يقل كفاءة في الحفظ والعلم، ويشترط في هؤلاء جميعا أن يكونوا من المنتمين إلى مجموعة الحفظة المختبرين بالقرية، فهذه المجموعة لها نظام خاص في طريقة الانضمام إليها سنفصله لاحقا.

3. المناهج المعتمدة في المدرسة:

لا تختلف المناهج المعتمدة في المدرسة العتيقة بتامسلمت عن باقي المدارس المماثلة لها في كل أنحاء المغرب، فهي مناهج موروثة منذ زمن بعيد، إذ تركز على الحفظ والإتقان في الاستظهار قبل كل شيء، ووسيلتها في تلقين ما يجب تلقينه في الألواح الخشبية والكتابة عليها بالأقلام القصبية والمداد الأسود المصنوع بمواد محلية، ففي القديم وقبل انتشار المصاحف كان

المدرر يملي على الطلبة ويكتبون على الألواح، لكن في الفترات الأخيرة، أصبح الطلبة يعتمدون على المصاحف لتدوين الأجزاء المطلوب حفظها على الألواح، وهذه الطريقة لا تقتصر على تحفيظ القرآن الكريم وتلقينه، ولكنها تشمل أيضا تلقين وتدريس المواد الشرعية واللغوية بالمنظومات المعروفة في هذا الميدان، إلا أنه في السنوات الأخيرة بدأت هذه المناهج تعرف نوعا من التغيير؛ كاعتماد السبورة باعتبارها وسيلة ديداكتيكية تسهل عملية التعليم الجماعي، وقد تأتى هذا بعد إقرار قانون التعليم العتيق وإلزام كل مؤسسات التعليم الشرعي به، أضف إلى هذا اعتماد المقررات في بعض المواد بدل التدريس بالمنظومات كما هو متعارف عليه من ذي قبل، قام بالتدريس والتحفيظ في المدرسة العتيقة بتامسلمت شيوخ وحفظة كثيرون، منهم من عُرفت أسماؤهم ومنهم من طواها النسيان، فهذه المدرسة وكما تمت الإشارة سابقا نشطت في مجالها لقرون وليس لسنوات، فيكفي أن نشير إلى أن الأسماء المعروفة تزيد أعمارها عند ضم بعضها إلى بعض على ما يقرب من قرنين من الزمان، وكفى بذلك شاهدا على امتدادها الزماني. وبما أن القاعدة المعروفة تقول: ما لا يُدرك كله لا يُترك جله، فإني سأتحدث عن المعروفين من أولئك الشيوخ، سواء منهم من لا يزال على قيد الحياة، أو من انتقل إلى الدار الآخرة وعلمنا بخبره من الأحياء رواية ومشافهة.

من أشهر الشيوخ الذي قاموا بتحفيظ القرآن الكريم بقرية تامسلمت لسنين طويلة: الشيخ المعروف في قبيلته بسيدي قدور أوبنعلا، وذلك في الجامع القديم قبل الانتقال إلى الجامع الجديد في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، فهو كما يؤكد على لسانه من مواليد سنة 1923م على زيادة يسيرة يزيد بها هذا التاريخ على عمره الحقيقي؛ لأنه متيقن بأنه من مواليد عام 1338 هـ كما علم من أحد الشيوخ الذين يكبرونه سنا، وعلى هذا فعمره الآن على أبواب المائة بالتقويم الهجري، فسيدي قدور أوبنعلا، واسمه بالنطق الصحيح هو سيدي عبد القادر بن عبد الله، هو شيخ الشيوخ بقرية تامسلمت ومدرستها العتيقة، فكل من درس أو حفظ بعده هو من تلامذته وطلابه الذين تعلموا على يديه، وبالرغم من هذه التجربة المديدة في التدريس والتقدم الكبير في العمر فإنه لا يعرف أي شيء عن البداية الفعلية لتحفيظ القرآن الكريم بمسقط رأسه تامسلمت، والشيء ذاته يقال عن مختلف الشيوخ الذين درسوا هناك.

تولى سيدي قدور أوبنعلا التدريس لمدة تزيد على خمسة عشر سنة من أواخر الثلاثينيات وما تلاها من سنوات القرن العشرين، ثم بعدذلك كان يقوم بهذه المهمة من حين إلى آخر ولفترات متقطعة، إذ انصرف لمدة يسيرة لتولي الإمامة بإحدى القرى الموجودة في المنطقة، وتسمى "بوسلام"، وقبل التدريس سافر إلى الجزائر للعمل في بداية الثلاثينيات.

يتحدث عن شيوخه فيقول: إنني تلقيت القرآن وتعلمت تلاوته على أيدي خمسة شيوخ، وهم سيدي علي أوشاما، وسيدي الحسين أوعربية، وسيدي احماد أولحسن، وسيدي

قدور، وهو خاله، ومولاي هاشم، وهذا الأخير هو أبو الشيخ المعروف ببا سيدي، أحد الشرفاء الأدارسة بقبيلة تامسلمت ومن المشهود لهم بالفضل والصلاح بين أبناء تلك القبيلة، وكان مولعا إلى درجة كبيرة بالتأريخ لقرية تامسلمت وأهلها.

يذكر سيدي قدور أوبنعلا أن بعض أولئك الشيوخ حدثه أنه حفظ القرآن الكريم على شيخ مشهور ومعروف من أفاضل القرية هو سيدي أولحسن أو برحيم. الراجح أنه توفي قبل ميلاد سيدي قدور أوبنعلا، وعائلة هذا الشيخ لا تزال موجودة في تامسلمت وتسمى باسمه إلى يومنا هذا، وهي عائلة معروفة بإقبالها على حفظ القرآن الكريم وتمسكها الشديد بتربية أبنائها على ذلك.

أما الذين أخذوا عن سيدي قدور أوبنعلا فهم كُثر، من أبناء تامسلمت وغيرها، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر، سيدي محمد أوباكو، وسيدي على أولامين، وسيدي حمو أوزيزا الذي قام لما يزيد على ثلاثة عقود بمهمة الإمامة والخطابة والإرشاد الديني بجامع قرية تامسلمت، وسيدي علي أشرقي وغير هؤلاء كثير من تلاميذ سيدي قدور أوبنعلا، ونذكر هنا أن سيدي علي أول من أخذ على عاتقه مسؤولية التحفيظ وتلقين المبادئ الأولى للعلوم الشرعية وأحكام التلاوة على وجه التطوع لمدة غير يسيرة، وتفرغ بعد ذلك للإمامة في الجامع الثاني بالقرية، أما سيدي محمد أوباكو فقد استمر في تحفيظ القرآن الكريم للطلبة المحليين، وكان في مرحلة سابقة يجمع بين الإشراف على تحفيظ المحليين والوافدين، وقد تخرج على يديه أعداد كثيرة من الحفظة الذين تقلدوا مختلف الوظائف الدينية في مناطق شتى، وبمناسبة ذكر سيدي حمو أوزيزا، فإن مكانة هذا الشيخ الجليل في العلم والفضل محل اعتراف من لدن كل من يعرفه من قريب أو بعيد، فإخلاصه في تحصيل العلوم ودماثة أخلاقه بوءاه أعلى مراقي الاحترام والعرفان، فيكفي أن نقول إنه هو الآن مقدم مجموعة الحفاظ بتامسلمت، وتلك مرتبة لا تمنح إلا لمن يكون محل إجماع من طرف أعضاء المجموعة؛ لأن العرف هو أن يتم تعيين المقدم المسؤول عنهم باختيارهم الذي يتفق عليه الجميع.

5. نظام مجموعة الحفاظ بتامسلمت:

يوجد بقرية تامسلمت ما يسمى بمجموعة الحفاظ، ويعبر عنها في الاستعمال المحلي بـ "الطلبا"؛ أي الطلبة المتقنون لحفظ القرآن الكريم، و تنبغي الإشارة إلى أن مجموعة الحفاظ عبر تاريخها المديد هي ثمرة بارة من ثمرات المدرسة العتيقة بالقرية، فلولا كثرة الحفظة للقرآن الكريم لما تم التفكير في ابتكار نظام يمحص على أساسه من يستحق الانتماء إلى جماعة المهرة المتقنين ومن لا يستحق.

يقتضي الانضمام إلى مجموعة الحفاظ أن يكون المرشح له من أبناء القرية، فلا يجوز عرفا أن يكون حافظ خارج القبيلة؛ لأنها حكر على الحفظة المحليين فقط، ثم إن التمتع بالعضوية في المجموعة يستلزم اجتياز اختبار صارم في حفظ القرآن الكريم كاملا، وهذا الاختبار ليس على شاكلة ما يجري في المسابقات من الاقتصار على استظهار مواضع من القرآن الكريم تعين للممتحن من طرف أعضاء اللجنة، ولكنه امتحان يستظهر فيه الممتحن القرآن الكريم كاملا أمام أحد الأعضاء الذي تعينه المجموعة لذلك بعد عرض الأمر عليها، وفي الغالب تُسند هذه المهمة إلى مقدم المجموعة، ومن العادات المرتبطة بذلك أن توجه الدعوة إلى المكلف بالاختبار من قبل أسرة الحافظ المرشح للامتحان ليحضر إلى منزلها، حيث تكون قد هيأت وجبة من الطعام لتناولها قبل الشروع في عملية الاستظهار التي تُنجز غالبا في منزل الطالب الممتحن، ويدوم هذا الأمر في الأكثر لمدة تتروواح ما بين ثلاثة أيام إلى خمسة أيام، وبعد الانتهاء بختم القرآن الكريم كاملا على مسمع المنتدب للتحكيم يتقدم بنتيجة الاختبار إلى المجموعة لإطلاع أعضائها عليها، وهي تُختصر في شيئين: القبول أو الرفض، في حال القبول والنجاح تقوم أسرة الطالب الموفق بإعداد مأدبة من الطعام بكل ما تيسر لها من أنواع المأكل والمشرب تدعو إليها كل أفراد مجموعة الحفاظ وكذلك بعض الأقارب والأصدقاء، حيث يرتدي الطالب الناجح في امتحان الانضمام أفخر ما أمكنه من الثياب والزينة، والقصد هو الإعلان بشكل رسمي عن عضويته في المجموعة مدى الحياة، وفي ذلك مفخرة له ولأسرته ما بعدها مفخرة، أما في حال عدم التفوق فإن الطالب يُنظر مدة معينة ليجتهد أملا في تحقيق الإتقان المطلوب في فرصة ثانية تُمنح له مرة أخرى.

كان أعضاء مجموعة الحفاظ يصل في بعض الأحيان إلى ثلاثين فردا، على رأس المجموعة ما يسمى بالمقدم، فهو الساهر على نظام المجموعة ورعاية أوقافها الخاصة بها؛ إذ في قرية تامسلمت يوجد نوعان من الأوقاف: أوقاف على جامع القرية لتوفير نفقاته المادية، وأوقاف على الحفاظ الذين توفرت فيهم الشروط السالفة الذكر، ومن عائدات هذه الأوقاف يقيمون مآدبهم الخاصة بهم وينفقون على لقاءاتهم التي يدعوهم المقدم إليها في منزله.

تقلد مسؤولية المقدم عدة شيوخ عبر حقب مختلفة، ومن جملة من عرف منهم لحسن أوالطالب، والطالب أوسعيد، والحبيب أوبا والحاج أشرقي، وفي السنوات الأخيرة أسندت هذه المسؤولية لسيدي حمو أوزيزا، ويلاحظ أن أبناء الحاج أشرقي لا يدخرون أي جهد في مواصلة الدور الذي كان يقوم به أبوهم في رعاية شؤون الحفاظ؛ إذ يعتبر منزله وجهة لهم وفضاء لتلاقيهم، فأبناء الحاج أشرقي كلهم من حفظة القرآن الكريم وأغلب أحفاده كذلك، ويصدق عليهم أنها ذرية بعضها من بعض في الإقبال على القرآن الكريم والعناية به.

من القصص الطريفة التي يحكيها أحد الشيوخ، وهو سيدي محمد أوبا، أنه لما أراد أن يتقدم بطلب الإذن لاجتياز امتحان الحفظ نهج طريقة عجيبة، إذ استغل مناسبة ليلة القدر ليؤم الناس طيلة الليلة بأكملها، موزعا إمامته للناس في تلك الليلة بين الجامع القديم وأحد مرافقه القريبة التي تؤدى فيها الصلاة ليلة القدر، فبذل قصارى جهده ليتلو أكبر قدر ممكن من أجزاء القرآن الكريم، وبالفعل استطاع أن يتلو في المحراب ما يقرب من أربعين حزبا وبحضور عدد كبير من أعضاء مجموعة الحفاظ، وفي اليوم الموالي استأذن المقدم في أن يعين له وقتا محددا ليجتاز امتحان الحفظ جريا على العادة المعمول بها، والحال أنه استظهر أمامهم جميعا ليلة الأمس ما يقرب من أربعين حزبا ودون أي خطأ يذكر، فما كان من المقدم إلا أن فهم قصده بالذات وأجابه بقوله: إنك اجتزت الامتحان ليلة الأمس وبتفوق باهر، فقد استظهرت أمام المجموعة بأكملها وهذه سابقة في تاريخها وما قام بها أحد غيرك، فلتعتبر نفسك من الآن واحدا من أعضائها، وسيدي محمد أوبا من الحفاظ الذين لا يشق لهم غبار في القرية وخارجها، وهو دائم الاستذكار والتلاوة، ومن مناقبه أنه قضى أكثر من أربعين سنة في الإمامة والخطابة والإرشاد.

6. واجبات مجموعة الحفاظ:

يرتبط الانضمام إلى مجموعة الحفاظ بالالتزام بأداء كثير من الواجبات والمهام، منها: المواظبة يوميا على قراءة حزبي الصبح والمغرب رفقة أعضاء المجموعة وغيرها بشكل جماعي كما جرى به العرف في المغرب، فقراءة الحزب تأتي دائما بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب، إلا أن هذا الواجب يلزم الحاضر في القرية فقط، أما من كان خارجها لسبب من الأسباب فيعفى منه ولا يعد ذلك إخلالا منه بواجباته، ويؤخذ شأن المداومة على قراءة الحزب على أنه امتحان يومي غير مباشر لكل واحد من الحفاظ؛ لأن القراء يلزمون عرفا برفع أصواتهم أثناء القراءة، ومؤدى هذا أن أي خطإ من أحد القارئين للحزب اليومي سيكون على مسامع بقية الحاضرين، ومن تغيب عن هذا الواجب اليومي بغير عذر مقبول تعاقبه المجموعة كلها بإعداد وجبة العشاء لها في اليوم ذاته.

يفرض على كل واحد من أفراد مجموعة الحفاظ أن يتقدم ليلة القدر ليؤم الناس بمقدار من القرآن الكريم يعين له سلفا من المقدم، وغالبا ما يحدد في خمسة أحزاب أو ما يقرب منها، وعليه أن يقبل بتلاوة أي مقدار يعين له وفي أي موضع من القرآن الكريم، وفي هذا محفز آخر على المداومة والمواظبة على استذكار القرآن وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ولا يعفى من هذه المسألة إلا الشيوخ المعمرون جدا أو الذين لهم ظروف صحية قاهرة، وإلا فإن طلب الإعفاء دون مبرر مقبول يعد تهربا من مبارزة الأقران ومسابقتهم في إبداء مستوى متميز في الحفظ والإتقان، ولا حاجة إلى القول إن من سجلت أخطاؤه في الإمامة أو التلاوة سيصبح حديث الخاصة والعامة في اليوم الموالي، وفي ذلك معرة وأي معرة بالنسبة إلى هؤلاء.

تلك الواجبات تندرج ضمن الأنشطة اليومية التي ينجزها الحافظ على وجه مستمر، فهو يقوم بأداء أشغاله التي يستوجبها موقعه الأسري كباقي أفراد القبيلة، كما أن هذا كله لم يحل بين البعض منهم وبين ممارسة بعض التعابير الفنية والإبداعية، فالحفاظ في قرية تامسلمت كانت لهم دوما مسحة من الانفتاح وروح التفاعل وسمة الدعابة مع كل مكونات القبيلة، ولا تكاد تلمح لهم أي تمييز أو خصوصية في المعيش اليومي إلا من بعض السمات اليسيرة جدا، وعلى سبيل المثال إلزام بعضهم لنفسه بارتداء الجلباب في كل الأوقات.

بمناسبة ذكر الجمع بين صفة الحفاظ وبين الإبداع الفني والتعبير الجمالي نستحضر هنا اسم الشيخ الفاضل سيدي علي أولحسن أوعبدلا، فقد عُرف عنه أنه شاعر أمازيغي مفوه، وأنه مبدع بالكلمة البليغة والمعبرة على صدق الإحساس ورهافته، ولم يتوان في احتفالات كثيرة من مبارزة نظرائه الشعراء ومقارعتهم بسجية فياضة ومتوقدة تصويرا وتركيبا.

7. المكانة الروحية لتامسلمت بفضل مدرستها:

لقد تمتعت قرية تامسلمت ولقرون عديدة بإشعاع علمي وروحي في محيطها، وما من مرية في أن المدرسة العتيقة التي تحضنها القرية أسهمت إلى حد بعيد في تحقيق تلك المكانة، وهنا لا بد من بيان أمر غاية في الأهمية، وهو أن قبيلة تامسلمت شهدت على مدى تاريخها الطويل عدة اعتداءات ومحاولات من جيرانها لتهجيرها قسرا وإبعادها عن موطنها المتميز بعدة خصائص، وكان ذلك يأتي في أشكال من التحالف تعقدها القبائل القريبة والبعيدة لتهب على قرية تامسلمت وتأخذها بالتنكيل والتقتيل أخذة رجل واحد، وتزداد الوضعية صعوبة عندما نعلم أن معظم تلك القبائل المتحالفة تنتمي في غالبها إلى ما يسمى بمجموعات الرحال التي تعيش حياة الرعي والتنقل أساسا، فهذه ليس لها من البنيان والممتلكات ما تدافع عنه، بل هي محاربة على ظهر دوابها ممارسة الترحال من هنا إلى هناك، ومع ذلك ظلت المدرسة العتيقة بتامسلمت شاهدا على تسامحها وأدائها لرسالتها العلمية، فهي تستقبل وفودا من أبناء القبائل المعتدية للدراسة بها، وفي الغالب أن ذلك لم يكن بدافع المنة أو التزلف، ولكنه بباعث أن رسالة العلم ونشره ينبغي أن تبقى بمنأى عن الصراعات القبلية التي تدافع فيها كل جماعة بما لديها صونا لبقائها، وهذا ما طبقته قبيلة تامسلمت بحذافيره، إذ قاتلت وحافظت على قريتها، ثم إنها استمرت في القيام بواجبها المعرفي ودورها الروحي حتى في أحلك المراحل، حيث أن مكانتها الاعتبارية ومنزلتها العلمية بقيت دوما محل اعتراف وإقرار من الجميع، وعلى ذلك جملة من الشواهد:

- أن تامسلمت كانت وجهة ومقصد المستفتين في أمور الدين من سكان القرى المجاورة، وتوجه أسئلة المستفتين أساسا إلى إمام الجامع الذي يراعى فيه أن يكون على قدر كبير من العلم والاضطلاع، وتشمل تلك الأسئلة كل المجالات الفقهية الفرعية، وعلى وجه

الخصوص ما يتعلق بأحكام المواريث؛ لأنها تحتاج إلى دراية كبيرة لا تتاح في أكثر الأحوال لجميع الحفاظ ودارسي العلوم الشرعية.

- أن عدة أشخاص من المناطق المجاورة يقصدون طلاب المدرسة العتيقة بتامسلمت وحفاظها لطلب الدعاء لهم بقضاء حاجاتهم المستعصية، وهذا بحكم اعتقادهم أن لأولئك الطلاب مقاما سلوكيا تعبديا يؤهلهم لاستجابة دعائهم، ويحرص أولئك القاصدون أن يقدموا قبل مسألة الدعاء صدقة مادية للمدرسة.

- أن قرية تامسلمت تشهد سنويا إقامة موسم أو موسمين في بعض الأحيان على ضريح مولاي علي بن عمرو الإدريسي، وهذا الموسم لا يأتي بمبادرة أو تمويل من سكان القرية، ولكنه يأتي بمادرة وإنفاق من قبائل تنتمي إلى فروع كثيرة مما يسمى بآيت سغروشن، ويعتبر هذا الموسم فضاء ومجالا لإنتاج عدة مظاهر، منها ما هو روحاني يتجلى في التبرك حسب المعتقدات السائدة، ومنها ما هو تجاري يظهر في ممارسة أنشطة التبادل لبضائع متنوعة، ومنها ما هو فني وإبداعي ويبرز في السمر ليلة كاملة يتبارى فيها أعظم الشعراء الأمازيغ في قبائل آيت سغروشن، وأساسا بين شعراء آيت مسروح بنبوغهم المعروف، وبين شعراء قبيلة تامسلمت التي لا يقل شعراؤها فحولة وتبريزا.

ولا تزال ذكرى الشاعر الأمازيغي الكبير حمو أولامين مثار افتخار واعتزاز لكل أجيال قبيلة تامسلمت، فهذا الشاعر العلم يستحق في الحقيقة دراسة مفصلة وخاصة بسيرته وإبداعاته فقط، وهو نتاج تلك المبارزات والمساجلات الشعرية التي تحفل بها مختلف المناسبات، ومنها موسم الضريح، ولهذا تجد أن المواجهة بين الشعراء تراعي للموسم خصوصيته الروحية، إذ يبدأون قرظ الشعر بأبيات في المديح الديني، ثم بعدذلك يمرون إلى تبادل أبيات في إظهار المحبة ومختلف القيم الإنسانية المشتركة، وفجأة يأخذ أحدهم المبادرة في قرظ بيت أو بيتين شعريين من الهجاء، وهكذا يحمى الوطيس وتفيض القرائح بأبلغ ما وسعها، وفي الأخير يتم العود على البدء بشعر المديح وتهدئة الخواطر والتأكيد على حسن النوايا وصفاء الأفئدة.

ما يهمنا هنا هو بيان أن وجود ضريح مولاي علي بن عمرو الإدريسي والموسم السنوي المقام عليه هو من العوامل التي أسهمت في دعم التعليم الشرعي بتامسلمت واستمراره، فضريح مولاي علي بن عمرو الإدريسي جعل القبيلة تستشعر مسؤوليتها الروحية والتربوية في مناطق آيت سغروشن حيثما وجدت؛ وذلك لما لهذا الولي المتصوف من مكانة كبيرة في نفوس قبائل آيت سغروشن التي لقبت بكرامة من الكرامات التي تنسب إليه، وهي أنه كان يرعى الغنم فقام لأداء الصلاة، وبينما هو في الصلاة أبصر ذئبا يتربص بغنمه فدعا عليه فمات الذئب فورا، فهذا المتصوف تثبت الروايات الشفوية أنه كان يرعى الغنم ويكتفي بالشظف من

العيش ويتنقل وهو ممتط لناقته التي لا يفارقها ولا تفارقه، واشتهر أن المنطقة التي عرف برعيها تسمى المريجة وفيها الآن قرية تحمل هذا الاسم، وعلى كل حال، فإن مسألة دفن هذا الولي الصوفي ومكانه هي محل اختلاف بين من يثبت أنها بقرية تامسلمت، وبين بعض آخر يثبت أنها بقرية غزوان، إذ نشب صراع بين القريتين بسبب أن كل واحدة حرصت على أن يكون على ثراها، وبغض النظر عن هذا الأمر الذي تتضارب فيه الروايات الشفوية وتبالغ إلى حد يتنافى مع مقتضيات التفيكر السليم والمنطق الصحيح، فإن ما يستنتج منها هو أن الرجل كان زاهدا وذا نسب لآل البيت، وأنه جيء به من مدينة فاس للتبرك به على عادة القبائل المغربية، وأنه لم يؤسس لنفسه طريقة صوفية لها معالمها ومسلكها الخاص في السلوك ومقامات التربية.

• أن أهل تامسلمت يحتفلون بذكرى المولد النبوي بعناية فائقة، وهذا الاحتفال له ارتباط شديد بالمدرسة العتيقة في القرية وطلبتها، فهو يبتدئ من مطلع شهر ربيع الأول إلى اليوم الثاني عشر منه، إذ يتفرغ طلبة المدرسة في هذه المدة لمراجعة القرآن فقط وذلك طيلة المدة بأكملها، وبعد قراءة الحزب يقرأون مقاطع من قصيدة تسمى البغدادية، وحينما ينتهون منها مع توالي الأيام يشرعون في قراءة قصيدة أخرى تسمى الهمزية المعروفة عند المغاربة في معظم المناطق، أما اليوم الحادي عشر فيخصصونه لقراءة قصيدة البردة، وكل هذه القصائد في المديح الديني، وفي صباح اليوم الثاني عشر يجتمع الطلبة وحفاظ القرية ورجالاتها في الجامع لقراءة قصيدة البردة مرة أخرى، ثم بعد ذلك يخرجون في جولة على المقبرة والضريح يتلون فيها مجموعة من أشعار المديح يقرأونها من مخطوطات يتوارثونها أبا عن جد، وهكذا إلى أن يحين أذان الظهر حيث ينصرف كل إلى منزله وأسرته، ولا تستثنى بقية أفراد الأسرة من الاحتفال، بل إن الجميع يرتدي أفخر ما يملك من الثياب، ورب الأسرة يتوسع في النفقة على عياله في ذلك اليوم ما أمكنه .

•أن يتوسع ويوفر التحالف مع القبائل التي تحضن هي الأخرى مدارس للتعليم الشرعي، وعلى وجه التخصيص تحالف قبيلة تامسلمت وصداقتها العميقة لقبيلة "تيط نعلي" بضواحي منطقة كرامة، فكانت القبيلتان تتبادلان الزيارات الجماعية والاستضافات المحتفية إلى عهد قريب جدا، فكل وافد على تامسلمت من تيط نعلي يحظى بعناية من أبناء تامسلمت، ولقبيلة تيط نعلي مدرسة شرعية مشهورة بكثرة طلبتها والمكانة المتميزة لشيوخها في العلم والمعرفة، فلا يتولى الإمامة في جامعيها إلا المشهود لهم بالتضلع والتفوق، ومن أشهر شيوخها إمام من أبناء القبيلة يدعى "مولاي علي"، فله مقام مكين في نفوس أبناء قبيلته وطلابها يدركه كل زائر لهم.

8. الرحلات العلمية لطلاب مدرسة تامسلمت:

يتميز معظم طلاب المدرسة العتيقة بتامسلمت بكونهم يواصلون طلبهم للعلم في مدارس وأماكن أخرى، وذلك للإكثار من طرق السند والأخذ على شيوخ متعددين، فللأمر فائدة علمية وتربوية معلومة الجدوى والمغزى؛ لأن أولئك الطلاب بعد قيامهم بتلك الرحلات العلمية يعودون إلى موطنهم الأصلي بمعارف كثيرة، وفيها إضافات وإغناء لتجربة المدرسة في التلقين والتدريس، ثم إن خصلة تعداد شيوخ المتعلم والاستفادة من جل من تتاح الاستفادة منه هو سلوك ونهج العلماء في تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره. وتعد منطقة تافلالت الوجهة الأولى التي تستقطب هؤلاء الطلبة.

وغير خاف أن تافيلالت تحتضن دائما شيوخا مبرزين في تلقين العلوم الشرعية واللغوية بالمتون والمصنفات المتداولة في أهم المدارس العتيقة بالمغرب، نخص منهم بالذكر الشيخ المشرف على التدريس بقرية "تاغنجوت" المشهور بلقب "الشيخ" واسمه الحقيقي هو محمد الإبراهيمي، ومنهم عالم جليل بقرية "السيفة" واسمه سيدي حمو، وهو شيخ مشهود له بالمكانة العلمية في تافيلالت بأكلمها، وقد توفي قبل سنوات، وكذلك شيخ الشيوخ المعاصرين بتافيلالت وهو الشيخ المدني خريج جامع القرويين في الثلاثينيات من القرن العشرين، وقد خلف جما غفيرا من التلاميذ في مقدمتهم أبناؤه، وعلى رأس أولئك الأبناء الشيخ المعروف بسيدي عبد الله بلمدني، وهو غني عن التعريف، فتدريسه للعلوم بمدينة أرفود أولا، ثم بمدينة بني ملال ثانيا، بوأه منزلة متميزة في العلم والفضل، و من أولئك أيضا شيخ آخر بقرية "السيفة" يقال له سيدي عمر، وقرين له آخر في القرية ذاتها يعرف بسيدي علي صاغيري وهو من المتقنين للأداء القرآني بشكل متميز، بالإضافة إلى تمكنه من العلوم الشرعية فهما وتلقينا، وثالث درس مدة طويلة بقرية الزاوية القديمة بـ"أوفوس" يدعى على وجه الشهرة بالعايش، وهو مزاول لتدريس العلم الشرعي وتحفيظ القرآن الكريم بشكل يومي وبتفرغ تام لهذه المهمة.

إن القصد من هذه التفصيلات هو بيان أن كثيرا من طلاب المدرسة العتيقة بتامسلمت وشيوخها رحل إلى تافيلالت وأخذ عن العلماء المذكورين وعمن كان قبلهم.

ويعتبر سيدي محمد أوحماد أكجيم من الشيوخ المعمرين وحفاظ تامسلمت الذين تلقوا دراستهم بتافيلالت وأتموا بها إتقانهم لقواعد التلاوة، وقد كان ذلك في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين، فهو من المشهود لهم بالكفاءة البالغة في الحفظ والضبط والتميز، وهذا ما أهله في قبليته تامسلمت إلى أن يتولى اختبار الحفاظ الراغبين في الانضمام إلى مجموعة الحفظة لسنين طويلة.

و تتواصل الرحلات ويتعدد أصحابها في القديم والحديث، وهكذا إلى أن شملت معظم المناطق المشهورة في المغرب بالعلم والتدريس، فقصد بعض الطلاب مدارس عتيقة في فكيك ووجدة وطنجة وبني ملال ومسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء... إلخ، حيث سيتمكن بعض منهم من نيل درجة العالمية في التعليم العتيق حسب النظام المعمول به بعد صدور القانون المنظم للتعليم الشرعي بالمغرب، وبالموازاة تابع ثلة منهم دراساته الجامعية إلى أن حصل على شهادة الإجازة، ثم طفقوا في مواصلة تحصيليهم الأكاديمي المتخصص في سلك الدراسات العليا، كما بلغ الحرص أوجه على استكمال مسيرة المعرفة خارج مدرسة تامسلمت عندما أخذ أفراد منهم زمام المبادرة ليرحل إلى أرض الحجاز ويعب من معين علمائها ومحدثيها، وكل هذا كان له أثر عظيم في تنويع الروافد العلمية واستكثارها لحفاظ تامسلمت و مدرستها.

تجدر الإماءة إلى أنه في الأعوام الأخيرة قام الدكتور مصطفى بن حمزة بزيارة خاصة إلى مدرسة تامسلمت، إذ كان لهذه الزيارة نتائج إيجابية على واقع المدرسة وآفاقها، فقدوم الدكتور مصطفى بن حمزة في حد ذاته يعد حدثا تاريخيا في مسار هذه المؤسسة، فمكانة الرجل في العلم ونشر المعرفة الشرعية في المنطقة الشرقية من المغرب لا تحتاج إلى أي بيان أو استيضاح، بل إن ذلك منطبق تمام الانطباق على شهرته في المغرب وخارجه، وفي تلك الزيارة اعتراف من فضيلته بدور المدرسة وسمو ما راكمته من المنجزات وما لبته من الحاجات، وللتأكيد فإن عدة طلاب من تامسلمت تتلمذوا بطريقة مباشرة للشيخ مصطفى بن حمزة منذ منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، وهم يستحضرون له فضل المشيخة ويعترفون له بجميل الرعاية وحفاوة المقام بمدرسة البعث الإسلامي بمدينة وجدة.

9. تأثير المدرسة في أعرافها القبيلة:

لم يقتصر الأثر التربوي لمدرسة تامسلمت على تلاميذها والوافدين عليها فقط، ولكنه عم سلوك أفراد القبيلة وبيوتها قاطبة، فكل من له أدنى اطلاع على عادات القبيلة وأنماط تفاعلها الاجتماعي ينتهي إلى أن هناك حضورا قويا للتربية الدينية التي تنتجها المدرسة العتيقة هناك، وليس معنى ذلك أن المدرسة وحدها هي التي تنشئ المنظور الديني وترسخه، فإلى جانبها توجد مؤسسة الأسرة والجامع... إلخ، غير أن الواضح في قرية تامسلمت أن التعليم الشرعي فيها كانت له امتدادات سلوكية بارزة، ولتقديم أمثلة على هذا الاستنتاج نقتبس هذه النماذج:

❖ الوجود المتجلي للتعبير الديني في اللغة اليومية المتداولة بين الأفراد، فللمعجم الشرعي وحمولته الدلالية على التمثل الإيماني للإنسان والكون والمصير ذيوع ملحوظ في الأحاديث المتبادلة بين جميع مكونات القبيلة.

❖ مداومة الزوجات في تامسلمت على التفرغ لزيارة عائلاتهن يوميا بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، حيث تكون كل زوجة في هذه المدة من الزمان متحررة من واجبات منزل زوجها ويحق لها أن تذهب إلى منزل عائلتها لتجالس أبويها وإخوانها؛ لأن ذلك من الأعراف التي يذعن لها كل متزوج من أبناء القبيلة، والغالب الذي يكاد يكون قاعدة عامة هو أن الزواج في تامسلمت لا يتجاوز حدودها إلا ما جاء استثناء.

❖ إتاحة إمكان التعلم في الجامع والمدرسة للفتاة إسوة بأخيها الذكر، فحق تعلم الأنثى اعتبر دائما في تامسلمت أمرا لا يقبل التجني عليه بالحرمان، وبفضل هذا تمكنت نساء القبيلة من حفظ أجزاء قرآنية كثيرة، كما استطعن في معظمهن تجاوز آفة الجهل والأمية.

❖ تمكين المرأة من نصيبها الشرعي من الميراث إلى جانب أخيها الرجل؛ لأن بعض القرى والأرياف المغربية شهدت عادة سيئة خلال الاستعمار وقبله وهي حرمان النساء من التوريث في العقار، حيث يرثن في المنقولات فقط، اعتقادا من أبناء القبائل وأعيانها في أن التوريث في العقار بالنسبة للنساء يمكن بعض الأزواج الغرباء من مقاسمة القبيلة بساتينها وضيعاتها وجدران منازلها، فكان الحل في نظرهم أن ترث المرأة في ما يسعها حيازته ونقله إلى قبيلة زوجها، ثم أن تحرم من كل ما لا يكون قابلا للتحويل والذهاب به إلى مكان آخر، والغريب أن هذا القرار العرفي الظالم وغير الشرعي طبق على جميع النسوة دون أي استثناء أو تمييز بين المتزوجة في قبيلتها والمتزوجة في غيرها، بل حتى غير المتزوجة أصلا لم يراع لها أي استثناء، وهو في كل أحواله وصوره جائر وليس له أي مبرر ديني أو أخلاقي. وقبيلة تامسلمت كانت في منأى عن هذا السلوك العرفي المقيت، وربما يعد تمكين المرأة من نصيبها الشرعي في الميراث من الأسباب التي جعلت أبناء القبيلة لا يتزوجون إلا من بناتها، إذ يجنبون أنفسهم تقسيم الأراضي المملوكة لهم مع الغرباء على جماعتهم، وفي الوقت ذاته يمنحون المرأة فيهم حقها الشرعي في الملكية بكل أنواعها، وللبيان فإن استعمال وصف "الغريب" هنا إنما هو بمقتضى وسم الواقع العرفي وتشخيصه كما هو عليه حاله، وإلا فإن هذه النعوت والفواصل العنصرية يتأبى عنها الفكر الإنساني الأصيل، بالإضافة إلى أن النظر الديني الصحيح لا يقرها.

❖ عدم الحداد على الميت أكثر من ثلاثة أيام، فالمعروف لدى القبائل المجاورة هو الحداد الشديد على موتاهم لشهور وربما لأعوام، وأهل تامسلمت يقتصرون على ثلاثة أيام فقط، وبعد ذلك يحق لكل واحد أن يبدي ما رغب فيه من أنواع الفرح والسرور التي تدعو إليها المناسبات العامة أو الخاصة، ولن يُنظر إلى ذلك من طرف عائلة المتوفى على أنه بهجة بمصابها أبدا، إنما هو شأن يتناوب على تحمله كل أعضاء مجموعة القبيلة، وتستثنى من مدة الأيام الثلاثة زوجة المتوفى، إذتلزم الزوجة بارتداء ثياب بيضاء طيلة المدة المحددة شرعا في أربعة أشهر وعشرة أيام لغير الحامل، كما أنها لا تخرج من بيتها في مدتها تلك إلا لضرورة قصوى.

❖ قيام بعض أفراد قبيلة تامسلمت قديما بأداء فريضة الحج سيرا على الأقدام ، إذ يستوجب منهم الحج سيرا على الأقدام أن يفارقوا أهلهم وذويهم لما يزيد على عامين ، فالذهاب يستغرق عاما والإياب يستغرق مثله ، فذاكرة القبيلة لا تزال تحتفظ بأسماء بعضهم ، منهم رجل يدعى الحاج أوراغ ، والراجح هو أنه مات في الخمسينيات من القرن العشرين ، فقد أدى فريضة الحج سيرا على قدميه من تامسلمت وإليها ، ويذكر بعض من أدركه من الأحياء المعمرين أنه ظل بعد حجه متبتلا زاهدا ومعتنيا بإصلاح الممرات والمسالك التي تربط بين القرى ، ثم إنه لم يقدم على الزواج لاعتقاده أنه سيشغله عن حياة التعبد والتقرب بالطاعات وفعل الخيرات ، ويقولون إن أخته الوحيدة نهجت نهجه هي الأخرى إلى أن أدركتهما الوفاة في يوم واحد ، والمهم في قصته أنه ممن تحمل شعثاء السفر ومكابدة المسير إلى أرض الحجاز بدافع التربية الدينية القوية التي تلقاها في قريته وبتأثير أكيد من مدرستها ، وهناك شخص آخر في تامسلمت حج أيضا سيرا على قديمه ، ويسمى في قبيلته بالحاج "أوبقروي" ، وهو لا يزال على قيد الحياة .

هؤلاء الذين سافروا إلى أرض الحجاز لأداء فريضة الحج ممن علمت أسماؤهم وأزمانهم أو ممن لم تعلم لطول العهد بها ، ربما يكونون مصدر مقولة شاعت في تامسلمت وما يحيط بها من القرى إلى عهد قريب ، وهي أن ثلة من الموسومين بالتنسك يقولون لعامة الناس: اعبدوا الله وأخلصوا الطاعة قبل أن تبلغ أرضكم كتب مصر والحجاز ، وهي مقول غريبة في حقيقة الأمر؛ لأن الإسلام الذين يدينون به جاء من أرض الحجاز ، فهناك كان نزول الوحي الإسلامي ، ثم إن الكتب الفقهية المالكية التي يعتمدها شيوخ وطلاب مدرسة تامسلمت في معظمها من تأليف علماء مصريين ، فلماذا الاعتقاد أن العبادة الحقيقية ستدوم إلى حين وصول كتب مصر والحجاز التي ستقوض دعائمها وتنقض جوهرها؟ .

لن نستطيع فك لغز تلك المقولة ما لم نحدد سياقها الزماني والتاريخي أولا ، فهي شهدت ذيوعها في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وذلك بالنظر إلى أعمار معظم من اشتهر بإشاعتها والاطمئنان إليها ، وهذه المرحلة التاريخية بالذات هي التي عرفت قيام وامتداد ما سينعت فيما بعد بالدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز وما يحاذيه من الأقطار كمصر واليمن ، فدعوته الإصلاحية أعلنت حربا لا هوادة فيها على الممارسات الصوفية المبنية على التبرك بالشيوخ والتمسح بهم ، وكذلك على كل الأفعال التعبدية التي لا يسندها دليل صحيح من مصادر الإسلام ، وعندما كان أولئك الأشخاص يرحلون إلى المشرق للحج يجدون أمامهم أنصار دعوة الشيخ محمد بن بعد الوهاب ومؤيديها ، فأدركوا أن الأمر لا محالة قادم في يوم من الأيام إلى أرض المغرب ، وهو كما يؤكد تاريخه بلد معروف بالتصوف وكثرة الأضرحة ، وما من شك في أن المدرسة العتيقة بتامسلمت والمخيال الجماعي للقبيلة احتضن جملة من التعاليم التربوية المتصوفة وتشبع بها ، إلى حد أنهم يروجون مقولة صوفية مشهورة على نطاق واسع ، وهي أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه ، بناء على

هذا كله، فإن التخوف من كتب الحجاز ومصر هو تخوف من دعوة معينة، وأن من أشاع ذلك أول مرة هم الحجاج الذين واجهوا إصلاح الشيخ محمد بن عبد الوهاب في موطنه في غالب الظن.

❖ خضوع قسمة مياه العين الجارية بتامسلمت لنظام يضاهي قسمة الحزب القرآني من حيث عدد الأجزاء، فهم يعبرون عن الحصص المائية بالثمن والربع والنصف...إلخ، بل إنهم يستعملون مصطلح "تخروبت" في تحديد الحصة المائية الأقل والأصغر بالمقارنة مع باقي الحصص، و"تخروبت" لفظ أمازيغي يستعمله الحفاظ في المدرسة بالأساس، ومعناه الجزء المطلوب حفظه على اللوح الخشبي الذي يعادل نصف الثمن؛ لأن المعروف أن الحزب القرآني يتكون من ثمانية أجزاء، أو ما يسمى بالأثمان، والغالب أن يلزم الطالب بحفظ ثمن منه كل يوم، وعندما تقل نباهته يرخص له المدرر بالاكتفاء بحفظ نصف الثمن فقط، يضاف إلى هذا أن المدرر نفسه هو من يتولى تحديد الحصص المائية وضبطها بشكل يومي، إذ يتوجه إليه أفراد من القبيلة في الجامع أو في منزله لتذكيرهم بموعد حصة كل واحد منهم بالمقادير المملوكة لكل واحد منهم.

❖ تسييد الحفاظ وتبجيلهم، فلا يدعى في تامسلمت حافظ القرآن باسمه الشخصي دون مصاحبته بلفظ "سيدي"، فهم يرددون عبارة مفادها أن التسييد يكون بالنسب أو بالحفظ، وينطقون بها هكذا "سيدي من جدو أو من صدرو"؛ أي سيدي لنسبه أو من محفوظه في الصدر، ولهذا ذكرت اسم غير واحد من شيوخ تامسلمت في هذه الدراسة مصحوبا بلفظ "سيدي"؛ وذلك جريا على ما يسميه النحاة وعلماء اللغة بأسلوب الحكاية، فأنا أسطر الأسماء والألقاب كما يتم تداولها هنا في القبيلة.

❖ قراءة سورة الكهف كل ليلة جمعة بعد قراءة الحزب الراتب، وهذا من الواجبات المتعينة على مجموعة الحفاظ، وتكون قراءة سورة الكهف جماعة على شاكلة قراءة الحزب الراتب، ولا يسمح لأحد من الحفاظ بالتخلف عن ذلك، وأيضا تلاوة حزب من القرآن قبل الشروع في أداء صلاة الجمعة.

❖ الاحتفال بيوم عاشوراء باستقبال طلبة المدرسة، إذ يقوم هؤلاء بجولة تشمل كل منازل القبيلة لجمع أنواع المطعومات ولوازمها، ويقودهم التطو اف في يوم عاشوراء أحيانا إلى قصد بعض الخيام التي توجد بضواحي القرية، والغاية هي جمع أوفر قدر من المطعومات والعودة بها إلى مدرر المدرسة، وجزاؤهم هو إقامة مأدبة شهية لهم في منزل المدرر، فهذه العادة تعد خصلة تضامنية ومصدرا من المصادر المتعددة لتوفير التموين للمدرس وطلبته، كما تعد مظهرا من مظاهر الطقوس الاحتفالية الروحية والديني.

❖ احتفاظ جامع تامسلمت وبعض الأسر فيها بمصاحف مكتوبة بخط اليد المغربي الأصيل، وكذلك بعض المخطوطات لقصائد المديح الديني، إلا أنه لا يعلم شيء عن مصدر تلك المصاحف

المخطوطة أو القصائد وكيفية وصولها إلى القرية، وحتى المخطوطات ذاتها لا تتضمن أي معلومات أو إشارات إلى كاتبيها أو تاريخ كتابتها أو مكانه، بل هي متداولة في الجامع ويتم انتقالها من جيل إلى آخر دون أي تعريف بها ولو بطريقة شفوية، وتعتبر من أوقاف الجامع والمدرسة التي لا يجوز المساس بها إن كانت في الجامع، أو من أسرار العائلة ونفائسها التي لا يطلع عليها غيرها إن كانت مملوكة لعائلة ما وبحوزتها.

❖ مناهضة أهل تامسلمت للمستعمر الفرنسي بشتى الطرق والوسائل، فما سجل في تاريخ القبيلة أن أبدت أي قبول بالمستعمر أو أقدمت على أي تعاون معه، وقد كلفها هذا الإخلاص لحرية الوطن وحماية بيضته من الأجنبي المتربص بها ثمنا باهظا بالمحاصرة والتهميش، فبالرغم من أن قبيلة تامسلمت تعد الأكثر عددا في أفرادها بالمقارنة مع نظيراتها في الضواحي، إلا أنها تعتبر الأقل ملكية لأراضي الجموع؛ لأن تلك الأراضي قسمت على القرى ورسمت حدودها على مقاس الإدارة المحلية للمستعمر الفرنسي بتالسينت، ونتيجة القسمة كانت محكومة ببواعث انتقامية واستضعافية للمستنكفين عن الخضوع؛ ولذا ما فتئت تعيش نزاعات وخلافات مع جيرانها منذ السنوات الأولى من الاستقلال، وبعض من النزاعات والخلافات ابتدأت فصولها قبل الاستقلال وطالت بعده لعقود، وسيفضي هذا إلى طغيان أحاسيس محتقنة بالتحامل المستبطن جراء الميراث الظالم من القيادة الفرنسية المحلية، ومعلوم أن تالسينت أُقيمت عليها قاعدة عسكرية للفرنسيين في العشرينيات من القرن الماضي، كما أسس فيها مقر للإدارة المحلية سنة 1921م بشكل رسمي، وذلك بعد أعمال المقاومة المشرفة التي قام بها أهلها وكان أبرزها مقتل الحاكم العسكري للمنطقة سنة 1917م الذي يعرف لدى أبناء المنطقة باسم سباكس، ونذكر هنا على وجه الخصوص العمل المكافح والمقاوم في هذه الحادثة بالذات لقبيلة آيت حدو أوبلحسن، حيث كان لهذه القبيلة تحديدا دور بطولي للغاية في الواقعة المذكورة؛ لأنهم الذين أشعلوا شرارتها بعد إهانة الحاكم الفرنسي المشار إليه لأحد أبناء قبيلتهم في السوق العمومية بعد رفضه لأداء القدر المالي الخاص بالدخول إلى السوق لسلطات الاحتلال الفرنسي، ثم إن قاتل الحاكم العسكري هو فرد ينتمي إلى قبيلتهم؛ ولذلك تعرضت قبيلة آيت حدو أوبلحسن بدوار أبيار لأشد أنواع التقتيل الجماعي والتنكيل العسكري الفرنسي بعدما جرى بشكل مباشر، حيث استنجد الفرنسيون القائمون على أمر تالسينت في الحين بالقاعدة العسكرية المدججة بكل الأسلحة بمدينة بوذنيب، وهم بدورهم استعملوا كل ما وسعهم من الأسلحة، وحتى المروحيات القتالية لم يتورعوا في اللجوء إلى بطشها ضد مواطنين عزل مدافعين عن حق وطنهم في الحرية والكرامة والاستقلال.

إن عواقب المنافحة على القيم الوطنية المخلصة لم تقف عند تضييق المجال الزراعي والرعوي فقط، ولكنه بلغ إلى درجة تغيير اسم القرية تامسلمت في الوثائق الإدارية المحررة

من طرف القيادة الفرنسية بتالسينت، حيث عوضوا لفظ "تامسلمت" بلفظ آخر أطلقوه اسما على القرية، وهو لفظ: "قيصرت عيسى"، غير أن الأهالي تمسكوا بتسميتهم الأصلية التي مرت عليها قرون تزيد على التسعة تحقيقا، وللبيان فإن لفظ تامسلمت لا يقدم له الأهالي أي تفسير يُذكر، وكل شخص معمر تسأله عن معناه لا يفيدك بشيء، ولعل توجيه هذه الكلمة من ناحية المدلول هو أنها نعت للفظ القبيلة، ومن ثمة فإن الصياغة الأصلية للعبارة بالأمازيغية هي: "تاقبيلت تامسلمت"؛ أي القبيلة المسلمة بالصياغة العربية الفصيحة، فحذف المنعوت وأقيم النعت مقامه، فصار لكثرة الاستعمال اسما للقرية، وهكذا سيصبح المتداول بين الناس "تامسلمت"، وربما يكون الداعي إلى وصف قبيلة تامسلمت بالمسلمة أنها شديدة التمسك بالإسلام، وهنا يظهر أثر المدرسة العتيقة بها، كما يمكن أن يكون السبب هو أن القرية وقبيلتها حصل لها السبق إلى اعتناق الإسلام فوسمت باسمه وبقي علما عليها، إذ إن اعتناق القرى المغربية لدعوة الإسلام لم يكن في مرحلة تاريخية واحدة.

المهم في استعراض هذه النماذج السلوكية هو إبراز مظاهر التأثر فيها بحكم الفعل التربوي الديني للمدرسة الشرعية بتامسلمت، وليست الغاية من تقديمها المصحوب بجملة من التفاصيل والشروحات هي أن تحاكم رفضا أو قبولا، أو أن تخضع لأشد قواعد التدقيق والتمحيص.

10. استنتاجات:

في مختتم هذه النبذة عن المدرسة العتيقة بتامسلمت بأعلامها ونظامها، نستخلص بعض الإفادات ونجملها في الآتي:

- عمر القرية يمتد لقرون كثيرة، والمؤكد منها يزيد على تسعة قرون حسب تأريخ وفاة صاحب الضريح الموجود بها.
- البداية الحقيقية للمدرسة العتيقة بالقرية لا يُعلم عنها شيء على وجه التفصيل، إلا أنها كانت قبل قرون بالنظر إلى الروايات الشفوية وطبقات الشيوخ الذين أُتيح لنا معرفة أسمائهم.
- المدرسة العتيقة بالقرية ظلت حضنا لأبناء القبيلة ووجهة للوافدين من القبائل الأخرى.
- كثرة الحفاظ بالقرية أدى إلى تأسيس جماعة الحفاظ وتخصيص أوقاف لها وفرض واجبات عليها.
- الرحلة في طلب العلم واستكمال المشيخة هو عادة طلاب المدرسة العتيقة بتمامسلمت عبر أجيالهم المختلفة.
- التلقين الشرعي في المدرسة كانت له امتدادات سلوكية وتربوية على عادات جماعة القرية وأعرافها.

مدارس الزوايا بتادلا وامتداداتها المحلية

ذ. عبد القادر أيت الغازي
كلية الاداب بني ملال

تزعم هذه الدراسة أن الفضل في نشر التعاليم الإسلامية واللغة العربية في المجالات الأمازيغية بمنطقة تادلا، يعود -تاريخيا- إلى الجهود التي بذلتها كثير من المراكز العلمية والمدارس التي أنشأها أرباب الزوايا بالمنطقة.

تبدو هذه الفرضية قضية مسلما بها، لما عرف عن ارتباط وظيفة التعليم والتعلم بالزوايا، لكنها تحتاج إلى إثبات وتأكيد. ومن أجل هذا تتساءل هذه الدراسة عن طبيعة العلاقة التي انتظمت بين مختلف الزوايا التي تأسست بالمنطقة ومحيطها، وقد كان محيطا هامشيا أمازيغيا في الغالب. هل حملت مشروعا لتنظيمه وتأطيره، علميا بالخصوص؟ ألم يكن تأسيسها -في جانب من جوانبه- استجابة لحاجة القبائل إلى التأطير الديني، وإلى التعليم والتعلم؟ إلى أي حد ساهم شيوخ هذه الزوايا في ترسيخ التعاليم الإسلامية، وفي التمكين للغة العربية، وتعميق معرفة الناس بشؤون دينهم، ورعاية التدريس؟ إلى أي مدى اضطلعوا بنشر هذه التعاليم في مجالات -هي في الأصل- ناطقة باللسان الأمازيغي؟

ارتبط ظهور الصوفية في منطقة تادلا بدخول الإسلام إليها وتوغله فيها وانتشاره بها، ولم يكن مرتبطا بزمان محدد ولا بمكان معين، غير أن القبائل الأمازيغبة شكلت أهم مجالات هذا الظهور. وقد قام نشاط الصوفية على أساس الدعوة والتعليم، وعلى خلفية العلم والتصوف. ومع التطور الذي عرفته تحولت من مجرد زوايا إلى مراكز علمية قائمة الذات انطلاقا من القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين/ 16 و17م.

من الزوايا المشهورة بمنطقة تادلا:الزاوية الدلائية، وحنصالة، وتامجت (تامجوت-تامدجوت)، وتانغملت، وأكرض، والصومعة، وفشتالة، وأزرارإك، وزاويتي الأمهاوشيين والشرقاويين، وزوايا منسوبة إلى الشيوخ محمد بن مبارك الزعري بتستاوت، وأبي يعزى يلنور بتاغيا، وعبد الحق القيرواني بتعزيت، وأبي عثمان سعيد الهشتوكي بوويزغت، وأحمد بن البكري بمزكار...، وقد كان لها أدوارا كبيرة في نشر الثقافة الإسلامية، والتمكين للغة العربية، وتحقيق التعايش بينها وبين اللغة الأمازيغية، وذلك بالرغم من تحديات وإكراهات ظرفية وتاريخية.

نحاول في هذه الدراسة أن نتتبع مسار المدارس العتيقة التابعة لهذه الزوايا وامتداداتها المحلية وتطوراتها، فنفصل القول -بما يتيحه المقام- في قضايا مرتبطة بأدوارها العلمية والتعليمية، علنا نلتمس عناصر الجواب على أسئلتنا المطروحة.

أما القضايا التي سنطرحها للنقاش والحوار، فتلخصها محاور هذه الدراسة، وهي كالآتي:

المحور الأول: الصوفية والمجال الأمازيغي بمنطقة تادلا: موقع مركزي في مجال هامشي.

المحور الثاني: الخلفية التعليمية /التعلمية... ومناط التأسيس.

المحور الثالث: من دُور دينية إلى مراكز علمية ونهضة الزوايا العلمية ببلاد تادلا.

المحور الرابع: دور المدارس في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية.

المحور الخامس: دور القبائل في احتضان الزوايا.

I. الصوفية والمجال الأمازيغي بمنطقة تادلا: موقع مركزي في مجال هامشي:

كانت منطقة تادلا عشية وصول الإسلام إليها، مقسمة بين ثلاث مجموعات قبلية أمازيغية: زناتة في الشمال، وصنهاجة في الأراضي الوسطى الجبلية، وهسكورة المصمودية جنوب واد العبيد. تركز الاستقرار بها أساسا "بالمعاقل والجبال والحصون المنيعة"[1]، التي لم يكن من السهل اختراقها أو الوصول إليها. أما عقائد الناس ودياناتهم فمتنوعة ومتعددة، مقسمة بين النصرانية واليهودية والمجوسية[2]. وعندما مر منها عقبة بن نافع الفهري[3]، طلب من

(1) علي، بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، ص 20. مولاي عبد الرحمان، بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، مطابع «إديال» الدار البيضاء، 1990، ج 2 ص 5. أحمد بن خالد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج 2، ص 21.

(2) الإشارات المصدرية القليلة المتوفرة في هذا الموضوع تشير إلى استمرار هذه الديانات والعقائد حتى بعد مرور الفاتحين العرب الأوائل (عقبة بن نافع) بالمنطقة إلى عهد المولى إدريس الأول على الأقل. أنظر نماذج من هذه الإشارات عند كل من:

- أبو علي صالح بن أبي صالح، عبد الحليم الايلاني المصمودي (ت: 726هـ/ 1325م)، **كتاب الأنساب**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم: 1275ك، ص 26.
- ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، ص 20.
- ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 2: ص 4-5.
- أحمد بن خالد، الناصري، **الإستقصا**، ج 1، ص 156.

(3) وذلك إبان حملته الثانية على المغرب عام 62هـ/860م. أنظر بخصوص ذلك بن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس وإفريقيا والمغرب**، تحقيق س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت، 1967، ج:1، ص 27 - 28. الايلاني، **كتاب الأنساب**، ص 26.

سكانها الدخول في الإسلام، "فدخلوا فيه من غير قتال بينه وبينهم"[4]، غير أنه لم يكن دخولا تاما على ما يبدو. وهكذا فإن العقيدة الجديدة لم تتعمق كثيرا في نفوس الساكنة، إذ لما تمت مبايعة المولى إدريس الأول في عام 172هـ/789م بفاس، توجه شخصيا إلى المنطقة، "ووجد أن أكثر هذه البلاد على دين النصرانية ودين اليهودية -ويضيف مؤرخ آخر[5] المجوسية- والإسلام بها قليل"[6].

رغم الجهود التي بذلها المولى إدريس الأكبر لأسلمة المنطقة، حيث "أسلم جميعهم -السكان- على يديه"[7]، ورغم المجهودات التي بذلها المرابطون والموحدون في هذا الاتجاه، فإن إسلام المنطقة ظل متعثرا وهشا، وربما وصل الأمر ببعض السكان والقبائل إلى الارتداد أو التقلب بين اتجاهات وتيارات ومذاهب إسلامية مختلفة.

لعل تنوع العقائد والديانات لم يكن السبب الوحيد في تعثر الإسلام بالمنطقة، بل هنالك عوامل أخرى ذات أبعاد مختلفة، لها أهميتها في تفسير ذلك، منها صعوبة الوصول إلى بعض هذه المناطق، كما يبدو من خلال المواقع الجغرافية التي استقرت بها مجموعة من القبائل، ومنها أيضا حاجز التواصل بين مختلف "الفاتحين" وساكنة المنطقة، إذ أن اللسان الذي تنطق به المنطقة أمازيغي "أعجمي" غير عربي. ومنذ البدء كانت الحاجة ملحة إلى دعاة ومعلمين ومربين ناطقين بلسان الساكنة، ويتوفرون على قدرات للتواصل والتأطير والتعبئة.

ولقد وجدت المنطقة -كما هو حال مناطق أخرى- ضالتها في زهادها وصوفيتها. ومنذ وقت مبكر[8]، ظهرت آثارهم على أرض تادلا، حيث تكتف بها نشاطهم حتى صارت تادلا "دار صلاح وولاية... مباركة المحافل والأمكنة مشهورة بذلك..."[9]. واستطاع بعضهم أن يحقق شهرة كبيرة؛ فقد كان الشيخ أبو يعزى يلنور، -على سبيل المثال- "قطب عصره وأعجوبة دهره"[10]، وأحد أقطاب التصوف المغربي في القرن السادس الهجري/12م[11].

---

(4) الإيلاني، **كتاب الأنساب**، ص 26.

(5) ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج: 2: ص 4.

(6) ابن ابي زرع، الأنيس المطرب، ص 20. الناصري، **الإستقصا**، ج:1، ص 156.

(7) ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب**، ص 20. ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج: 2، ص 5. الناصري، **الإستقصا**، ج: 2، ص 21.

(8) منذ القرن الخامس الهجري على الأقل.

(9) محمد بن عبد الكريم، العبدوني، **يتيمة العقود الوسطى في مناقب أبي عبد الله محمد المعطي ومناقب أبيه سيدي محمد الصالح**، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم:283ك، ص 103.

(10) ابن الزيات، التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1984، ص 214.

(11) حول مكانته وشهرته أنظر: أحمد الصومعي، **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب بأكادير، 1996. أبو العباس أحمد العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)**، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط- مكتبة خدمة الكتاب، الطبعة الأولى، 1998.

ولم يكن بإمكان الشيخ يلنور ولا غيره أن يبلغوا ما بلغوه من مكانة وشهرة، لولا توفرهم على إمكانات ومؤهلات جعلتهم يتجاوزون ما اعترض إسلام المنطقة من عقبات وصعوبات وعراقيل. ويظهر من خلال من حظي منهم بالترجمة[12]، جمع بعضهم ما بين التصوف والعلم، غير أن أمية بعضهم الآخر لم تحل دون تحقيقهم نفوذا روحيا قويا. كما أن أغلبهم كان أمازيغي اللسان؛ فقد كان أبو يعزى يلنور[13] المذكور، "أعجميا" يجهل العربية ولا يتكلم إلا الأمازيغية، ويحتاج دوما إلى مترجم للتواصل مع زواره من غير الأمازيغ[14].

لعل هذه المؤهلات، هي التي ساعدت الصوفية على تحقيق نجاح كبير في اختراق مناطق صعبة ومعزولة وهامشية، والتغلغل فيها لتحتلوا بها مواقع مركزية تربية وتأطيرا. وستتعزز هذه المواقع أكثر عندما تخطى التصوف مرحلة الزهد والصلاح والتصوف الفردي والرباطات إلى مرحلة تشكيل مؤسسات الزوايا. أغلب هذه الزوايا ارتكز بمنطقة تادلا في المجالات الناطقة باللسان الأمازيغي، سواء في الجبل أو الدير أو السهل، دون أن يعني ذلك أن التصوف مرتبط بالعنصر الأمازيغي، فهو يشمل أيضا العنصر العربي الطارئ على المنطقة، حديث العهد بالاستقرار بها.

II. الخلفية التعليمية/التعلمية ومناط التأسيس:

كان لزوايا كثيرة امتداداً في مجالات أمازيغية بمنطقة تادلا، وأغلبها بدأت بسيطة في بيت أو مسجد صغير، ثم اتسعت مبانيها إلى أن صار بعضها عبارة عن مراكز دينية وعلمية. ولعل أهم ما كان يحرص عليه أربابها هو تشييد مدارس تعليمية وتربوية، تكون تابعة لمؤسساتهم الدينية الأصلية، وغالبا ما يرتبط بالزاوية وجود مدرسة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب وحفظ القرآن الكريم، ولتلقين الطلاب العلوم الدينية، مما ينم على أن الأدوار العلمية والتربوية لا تقل أهمية عن الأدوار الأخرى التي نيطت بها دينيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، بل إن الدور العلمي والتربوي يعد من أهم دعائم التأسيس ومناطه. ويتأكد هذا الأمر من خلال كون الوظيفة التعليمية تعد من الوظائف التأسيسية للكثير منها،

---

(12) ترجم بن الزيات لعدد غير قليل منهم في كتابه الموسوم: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، مصدر سابق.

(13) يوضح أحمد التوفيق دلالات هذا الاسم بقوله: «أما الياء في أول يعزى فتحها كسر أصلا لأنها لتخفيف همزة تحتها كسر في إعزا/ إعزى، وهو العزيز. فأبو يعزى هو أبو العزيز، كنيته اجتهد فيها معاصروه وأضافوا لاسمه الذي هو يلنور، أي «إلا النور»، ومعناه أبو النور أو ذو النور أو النوري». أنظر أحمد التوفيق، **التشوف إلى رجال التصوف**، ص 213، هامش رقم: 475. **التاريخ وأدب المناقب** من خلال مناقب أبي يعزى، ضمن أعمال ندوة التاريخ وأدب المناقب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الرباط- عكاظ، 1989، ص 85.

(14) علي الجاوي، مقدمة تحقيق كتاب «**المعزى**»، ص34.

حيث مارسها شيوخها المؤسسون، كما حرص خلفاؤهم على الاستمرار في أداء الرسالة العلمية لزوايا آبائهم وأجدادهم.

1. مؤسسون معلمون:

لا شك أن الغرض الرئيس لمؤسسي الزوايا بالمنطقة كان صوفيا محضا، يرمي إلى هداية الناس وتهذيب أخلاقهم، لكن نشاط هذه الزوايا تطور إلى ميادين التدريس والعلم والفكر أولا، ثم إلى المجتمع والاقتصاد والسياسة وغيرها ثانيا. وكثيرا ما كانت الأدوار العلمية هي الباعث على شهرة بعضها بعدما حظي التعليم والتدريس عندها بمنزلة عالية تماثل مجاهدة النفس.

تؤكد الروايات المتداولة حول تأسيس زاوية أحنصال بأن مؤسسها الأول الشيخ أحنصال دادا سعيد أوسعيد الكبير، كان تلميذا لأبي محمد صالح دفين آسفي، وتقول إن نبوغ الأول ظهر مبكرا[15]، مما جعل الثاني -أي شيخه- يكلفه بالقيام بمهمة بعدما استكمل تعليمه[16]. وتضيف هذه الرواية بأن الشيخ أعطى لتلميذه قلما[17] ومنجلا وعودا. ولعل هذا الأمر ليس غريبا لما عرف عن هذا الشيخ من تحريض أتباعه على الرحلة والسياحة، إما من أجل أداء فريضة الحج، وإما لنشر العلم والصلاح في بعض جهات المغرب[18].

وعند نزول أحنصال بموضوع تاغيا نايت تاكلا، أو أنه حل ضيفا على أيت واستر، عمل على تنفيذ تعليمات شيخه، حيث تأسست زاويته منذ البداية على العلم والتصوف. وهناك وثيقة مهمة من وثائق زاوية أسكار تلخص الدعائم الأساسية التي قامت عليها زاوية أحنصال، مما جاء فيها: "...نذكرو (نذكر) سلسلة الولي الصالح الزاهد الكريم المجاهد في الدين والدنيا والآخرة، الغني المنفق ماله على المساكين والضعفاء والمدرسة والعلم والقرآن، يأمر بالمعروف وينهى قبائل المسلمين عن المنكر، ويأمر بطاعة الله وطريق جده صلى الله عليه وسلم... ويطعم المسكين والضعفاء والطلباء والعلماء..."[19]، فهي تحيلنا على المدرسة والدين والعلم والقرآن والطلاب والعلماء.

---

(15) الرواية/ المنقبة المحلية تقول بأن لفظ أحنصال هو تحريف لأحصال، بمعنى حصال، أي كثير الحفظ والتحصيل، المشتق من فعل حصل.

(16) Drague, **Esquisse d'histoire religieuse du Maroc**, p161 .

(17) القلم رمز العلم.

(18) أحمد بن إبراهيم، الماجري، **المنهاج الواضح**، ص 1352، نقلا عن أحمد عمالك، مادة «أحنصال»، **معلمة المغرب**، ج:1 ص 183 .

(19) من وثائق زاوية أسكار، نقلا عن سليمان رقاس، **الزاوية الحنصالية: مساهمة في دراسة دورها الديني والسياسي والاجتماعي**، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب بمراكش، 1999، ص 188.

أما في زاوية سيدي عبد الله بأيت خليفت، فنجد أن شيخها المؤسس الشيخ عبد الله الخليفي تصدر شخصيا لتحفيظ القرآن الكريم، وتدريس بعض المتون في ميادين الفقه والحديث واللغة. ويذكر ابنه محمد أن أباه "عقد مجالس للفقه والحديث، وانتفع به خلق كثير، وتخرج به طلبة عديدون"[20]، ما يدل على أن هذه الزاوية تأسست أيضا على العلم.

وكان تأسيس الزاوية الدلائية بإشارة من الشيخ أبي عمر القسطلي إلى تلميذه وشيخ الزاوية المؤسس أبي بكر بن محمد بن سعيد الدلائي[21]. ولم تكن وصيته له هي نشر الطريقة والإطعام فقط، بل وصاه على نشر العلم أيضا، وهذا ما سيعمل التلميذ على تنفيذه، إذ عني بالعلم والعلماء عنايته بالتصوف والمريدين. لقد كانت منطلقاته في التأسيس دينية وعلمية واجتماعية بالأساس، وكان هو وابنه شغوفين بعلم الظاهر مثل شغفهما بعلم الباطن، والزاوية التي اعتبرت مركزا دينيا صارت أيضا مركزا علميا مرموقا ومقصودا من كل جهات البلاد[22].

هكذا، وبعد أن أسس الشيخ أبو بكر زاويته في الدلاء، اجتهد في تكثير العمارة من حولها، فبنى الدور والدكاكين وسائر المرافق الضرورية، وحبس الرباع على الطلاب والمساكين حتى صارت من أحسن المدن وأكثرها سكانا وأشهرها ذكرا، يقصدها الناس من مختلف الجهات ويلتقي فيها العلماء والطلاب الوافدون، فينالون من التعظيم والإكرام ما يجعلهم يرغبون في المقام بها أطول ما يمكنهم من الزمن، وتعقد المجالس العلمية في مسجد الدلاء الرحب، وتقوم سوق العلم فيه على قدم وساق[23].

وقد اهتم الشيخ أبو بكر بالغ الاهتمام بتعليم أبنائه الستة، فكان منهم من درس على العلماء الوافدين على الزاوية الدلائية، ومنهم من انتقل إلى مدينة فاس ليدرس فيها[24]. وبعد وفاة الوالد، خلفه الأبناء فساروا على نهجه، حتى بلغت الزاوية في عهدهم شأوا بعيدا في الشهرة والمجد.

---

(20) امحمد عبد الله الخليفتي، **كتاب الذرة الجليلة في مناقب الخليفة**، تحقيق أحمد عمالك، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 1986، ص 328.

(21) حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الدار البيضاء –مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية، 1988، ص 31.

(22) أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي، **مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**، تحقيق عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء– مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1999، ص 340.

(23) حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 74.

(24) **نفسه**، الصفحة نفسها.

2. خلفاء . . . مواصلون:

سار خلفاء الشيخ أبي بكر الدلائي على نفس المنهج الذي كان عليه سلفهم، وكذلك فعل كثير من خلفاء الشيوخ الآخرين بمختلف زوايا تادلا، حيث دعموا الأسس التي قامت عليها زواياهم، بل تكاثر عدد هذه الزوايا والمدارس والعلماء والخزانات، الشيء الذي يشهد عليه نموذج الزاوية الدلائية والتي قال عنها بن يعقوب الولالي أنها كانت مزدحمة بالطلاب أيام انتسابه إلى مدارسها، إلى حد كان يسكن في البيت الواحد طالبان فأكثر[25]. ومثال **زاوية تانغملت**، التي خلف فيها الشيخ المؤسس موسى البوكمازي أبناء وحفدة، بلغوا أيضا مستويات علمية كبيرة، أهلتهم لمواصلة رسالة التدريس بزاويتهم. وفي هذا الصدد يفيد كتاب **"الدرة الجليلة"** بأن الشيخ محمد بن إبراهيم (تـ 1168هـ/ 1755م)، **"كان ملما بنصيب من علوم عصره"**. ومن جملة ما حلاه به الخليفتي: "الفقيه العلامة الدراك الفهامة"، كما أشار إلى أنه "كان ملازما لتدريس العلوم وبتها... مجتهدا في التعليم... محبا للعلماء والمتعلمين"[26].

وقد عرف عن كثير من شيوخ هذه الزوايا تضلعهم في علمي الشريعة والحقيقة، وكان من بينهم من غلبت مكانته الصوفية على مكانته العلمية، والعكس صحيح أيضا، إلا أنهم كانوا جميعا مدركين بما يحتاج إليه مجالهم، خاصة في ميدان العلم والتدريس. لذلك أعطوا لهذا الميدان مكانة متميزة، وأولوه عناية خاصة، وشددوا عليه، وكان منهم من أنزله منزلة أفضل من السياحة الصوفية والتجرد، بل ويمكن القول إن وظيفة التعليم شكلت إحدى الوظائف الأساسية المؤسسة للزوايا بمنطقة تادلا.

3. الوظيفة التعليمية بزوايا تادلا:

يتضح مما سبق ذكره أن كثيرا من زوايا منطقة تادلا لم تقتصر في تشكيل مؤسساتها على وظيفة الإطعام ورعاية المحتاج وعابر السبيل، كما لم يرتبط نفوذها فقط داخل المجتمع بأدوارها الروحية باعتبارها مراكز للإرشاد وتلقين الأوراد، بل ثمة وظائف أخرى ساهمت بدورها في تقوية رصيدها الرمزي. ومن هذه الوظائف التي شكلت إحدى أهم الركائز الأساسية التي تأسست عليها وظيفة التعليم، والتي مثلت أيضا إحدى الدعامات الأساسية التي قوت سلطتها الرمزية.

إن أغلب الزوايا التي انبثقت في المنطقة هي في الأصل مدارس ومراكز للتعليم، فضلا عن كونها مستودعات مؤمنة ومحلات لإطعام الطعام وملاجئ أمان. وكان التدريس من أهم وسائل استقطاب مزيد من التلاميذ والمردين، كما كانت الدعوة إلى التعلم إحدى أدوات

(25) الولالي، **مباحث الأنوار**، ص 152.

(26) الخليفتي، **الدرة الجليلة**، ص 279. أما محمد بن إبراهيم فهو من حفدة الشيخ المؤسس.

التنافس بين مختلف الزوايا في بسط نفوذها الروحي وإشعاعها العلمي، وفي كثير من الأحيان رهنت زوايا كثيرة في استمرارها واحتفاظها بمكانتها بمدى قدرتها على توفير شروط التعليم والإقامة للمتعلمين.

هكذا حرص شيوخ الزوايا على رعاية التدريس والمدرسين بزواياهم، وحاولوا استقطاب المتعلمين من كل الآفاق، حيث إن شيخ الزاوية الدلائية المؤسس أبا بكر "قصده الناس من كل حدب وصوب، وامتلأت زاويته بوفود المريدين الراغبين في الأخذ عنه وعن ابنه محمد والانتساب إليهما"[27].

وقد قامت الزاوية، عبر المدارس التابعة لها، بتلقين مختلف العلوم النقلية والعقلية، كما ساهمت في نشر الدين الإسلامي والتعريف به، وساهمت أيضا في توفير الأطر المؤهلة والكفاءات العلمية التي تولت مهام التدريس والإفتاء والإمامة والخطابة والتوثيق والعدالة..، كما تخرج منها العديد من العلماء والفقهاء. وهذا ما يدل على أن شيوخ الزوايا وتلامذتهم المؤهلين للمشيخة، لم يتخذوا زواياهم لينعزلوا عن عامة الناس، بل ليجعلوا منها مدارس للدرس والعلم والتعلم، ومساجد للصلاة والذكر، ومقامات للوعظ والإرشاد.

III. من دور دينية إلى مراكز علمية:

قبل انبثاق مؤسسات الزوايا بمنطقة تادلا، كان "الرباط"، أداة لتصحيح العقيدة والدفاع عن الملة الإسلامية ضد كل أشكال الانحراف الديني. وباعتبار "الزاوية" شكلا متطورا للرباط، فقد تحولت العملية التعليمية التي كانت تمارس بالرباطات، إلى ممارسة تعليمية دينية محكمة أصبحت تمارس بالزوايا، الأمر الذي جعل بعضها يتحول، انطلاقا من القرن العاشر الهجري تقريبا، من مجرد مراكز دينية إلى مراكز علمية متفاوتة الأداء ومتباينة الإشعاع، لكنها في مجموعها ساهمت في نهضة علمية ودينية بالمنطقة، وسوف نخص بالحديث هنا مركز الدلاء العلمي أو الزاوية الدلائية، باعتبارها نموذجا لهذه المراكز.

1. أهم المراكز العلمية بتادلا:

• زاوية فشتالة:

توجد فشتالة (أو إيفشتالن بالأمازيغية) بين بني ملال الحالية و تاكزيرت، وتعتبر من أقدم مراكز العلم والتصوف في بلاد تادلا، حيث يعود تاريخ نشأتها إلى القرن السادس الهجري. وتميزت منذ القرن العاشر الهجري، بظهور أدباء وعلماء وشعراء كبار اقتحموا بأدبياتهم

(27) حجي، الزاوية الدلائية، ص 57.

البلاط السعدي وبسطوا نفوذهم الأدبي على الساحة الفكرية المغربية[28]، منهم محمد بن علي الفشتالي (تـ: 1021هـ)، الذي كان يعيش في بلاط السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى جانب صديقه ورفيق طفولته عبد العزيز الفشتالي[29] (تـ: 1031هـ).

زاوية الصومعة:

كانت تسمى باسم "أسردون"، وتعاقب على زعامتها، قبل الشيخ أحمد بن أبي القاسم الصومعي (تـ:1013هـ)، محمد المسناوي، والشيخ سعيد أمسناو (تـ: 943هـ)، والشيخ أبي القاسم الزمراني والد الصومعي (تـ:984هـ)، حيث كانت مركزا دينيا يؤمه طلاب العلم ومريدو الشيخ أمساو الذي كان يتكلف بإقامتهم وإطعامهم إلى انتهاء تكوينهم العلمي والديني[30].

ومنذ عهد الشيخ الصومعي، أصبحت الزاوية تعرف باسم الصومعة، كما أصبحت في القرن العاشر قاعدة بلاد تادلا[31]، وامتدادا لمركز "داي" الذي يعتبر أقدم مركز علمي بالمنطقة.

وخلال القرن المذكور أيضا، عرف مركز الصومعة إشعاعا علميا وأدبيا، حيث إن الزاوية أخذت ترسخ شهرتها ومكانتها بين الزوايا بفضل شخصية الشيخ أحمد بن أبي القاسم. ولعل من أهم عوامل إشعاعها نزوع الصومعي إلى "الهيمنة الروحية على المنطقة بالعلم والتصوف، والدعوة إلى التعلم، ونبذ الجهل والأمية"[32].

زاوية أكرض:

تأسست في مطلع القرن العاشر الهجري، ببلدة أكرض، وهي قرية كبيرة تقع غربي مدينة بني ملال، في منطقة اتصال قبيلتي بني عياط (أو أيت عياض) وأيت عتاب بدير الأطلس المتوسط الغربي[33].

(28) مصطفى عربوش، **أحمد بن أبي القاسم: شيخ زاوية الصومعة ومعه زوايا المنطقة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998، ص 33.

(29) مصطفى عربوش، **من أعلام منطقة إقليم تادلة وبني ملال**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص 306.

(30) علي الجاوي، **مقدمة تحقيقه كتاب «المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى»**، منشورات كلية الآداب بأكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1996، ص 13.

(31) محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، المحمدية، 1978، ج: 2، ص 504.

(32) عربوش، **أحمد بن أبي القاسم**، ص 58.

(33) أحمد عمالك، مادة: «أكرض»، **معلمة المغرب**، ج:2، ص 612.

وقد اقترن ازدهارها بشهرتها، لا سيما لما ظهر بها متصوف كبير هو سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي (تـ: 957هـ)، وكان شيخا مشهورا في تادله، ويعتبر من أكابر الأولياء، ويلقن الناس الأوراد، وكثر أتباعه[34].

تولى رعاية الزاوية بعد الشيخ المؤسس، حفيده الفقيه أحمد بن إدادس بن علي، "فتصدر لما كان جده يقوم به من ذكر وصلاة وأوراد، ونصح وإرشاد، وترغيب في الزهد والتصوف والصلاح، فانتفع به الناس كثيرا"[35].

زاوية أزراراك:

صاحب الزاوية هو الشيخ أحمد بن داود الشاوي[36] (ت: 957هـ)، الذي انتقل من الشاوية إلى تادلا في النصف الأول من القرن العاشر، وتحديدا إلى زاوية أكرض عند شيخها علي بن إبراهيم، الذي كلفه بخزائنه[37]، وبعد ذلك كلفه بإنشاء زاوية بأزراراك.

زاوية بجعد (الشرقاوية):

تنسب الزاوية الشرقاوية (زاوية أبي الجعد) إلى شيخها المؤسس بوعبيد (أبو عبيد الله) الشرقي العمري[38] (تـ: 930هـ) وإلى ابنه ووارث سره الشيخ أمحمد الشرقي. وقد عرفت، سواء في عهد شيخها المؤسس أو في عهد خلفائه، إشعاعا دينيا وعلميا، إذ بذل -تمثيلا لا حصرا- الشيخ محمد الصالح بن محمد المعطي (ت: 1139هـ)، جهدا جهيدا لإحياء معالمها وتعمير مجالسها وتيسير أسباب العيش والمقام والتعلم بها، حتى أصبحت الزاوية في عهده منارة علم وصلاح[39].

أما ابنه محمد المعطي بن محمد الصالح (ت: 1180)، فقد حافظ على إرث أجداده، وساهم في استمرار إشعاع الزاوية وتوسيع مجال عملها في مختلف المجالات الاجتماعية والدينية والعلمية[40].

---

(34) عثمان بن محمد بن عبد السلام، **تقييد في ترجمة سيدي علي بن إبراهيم البوزيدي (في ورقتين)**، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 1055، الورقة: 1. ابن عسكر الشفشاوني، **دوحة الناشر**، ص 91.

(35) عربوش، أحمد بن أبي القاسم، ص 34.

(36) وصفه العباس بن إبراهيم بقوله: «**الشهير الجذب، القوي الحب، عروس الفضلاء الأخيار، ونخبة المحبين من الأولياء الأبرار، شيخ من مشايخ الصوفية**»، أنظر: عباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات **من الأعلام، الرباط**، 1974، ج:5، ص 128.

(37) نفسه، نفس الصفحة.

(38) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية : دار علم ودين وصلاح، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى، 2010، ص 21.

(39) نفسه، ص 63.

(40) أحمد بوكاري، **الزاوية الشرقاوية: زاوية أبي الجعد، دورها الاجتماعي والسياسي**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1989، ج: 2، ص 109.

زاوية تمدجوت:

أسسها الشيخ علي بن عبد الرحمان الدرعي (تـ: 1091هـ) بعد تخرجه من الزاوية الدلائية وأخذه العلم بها. وقد استطاع أن يثبت نفسه في مكانة متميزة بين متصوفة المنطقة، الشيء الذي جعل الوفود تقصده بالهدايا والطعام وغيره، وقصده العلماء من البوادي والحواضر فأخذوا عنه ولازموه[41].

غير أن هذا المجد العريض، الذي حققته هذه الزاوية في وقت سريع، لم يدم طويلا بسبب تحطيمها من طرف السلطان مولاي رشيد العلوي والاستيلاء على أموالها وذخائرها وتحقير رئيسها علي بن عبد الرحمان، الذي عادت إليه هيبته ونفوذه بعد موت السلطان مولاي رشيد، فاجتهد في إعادة ازدهار الزاوية وتعميرها، وتم له ذلك[42].

هكذا -إذن- تحولت العديد من الزوايا بتادلا إلى مراكز علم ودين وصلاح، وتكاثر عددها، وتوسع مجال انتشارها بين السهل والدير والجبل، وبين القبائل العرببية والأمازيغية.

الزاوية الدلائية: مركز علمي نموذجي في وسط أمازيغي:

أسسها الشيخ أبو بكر بن محمد المعروف بحمى بن سعيد بن أحمد بن عمر الصنهاجي المجاطي المولود بالدلاء عام 943هـ. يقول محمد حجي عن تأسيسها: "لا نعرف بالضبط متى وجدت زاوية الدلاء، غير أنه يمكننا الاطمئنان إلى القول بأن تأسيسها كان في الثلث الأخير من القرن العاشر، حوالي عام 974هـ/ 1156م، أسسها أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي بإشارة من شيخه أبي عمر القسطلي"[43]. وبعده تولى شؤون الزاوية ابنه محمد بن أبي بكر (تـ: 1046هـ). وفي عهد ابنه محمد الحاج (تـ: 1082هـ) تحولت الزاوية إلى إمارة عملت على تمهيد المغرب لحكم الدلائيين، غير أن السلطان العلوي مولاي رشيد سرعان ما قضى على نفوذها وعرضها للدمار سنة 1079هـ.

وكان من أهم الأدوار التي اضطلعت بها، قبل خرابها، دورها العلمي والثقافي، حيث حققت مآثر علمية كبرى، وقد بلغت في فترة ما بعد وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي، أوج عظمتها، وغذت مساجدها ومدارسها ومكتباتها تضاهي ما كان العهد به في فاس ومراكش، خاصة وأنها كانت آمنة بموقعها المنيع وسط قبائل زيان المتفانية في خدمتها والذود عن حماها[44].

---

(41) عربوش، **أحمد بن أبي القاسم**، ص 32.

(42) **نفسه**، ص 53.

(43) محمد حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 31.

(44) محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 500.

يقول محمد حجي بأن الزاوية مرت في الميدان الثقافي بمرحلتين:

المرحلة الأولى: امتدت إلى وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي، وكانت خلالها مركزا ثقافيا بدويا لا يقوى -رغم ما أوتي من بسطة في العلم والمال- على منافسة المراكز الحضرية التقليدية.

المرحلة الثانية: مرحلة ما بعد وفاة المنصور، حيث اتجهت الأنظار إلى زاوية الدلاء الآمنة، وقصدها العلماء والطلبة من كل جهة، وقد بلغت الزاوية في هذه المرحلة أوج عظمتها، وغدت مساجدها ومدارسها ومكتباتها تضاهي ما كان العهد به في فاس ومراكش[45].

ففي ظروف الأزمة العامة التي عمت البلاد بعد وفاة السلطان، عرفت المراكز الثقافية الحضرية التقليدية التي كانت مزدهرة في عهد هذا السلطان تقهقرا وركودا وانكسفت فيها شمس المعرفة، بينما انبعثت الحياة الثقافية في جهات من البادية المغربية. وكان من ضمن هذه المراكز زاوية الدلاء التي انفردت، كمركز علمي وثقافي كبير، على مستوى البلاد كلها بالزعامة العلمية[46]. وفيه التقى الطلاب من جهات مختلفة حول مجموعة من الأساتيذ، سواء من أبنائها أو من غيرهم، وحول المتون المتداولة بين رجال العلم، وفيه تخرج وانبعث كثير من الشخصيات التي كان لها باع طويل في العلم والعبادة.

لعل أبرز المؤهلات والعوامل التي ساعدت على إنعاش الحركة العلمية وازدهار الثقافة بهذه الزاوية نذكر:

- الطمأنينة وكرم الضيافة؛ ففي كل الظروف، بما فيها أحلكها، لم ينقطع الإطعام بهذه الزاوية، وينال منه المقيمون فيها من علماء وطلبة ومريدون وعامة الفقراء، مثلما يناله الزوار الواردون وأبناء السبيل[47].
- وجود علماء أفذاذ من أبناء الزاوية أو من الطارئين؛ فقد عرفت كثيرا من العلماء الذين انتصبوا للتدريس فيها. ونجد عند المؤرخين المعاصرين للزاوية ما ينبئ عن وفرة العلماء فيها أيام ازدهارها، منهم علماء من أبنائها وتلامذتها الذين استكملوا دراستهم بها وتخرجوا فيها، ومنهم علماء وفدوا عليها من فاس ومراكش وغيرهما، وأقاموا فيها للتدريس[48].

---

(45) **نفسه**، ص 500 .

(46) **نفسه**، ص 499

(47) **نفسه**، نفس الصفحة.

(48) حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 79.

أما من أبنائها فقد نبغ عدد غير قليل من أبناء وحفدة الشيخ أبي بكر الدلائي وتخرجوا من زاويتهم علماء وأدباء وشعراء، وأقبلوا بدورهم على التدريس فيها، كمحمد بن أبي بكر "واسطة عقد الأسرة وعالمها الكبير الذي جلب لها الشهرة"[49]، وأخوه عبد الرحمان "أحد العلماء النابغين"[50]، والطيب بن محمد بن أبي بكر الذي "كان إماما كبيرا وأديبا ماهرا شهيرا، وعالما عاملا، وفاضلا كاملا"[51].

وأما من تلامذتها الذين تخرجوا ثم اشتغلوا بالتدريس فيها فهم كثر أيضا، نذكر من بينهم أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي "مفخرة المغرب وأشهر من أنجبته الزاوية الدلائية من العلماء"[52]. وقد مكث بالزاوية نحو عشرين سنة طالبا ثم أستاذا[53].

ومن أساتذة الزاوية من غير أبنائها وتلامذتها نذكر أبا العباس أحمد بن القاضي المكناسي، والحسن بن أحمد الدرعي (الدراوي)، وأحمد بن محمد الأبار المدعو حمدون، وأحمد بن عمران الفاسي، وأبا عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغيتي... الخ.

ولا شك أن الزاوية الدلائية استفادت من كفاءة كل هؤلاء الأساتذة سواء من أبنائها أو تلامذتها السابقين أو الطارئين عليها، وذلك في إغناء مجالسها العلمية، والجودة في التعليم والتدريس.

- تضلع أساتذة الزاوية في علوم عصرهم؛ إذ إن علماءها كانوا متضلعين في كافة أنواع العلوم المعروفة في عصرهم. فقد كان لمحمد بن أبي بكر الدلائي فهم خاص في الحديث والتفسير. وكان الشرقي بن أبي بكر عالم القراءات والتجويد. وظهرت براعة الطيب بن المسناوي في الفقه والأدب.
- الآفاق المفتوحة أمام المتخرجين من الزاوية؛ حيث إن كثيرا من هؤلاء شغلوا وظائف علمية مهمة وصاروا شيوخ علم بمناطق أخرى كفاس ومكناس وغيرهما..، كالأخوين العكاريين محمد وعلي، وأبو العباس أحمد بن عبد القادر القادري الحسني، وأبو عبد الله محمد بن مسعود المراكشي... الخ.

ولا شك أن اشتغال هؤلاء في مراكز أخرى ساهم بشكل كبير في إغناء التواصل الثقافي بين

---

(49) **نفسه**، ص 79-80.

(50) **نفسه**، ص 86.

(51) محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب، الطبعة الأولى، 1978، ج: 1، ص 264.

(52) حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 104.

(53) حجي، **الحركة الفكرية**، ج:2، ص 503.

مركز الدلاء والمراكز العلمية الأخرى بالبلاد.

لقد تفاعلت هذه الزوايا ومدارسها مع محيطها وتجاوبت، ولم تكن معزولة عن مجتمعها، فهي مدارس لتعليم الدين وتمتينه وتعميقه، ولترسيخ اللغة العربية. إن أكثر العلوم ازدهارا فيها هي الأدب واللغة في المقام الأول، ثم العلوم الصوفية والدينية.

IV. دور المدارس في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية:

انتشرت الزوايا بالمجالات الأمازيغية بتادلا، وكان التعليم والتدريس إحدى الخلفيات والعوامل الأساسية لذلك. ويكاد لا توجد زاوية بدون مدرسة بإزائها، بل الزاوية هي المدرسة. وتفرعت عن الزوايا الأم زوايا ومدارس فرعية ضاربة في أعماق البادية. وفي مختلف هذه المدارس التقى الطلاب حول مجموعة من الأساتيذ، بعدما استهوت أفئدة الجميع -طلابا وعلماء- وقصدوها من مناطق شتى حتى من كبريات الحواضر والمراكز الثقافية الكبرى. كما انعقدت فيها أسواق العلم، حيث إن أكثر المواد الرائجة فيها مادتي اللغة العربية والعلوم الدينية. وبرواجها ساهمت مختلف هذه المراكز في نشرهما وتركيزهما، كما عملت على تعميقهما وترسيخهما في مجالات يغلب عليها اللسان الأمازيغي. فكيف تمت ترجمة ذلك إلى واقع؟ وما هي تجليات هذا الانتشار والتركيز؟

نحاول أن نتطرق إلى ذلك من خلال ثلاث نقاط، تتناول أدوار هذه المدارس في -أولا- المحافظة على التراث العلمي والديني، وفي -ثانيا- احتضان اللغة العربية، وفي -ثالثا- المزج بين اللغتين العربية والأمازيغية والتعايش بينهما.

1. دور المدارس في المحافظة على التراث العلمي والديني:

لقد اضطلعت الزوايا ومدارسها بأدوار دينية بالغة الأهمية، تجلت في مظهرين أساسين؛ الأول هو طبيعة المواد التي كانت تقوم بتدريسها، وهي في غالبيتها مواد وعلوم دينية، والثاني هو العمل على تعميق تعاليم الدين الإسلامية، والدعوة أحيانا إلى الحفاظ على السنة ومحاربة البدع.

- **تعليم... ديني:**

كان التعليم بمدارس الزوايا تعليما غلب عليه الطابع الديني، ويظهر ذلك أساسا في اشتغالها بكل ما كان معروفا لعهدها من العلوم الدينية وبخاصة علوم القرآن، والحديث، والفقه، والسيرة، والتصوف، والتوقيت... وقد برز في كل مدرسة من مدارس المنطقة أساتذة علماء في مختلف هذه العلوم والميادين. ففي الزاوية الدلائية اشتهر الشرقي بن أبي

بكر الدلائي من بين إخوته بالتفوق في علم القراءات، وكان مختصا بتدريس هذا الفن في الزاوية[54]. وكان الشيخ محمد بن أبي بكر فارس التفسير، وله فيه سند عال[55]. وكان أخواه عبد الكريم ومحمد الخديم الدلائيان محدثين حافظين، فانكبا بدورهما على تدريس مصطلح الحديث وكتب السنة للطلبة، وتخرج على يدهما كثير منهم[56]. وكان عبد الرحمن بن أبي بكر يدرس التفسير والحديث وعلم الكلام والفقه وأصوله والنحو والتصوف[57]. أما أبو عبد الله محمد المسناوي، فلم يرجع إلى الزاوية الدلائية إلا وهو عالم بارع في الفقه والأصلين والتفسير والحديث وعلم الكلام والقراءات واللغة والنحو والأدب، فأخذ يلقن هذه العلوم لتلاميذ الزاوية[58]. واشتغل كثير من علماء الدلاء بالتوحيد والفقه وأصوله، وكانوا يقومون على تدريسها في زاويتهم مع الفنون الأخرى[59]، كما اهتم الدلائيون بدراسة المنطق والتوقيت وأتقنهما كثير من علمائهم[60].

كانت مختلف هذه العلوم تدرس أيضا في العديد من زوايا المنطقة، إذ تعدت وظيفتها التعليمية، في أحيان كثيرة، مجرد تحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية، وأولت كل العلوم اهتماما كبيرا في برامجها الدراسية.

تربية وإرشاد... دينيين:

الشيوخ الذين اشتركوا في العلم والصلاح، اشتركوا أيضا في وظيفة التربية والإرشاد الديني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفضلا عما كانوا يقومون به في ميدان تلقين الأذكار لأتباعهم ومريديهم، مما كان له -بدون شك- أثر إيجابي على الحياة الدينية بصفة عامة، فإنهم أيضا عملوا على تعميق تعاليم الدين الإسلامي، فأصبحت بعض الزوايا مراكز لتصحيح العقيدة، وحمل الناس على ممارسة شعائرهم الدينية، كما اضطلعت بتربية المجتمع القروي الذي نشأت بين ظهرانيه، وساهمت في تأطيره، أولا عن طريق تكوين الأطر التي يمكن أن تقوم بنشر وبعث قواعد الدين، وثانيا عن طريق توظيف أئمة وفقهاء، سواء ممن أخذوا تعليمهم بها، أو ممن تم استقدامهم من مناطق أخرى، وعادة ما كان بعضها تتكفل

---

(54) **حجي، الزاوية الدلائية**، ص 75.

(55) **نفسه**، نفس الصفحة.

(56) **نفسه**، ص 77.

(57) **نفسه**، ص 86.

(58) **نفسه**، ص 88.

(59) **نفسه**، ص 77.

(60) **نفسه**، ص 78.

"بشرط" الامام أو بجزء منه، وذلك بتخصيص حصة من موارد الزيارات التي تتلقاها لتغطية نفقات هذا الأخير. وبفضلها أصبح للعنصر الديني بهذه الأوساط حضور كبير انتماء وممارسة.

ذكر الخليفتي في معرض حديثه عن منطقة أيت خليفت أن موسى الناصري، كان يؤنب من ترك الصلاة[61]. وفي بادية أعالي ملوية، يذكر الولالي، بأن محمد بن يعقوب الدلائي وابنه محمد قاما بدور كبير في محاربة البدع والشوائب التي لا أساس لها، وحببا للناس هناك العلم[62]. ونفس الأمر قام به تلميذ زاويتهما الشيخ أبو علي الحسن علي التاسكدلتي الذي ما كاد يرجع إلى قريته الجبلية، بعد أخذه عن شيخه أبي بكر الدلائي وتزوده بنصائحه، حتى جد في تبديل عوائدها الرديئة المتمكنة من عامة أهل البلد، وحبب إليهم العلم بعد أن كانوا لا يكترثون به مكتفين بمجرد حفظ القرآن وتلاوته[63].

ومن الظواهر التي كانت منتشرة بالمنطقة، قيام كثير من الوعاظ والدعاة المنتسبين إلى مختلف الزوايا والمتخرجين منها بتعليم الناس أسس التوحيد وقواعد الإيمان ومبادئ الدين، التي تمكنهم من أداء الشعائر والتزام المأمورات واجتناب المنهيات. وكان هؤلاء يستندون في مخاطبة جموع الناس إلى الأمازيغية، بغية تثبيتهم في دينهم وتمكينهم من عدة فقهية مبسطة.

وكان من عادة الوعاظ والدعاة اعتماد كتب معروفة متداولة في الدعوة والوعظ، مثل مختصر الشيخ خليل والمرشد المعين لابن عاشر وشروحه، إذ كانوا يحملونها دائما ويراجعونها إذا عرضت لهم مسائل أو سئلوا عن وقائع ونوازل، حتى إن بعض الزوايا أصبحت قبلة المستفتين. وفي هذا الصدد كان لزاوية الصومعة دور ديني، "فهي قبلة الناس للاستفسار عن أمور دينهم، ومنها تصدر أوقات الآذان والصلاة، وتصدر الفتاوى فيما اختلف الناس فيه أو يجد في حياتهم من جديد، ومنها يتم إخبار الناس بيوم الصيام في رمضان، وبيوم الإفطار عند انتهاء رمضان، وفي الزاوية يتعلم الناس الأوراد والأذكار، وكيفية الوضوء والصلاة، وغيرها من الأمور مما ينتفع به الناس في دينهم ودنياهم"[64].

2. دور المدارس في احتضان اللغة العربية:

إلى جانب هيمنة الدين في مدارس الزوايا، كانت **اللغة** أيضا بارزة. فقد كانت **العربية** – في الغالب– هي لغة التدريس والتعلم، وكانت كل التآليف المدرسة باللغة العربية أيضا. ولعل

(61) الخليفتي، **الذرة الجليلة**، ص 143.

(62) الولالي، **مباحث الأنوار**، ص ص 221–222 و332.

(63) حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 58.

(64) عربوش، **أحمد بن أبي القاسم**، ص 62.

أهم نموذج نعطيه هنا هو **الزاوية الدلائية** باعتبار أن أهم فن تفوقت فيها مدارسها هو قواعد اللغة العربية التي كان لها الحظ الأوفر في حلقاتهم العلمية. وقد أجمع كل من تحدث عن الناحية العلمية لهذه الزاوية على أنها بلغت في هذا المضمار شأوا بعيدا. يقول عبد الله كنون في هذا الصدد: "إن الثقافة الأدبية واللغوية التي كانت في الناحية التي درس فيها اليوسي، أقوى منها في فاس، بل إننا نقول إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء، حيث درس اليوسي، هي التي أحيت دماء الأدب في المغرب بعد عدم..."[65].

لقد اهتم شيوخ وأساتذة الزاوية باللغة العربية وفنونها، إذ معرفة اللغة ضرورية لكل مقبل على دراسة العلوم الشرعية التي مأخذ أحكامها كلها من الكتاب والسنة، فغدت أول مادة يتلقاها طالب العلم، وأول ما يبتدئ به هو قراءة مادتي النحو والصرف، وعادة ما يكون ملزما -بتقدمه في التعليم- بحفظ وإتقان "الأمهات" في اللغة العربية مثل الأجرومية، وألفية بن مالك، ومنظومة الزواوي، ومنظومة الجمل، ولامية الأفعال والمبنيات. وكان الطالب لا يبدأ -عادة- في البحث عن العلوم وحفظ المتون، إلا إذا حفظ القرآن عن ظهر قلب. وعن طريق الأساليب البيداغوجية القائمة أساسا على الحفظ، يتعامل الطالب -الأمازيغي غالبا- مع الحرف العربي ومع مؤلفات مكتوبة بهذا الحرف، بعدما تعلم في مستوى أول بـ"الحضار" أو "المسيد" المبادئ الأولية للقراءة والكتابة.

لم تكن تعلم اللغة العربية والاحتكاك بحرفها المتعلمين والمدرسين من فهم الدين الإسلامي والاتصال المباشر بالقرآن والحديث فحسب، بل ساهم ذلك أيضا في الاعتناء المتزايد بهذه اللغة وفي السفر من أجل التعمق فيها ودراسة علوم الدين إلى مراكز العلم المشرقية في القيروان والشام والعراق والحجاز، حتى وصل بعضهم في إتقانها مستويات عالية، جعلتهم من المبرزين في معرفتها والتأليف في نحوها وقواعدها، وفي آدابها المختلفة.

ومن أشهر نحاة الدلائيين أبو العباس أحمد الحارتي بن أبي بكر الدلائي، الذي كان يداوم على إقراء كتاب سيبويه طول عمره، والشادلي بن محمد ين أبي بكر الذي كان متفرغا في دروسه لمادتي النحو واللغة[66]. ويعد محمد المرابط بن محمد بن أبي بكر الدلائي سيد قومه في هذا الباب، فهو صاحب المجالس النحوية العالية التي كان يحضرها أمثال الحسن اليوسي وأحمد بن عبد القادر القادري وغيرهما من أكابر العلماء[67].

---

(65) عبد الله كنون، **خل وبقل**، المطبعة المهدية تطوان، بدون تاريخ، ص 275 (نقلا عن حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 74-75، هامش رقم: 5).

(66) حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 78.

(67) نفسه، ص 79.

أما في البلاغة والأدب، فيكاد يكون جميع علماء الدلاء من رجال الأدب، فهم يحسنون الإنشاء والترسل ويجيدون قرض الشعر. وكان كثير منهم يلقن لطلبته دروسا أدبية في الكتب المتعارفة آنذاك مثل المقامات الحريرية والدواوين الشعرية[68].

3. التعايش بين اللغتين العربية والأمازيغية:

لم يكن الوعاظ والدعاة هم وحدهم من استعانوا باللسان المحلي واستعملوه لنشر الدين وتفقيه الناس في عقيدتهم، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، بل استعملت اللغة الأمازيغية أيضا في التدريس والترجمة والتأليف. وعلى الرغم من أن لغة التدريس بمدارس الزوايا بتادلا هي اللغة العربية، وهي نفسها لغة التأليف والكتابة في الغالب، إلا أنها لم تكن الوحيدة. لقد تعايشت معها -في كثير من الأحيان- اللغة الأمازيغية، وخاصة في مناطق لا يعرف أبناؤها غيرها، وهي تشكل مجالا لنشاط الصوفية.

لا نتوفر في الوقت الراهن، على معطيات يمكن الاستناد إليها للتدليل على مكانة اللغة الأمازيغية في مجال التدريس والتعليم، والترجمة والتأليف بتادلا[69]، إلا أننا نفترض بأن هذه اللغة استعملت في هذا المجال ووظفت على مستويين:

- أولا، على المستوى الشفاهي، إذ استعملت كوسيلة للتواصل والشرح، ولبيان مضامين دروس، ومحتويات خطب وعظ وإرشاد، إذ كان من عادة الواعظ أن يجلس مجلسه ليقرأ عادة في الكتاب العربي ويشرح بالأمازيغية بطريقة آنية وشفوية، وذلك بغرض إيصال المعرفة الدينية إلى أكبر عدد من الناس. كما أن النظام التعليمي المعتمد أفرز فئتين من المتخرجين؛ الأولى طائفة من المتعلمين الذين لم يتجاوزوا مستوى معينا من المعرفة اللغوية والشرعية، أما الثانية فهي نخبة من الفقهاء الجامعين بين معرفة اللغة العربية وعلوم الدين وبين المعرفة الدقيقة باللسان الأمازيغي. ولا يستبعد بأن الفئتان معا تمكنتا من مخاطبة أبناء مجتمعهم بلسانهم قصد نشر المعرفة الفقهية بينهم.

- ثانيا، على مستوى الكتابة، إذ استعملت في التأليف والترجمة.

---

(68) نفسه، الصفحة نفسها.

(69) عكس ما هو متوفر بخصوص مناطق أمازيغية أخرى، خاصة منطقة سوس، حيث تعتبر أكثر جهات البلاد اغتناء بالمخطوط الأمازيغي ووثائقه، وهذا ما تؤكده مجموعة من الدراسات مثل:

- عمر أفا، تاريخ المخطوط الأمازيغي المكتوب بالحرف العربي في منطقة سوس، ضمن أعمال ندوة: المخطوط الأمازيغي: أهميته ومجالاته، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004، ص ص 63-74.
- أحمد بوزيد الكنساني، التآليف الأمازيغية في سوس، مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 25، سنة 2003، ص 210.

وهناك أكثر من مبرر يجعلنا نفترض أن علماء المنطقة لجأوا إلى التدوين والتأليف باللغة الأمازيغية، ومن بينها:

- الحاجة إلى تخليد المواعظ والدروس وإيصالها لأكبر عدد من المتلقين.
- الرغبة في تقريب المعرفة الدينية للأميين الأمازيغ وتنوير الذين لا يعرفون العربية.
- تسهيل الاطلاع على هذه المؤلفات ومعرفة ما تحويه من معارف.
- توفير مستندات لأئمة ومدرسين ذوي المستوى المتواضع من المعرفة اللغوية والشرعية، يستندون إليها لنقل المعرفة السليمة البعيدة عن الخطأ في الفهم أو النقل.

ولا يستبعد –تبعا لذلك وقياسا أيضا على ما هو موجود في مناطق أخرى كسوس مثلا– أن مجال التأليف بالأمازيغية بمنطقة تادلا، شمل مترجمات منقولة عن اللغة العربية أو منظومات تعليمية وأراجيز. ونتوفر على نموذجين من هذه الأراجيز التي ما يزال بعض المسنين بالمنطقة يرددونها، وهما منظومة "المازيغي"، ومنظومة "التوحيد"[70].

جاء في مطلع منظومة «المازيغي»:

باسم الله أنبدوا كلمزغي	ما تعربت ارتوسيغ كدغار ذا كلوليغ
أتنيني إمزيغن ننغ دهدنين	ولا وذا شوانين افرو ووال دعيا
أسياغد أطلب لشتاب تبدوم ديسن	فسراتغ كل مايد الزمن يلاس

ومعناها باللغة العربية:

بسم الله نبدأ في المازيغي	لأن العربية غير ملائمة في المنطقة التي ولدت فيها
ننشدها على مسمع الغافلين من الأمازيغ	والمتيقظين منهم فيحصل المراد
خذ الكتاب أيها الفقيه واتلوا	كل ما يجب على العبد أن يلازم عليه

إن وجود مثل هذه الأراجيز واستمرار تداولها، يدل على؛

- أن نظمها موجه أساسا إلى مجتمع مسلم لا يعرف إلا اللغة الأمازيغية، قصد تسهيل سبل المعرفة لديه.
- أن مجال التأليف بالأمازيغية شمل مجال الفقه والعقائد، كما هو واضح من مضمون القصيدتين، غير أنه لا يستبعد أيضا أن يشمل مجالات أخرى كالتفسير والقرآن

(70) نود أن نشكر الطالبين الباحثين **الحسان الحنصالي وجمال تيزوضا** على حسن تعاونهما، فنحن مدينون للأول في توثيق المنظومتان، ولهما معا في ترجمتهما من اللغة الأمازيغية إلى اللغة العربية.

والحديث والتصوف والوعظ والسيرة، وكالتاريخ واللغة والجغرافيا والطب، وعلوم أخرى...، وذلك لحاجة المجتمع الأمازيغي المسلم الملحة إلى كل هذه المعارف وتعذر تحققها باللغة العربية.

- أن الأصل في هذه الأراجيز المتداولة شفاهيا أنها مكتوبة، وفي هذا الصدد لا يستبعد وجود مخطوطات تتضمن محتواها وتحوي غيرها مما ألفه وكتبه أبناء المنطقة، "وهذا الرصيد -المفترض- من المخطوطات الأمازيغية -في حالة وجودها- في حاجة إلى من ينفض الغبار عنه للتعريف به وبأهميته وتحقيقه ونشره، ووضعه رهن إشارة الباحثين المهتمين بتاريخ وحضارة الشمال الأفريقي، علما بأنه يكتنز معلومات لسنية واقتصادية واجتماعية وحضارية دفينة"[71].

لا شك أيضا بأن مدارس الزوايا بتادلا كان لها إسهام في حركة التأليف هاته، وفي حركة الترجمة بالأمازيغية الناشطة لدى الأمازيغ عامة منذ العهود الإسلامية الأولى، وذلك في مجالات شتى.

V. دور القبائل في احتضان الزوايا والمدارس:

استطاعت الصوفية أن تقتحم مناطق عديدة بتادلا بما فيها "المعاقل والجبال والحصون المنيعة"، وتداخل في مهامهم بها البعد الديني بالبعد العلمي والتعليمي، والاجتماعي والسياسي والاقتصادي...، الأمر الذي ساهم في تقوية رصيدهم ورصيد زواياهم الرمزي. ومقابل هذه المهمات، كانت القبائل تنظر إلى «إيكورامن» بنوع من التقدير، وتقدم إليهم الولاء. وتتجسد أهم مظاهر هذا الولاء في المكانة التي أصبحت تحتلها الزاوية داخل القبيلة، وفي الدعم المادي الذي تقدمه هذه لتلك، وسعيها لتوفير الامكانات والوسائل التي تساعدها على تحقيق وظائفها وأدوارها.

نحاول أن ننظر إلى مكانة الزواية في القبيلة، ودور هذه الأخيرة في احتضان الأولى ومدارسها من خلال المساعدات التي تقدمها لها لأداء دورها العلمي والتعليمي، حيث إن التزامات الزاوية من هذه الناحية كانت كبيرة. لكي توفر ظروف إقامة الطلاب والأساتيذ واستقرارهم، وكذا توفير أجواء التلقي والتفرغ للعلم والتعلم، كان لابد لها من إمكانات مادية، وموارد بشرية تساعدها على الوفاء بهذه الالتزامات، الأمر الذي جعلنا نتساءل عن مصادر التموين لهذه المدارس، وعن دور القبيلة في توفيرها، وعن علاقات الاثنتين فيما بينها؟

(71) محمد حمام، مقدمة كتاب أعمال ندوة: المخطوط الأمازيغي: أهميته ومجالاته، م س، ص 11.

تمتاز المدارس التابعة للزوايا بمنطقة تادلا باستقلالها واعتمادها على مواردها الذاتية. وكانت القبائل تخصص بعض أعشار محصولاتها الزراعية علاوة على أحباسها لتسيير هذه المدارس وتدبيرها، وصيانتها وإصلاحها، ودفع أجرة المدرسين، وتكاليف المبيث، ومصاريف الأكل والشرب واللباس، وشراء الكتب الدراسية وكرائها لنسخها. ومن أهم المداخيل التي تجسد علاقات التعاون والاحتضان بين القبيلة والزاوية ومدارسها بتادلا، نخص بالذكر الزيارات والهبات، بالإضافة إلى العقارات والخدمات، باعتبارها تشكل أهم الموارد.

1. الزيارات والهبات:

تحصل الزوايا على جزء هام من مداخيلها التي تمكنها من أداء مهامها وأدوارها ووظائفها، خاصة التعليمية منها، من الزيارات السنوية للقبائل التابعة لكل منها. ويمكن القول بان «الزيارة» تعد -بدون منازع- أهم مورد اعتمدت عليه الزوايا بتادلا لسد احتياجاتها المادية، كما تجسد النموذج المثالي للعلاقة المادية بينها وبين خدامها.

وقد جرت العادة أن يقوم شيوخ الزوايا بالاتفاق مع رؤساء القبائل وزعمائها بتحديد المقدار المفروض على كل خيمة، وغالبا ما يتم التنصيص على ذلك بعهود مكتوبة ما تزال كثير من الزوايا تحتفظ بنصوصها.

نتوفر على وثيقة عبارة عن اتفاقية طرفيها هما؛ شيخ زاوية أسكار سيدي علي احساين من جهة، وممثلي القبائل من جهة أخرى. وقد نصت الوثيقة على أن يلتزم الطرف الثاني لفائدة الطرف الأول بإعانات عينية سنويا. تقول الوثيقة: «اجتمعت القبائل في زاويته في أكدم... منهم أيت حديدو وأيت مرغاد وأيت بوزيد وأيت مصض وأيت سخمان... أنهم تحملوا وتكلفوا بزاويته كل خيمة يعطيه رأس غنم أو معز وثلاثة عابرة الشعير ويومين من السمن... أيت بوزيد... قالوا له يا سيدي نرفد[72] لك ثمن متع اللوز لكل خيمة وثمن متع البقلة متع الزيت لكل خيمة.... وأيضا يا سيدي نرفد لك ثلاث عبرات متع الزرع لكل محروث. وأما أيت مصض رفدهم كل خيمة تعطيه راس الغنم وثلاثة عبرة متع الزرع لكل خيمة. وأيت سخمان وأيت إمور لكل خيمة يعطيك رأس الغنم. وأما أيت مرغاد وأيت حديدو يا سيدي نرفدك كل خيمة يعطيك رأس الغنام ونصف عبرة متع تمر لكل خيمة وثلاثة أيام متع السمن لكل خيمة...»[73].

---

(72) بمعنى نلتزم ونحترم، والمقصود الالتزام بتقديم وإعطاء الزيارات للزاوية والتعهد بها.

(73) وثيقة خاصة من وثائق زاوية أسكار، مؤرخة بسنة 1200هـ/1785م.

وهناك وثيقة أخرى بمتابة تجديد العهد بين اتحادية أيت سخمان والشيخ الجديد لزاوية أسكار سيدي حماد بن محمد الحنصالي، وقد نصت الوثيقة على أن شيوخ القبائل التابعة للاتحادية «ألزموا أنفسهم بالقيام بشروط حرم زاوية أسكار»[74]. وشهد توقيع الاتفاق ثلاثة وستون شيخا ينتمون إلى الاتحادية، وأكدوا في محضر اجتماعهم أنهم «متوارثون في الرعاية إلى أبد الأبد فمن رفد في رعيته فإنهم يوقفونه رغما عن أنفه»[75].

وتفيد كثير من الدراسات بأن «الزيارة» للزوايا عادة ما كانت تتم في نهاية الموسم الفلاحي بشكل ومقدار منظمين. وعلى سبيل المثال ذأب العتابيون على تنظيم زيارتهم لزاوية تانغملت سنويا، وغالبا ما تتم بمجرد جمع المحاصيل السنوية، وخاصة الحبوب واللوز، حيث يقوم سكان كل فخذة أو مجموعة من الأفخاذ لجمع ما يسمونه بـ»الزيارة»، فيتبرع كل واحد بما تيسر له من حبوب أو لوز أو زيت، أو دراهم أو غنم أو ماعز أو دجاج إلى غير ذلك[76]. وتختلف قيمة كل زيارة باختلاف الفصول، وحسب الإمكانيات المتوفرة لدى كل فخذة أوشخص على حدة.

وإلى جانب الزيارات، كانت للهبة (الهبات) دورا أساسيا في توفير حاجيات الزوايا، وتقدم إما بطريقة جماعية أم فردية؛

بخصوص الهبة الجماعية، كانت بعض القبائل تهب لشيوخ الزوايا هبات عبارة عن عقارات وماء وأشجار. تشير ذات الوثيقة المشار إليها سابقا بأن قبائل أيت سخمان (جماعة سمكان) وهبت لشيخ زاوية أسكار سيدي حماد بن محمد الحنصالي «شيء من الماء، وشيء من القصر، وشيء من الأشجار بالاتفاق....»[77].

أما الهبة الفردية، فتوجد أيضا وثيقة تدل على أن أشخاصا فرادى كانوا يتطوعون ويقدمون هبات خاصة لزاوية ما. وتنص هذه الوثيقة على أن شخصا يدعى الشيخ علي بن العربي السمعدي من قبيلة بني ملال «وهب لسادتنا الفقراء المساكين أولاد سعيد (أحنصال) ما قدر عليه، في سبيل الله، حيث وهب لهم سبعة بغال وشعير ومائتين واثنتين وعشرين مثقالا من النقود، وغير ذلك»[78].

(74) **وثيقة خاصة** من وثائق زاوية أسكار، مؤرخة بسنة 1280هـ/1863م.

(75) **نفسه**.

(76) عيسى العربي، **قبيلة أيت عتاب**، ص 311.

(77) **وثيقة خاصة** من وثائق زاوية أسكار، مؤرخة بسنة 1280هـ/1863م.

(78) **وثيقة خاصة** من وثائق زاوية أسكار، مؤرخة بسنة 1127هـ/1715م.

2. العقارات والخدمات:

حازت العديد من الزوايا بتادلا ممتلكات من أرض ومياه وعقارات وأشجار مثمرة وغيرها، غالبها تكون محاطة بالزاوية أو قريبة منها، كما هو الحال بالنسبة لممتلكات زاوية تانغملت الواقعة في المشيخات التابعة لأيت واسيف (أهل الواد)، تم في المشيخات المنضوية تحت تجمع «إيقادوسن»، وكلما اتجهنا من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي لأيت عتاب[79]، وبخاصة في أسامر وأيت أنوال، وكذلك الأراضي الممتدة على ضفاف وادي أوزود.

وبنفس المنطقة (أيت عتاب)، توجد ممتلكات خاصة بالزاوية الشرقاوية رغم بعد المسافة بينهما «مثل جنان السيد بجوار تامدة بمشيخة إسمسيل على الضفة اليسرى لوادي إسيل أحد روافد وادي العبيد. كما كانت لها بعض العقارات في إيحلوان وبمزارع إيغير بمشيخة تسقي وغيرها»[80]. ويطلق على مختلف هذه الممتلكات محليا «بلاد إكرامن».

ويظهر من طرق امتلاك الزوايا لهذه الممتلكات دور القبائل في دعم مدارس الزوايا واحتضانها، إذ يمكن أن نركز على طريقتين؛

عن طريق الشراء، وهناك العديد من الوثائق عبارة عن رسومات البيع والشراء بحوزة الزوايا. وفي هذا الصدد لاحظ مصطفى عربوش من خلال رسوم البيع والاقتناء المتوافرة لدى بعض الصومعيين أن الصومعيين اكتسحوا الكثير من مناطق بني ملال والصومعة، بإقدامهم على شراء أشجارها وزياتينها وكرومها وحقولها وأرحية مائها...[81].

عن طريق التحبيس والهبة؛ فالصلة بين القبيلة والزاوية لا تتوقف عند حدود «الزيارة»، بل تتجسد الروابط بينهما على شكل هبة ووقف الكثير من العقارات والأشجار المثمرة عليها، كما رأينا ذلك في مثال علاقة أيت سخمان بزاوية أسكار. وهناك محسنين يوصون بتحبيس وقف الاستفادة من عقارات عليها بعد وفاته.

وإلى جانب ما ذكر، كانت القبائل تشارك في تدبير شؤون هذه الممتلكات والعقارات واستغلالها لصالح الزوايا. وتختلف طريقة الاستغلال هاته حسب القرب أو البعد من الزاوية. وغالبا ما كانت هذه الأخيرة تستفيد من خدمات مجانية يقوم بها بعض أبناء القبيلة على شكل «تويزة» خاصة في الحرث والحصاد، ويتم ذلك بدون عهد مكتوب أو بعهد مكتوب، ويمكن التمثيل، بهذا الخصوص، بالوثيقة المشار إليها سابقا الموقعة بين اتحادية أيت سخمان وشيخ

---

(79) عيسى العربي، **قبيلة أيت عتاب**، ص 311.

(80) **نفسه**، ص 283.

(81) مصطفى عربوش، **أحمد بن أبي القاسم**، ص 61.

زاوية أسكار، إذ تشير إلى أن القبائل «رفدوا لزاوية سيدي احماد أومحمد... يوما من الحرث يعني «تَيُوكاً»، ويوم من الحصاد يعني«تمكرا» لكل عام، وقصدوا بذلك وجه الله العظيم وتوبته، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا»[82].

هكذا نرى بأن القبائل عملت على توفير نسبة كبيرة من موارد الزوايا ومداخلها المادية. ومن جانبهم عمل الصوفية على استثمارها في تهيئة كل الظروف المعيشية وتوفير شروط الاستقرار، سواء للطلاب أو الأساتيذ، خاصة ما يتعلق بظروف الإيواء والسكن.

خـاتمـة:

ذلك -إذن- مسار بعض الزوايا بتادلا، وتلك امتداداتها المحلية، نزعم أننا أحطنا بجانب من جوانبهما مع هذا التتبع وهذه الدراسة. وبما أن إحدى خلفيات تأسيسها كانت تعليمية ودينية، فإنها عملت على تحقيق «مشاريعها» في التنظيم والتأطير والتوعية والتعليم والتعلم والتدريس، وكان لها إسهام في انتشار اللغة العربية، وفي تحقيق قدر من التعايش بينها وبين اللغة الأمازيغية، كما انبت بها ما انبت من علوم ومعارف دينية، وهو الأمر الذي يعزز فرضية العمل التي اشتغلنا عليها في هذه الدراسة ويؤكدها.

ونسجل أهم نتائج الدراسة في الخلاصات الآتية:

- كانت منطقة تادلا من أكثر المناطق المغربية انتشارا للزوايا، واشتهارا بعطائها التربوي والعلمي، حيث إن الزوايا شاركت في إرساء تقاليد نظام تعليمي ناجح، ومع رسوخها عرفت المنطقة نهضة تعليمية تجسدت أساسا في تكاثر المدارس فيها، وازدحام الطلاب بها وفي تكاثر العلماء المشتغلين بالتدريس فيها.
- إن هذه المدارس مع حملها كلها اسم المدارس، متفاوتة في سمعتها التعليمية وإشعاعها العلمي، فبعضها "بلغت في هذا المضمار شأوا بعيدا"، وكان لبعضها "شفوف إلى السنوات الأخيرة"، وبعضها "طافحت بالتدريس إلى غاية يتعجب منها السامع اليوم"[83]، إلا أن هناك ما ليست لها هذه المكانة، فهي كالابتدائية أو الإعدادية أو الثانوية.

---

(82) وثيقة خاصة من وثائق زاوية أسكار، مؤرخة بـ: 1280هـ/1863م.

(83) نستعير هذه التعابير من المختار السوسي في وصفه لمدارس سوس العتيقة لاعتقادنا بأنها أوصافا تصدق على مدارس تادلا أيضا. أنظر: محمد المختار السوسي، نهضة جزولة العلمية والدينية في اليوم أو مدارس سوس والعلماء الذين درسوا فيها، نشره رضى الله عبد الوافي المختار السوسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 123-124.

- ارتكز نشاط التعليم بالمنطقة على تعميق المعارف في العلوم الإسلامية المتداولة. وقد نجم عنها بروز طائفة من العلماء، وظهور مؤلفات في العلوم المختلفة؛ عقلية ونقلية، نظرية وتجريبية.
- شارك المتخرجون من مختلف مدارس المنطقة ومراكزها في تأطير مجتمعهم من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
- إن التعليم في المنطقة لم يكن دائما مزدهرا أو سار على وتيرة واحدة، بل مر -كما في باقي المناطق- بمراحل، عرف فيها مدا وجزرا تبعا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، غير أنه تمكن من الصمود والاستمرار وتجاوز كل العقبات.

المصادر والمراجع المعتمدة:

- ابن الزيات (أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1984.
- الإفراني، (محمد الصغير)، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تحقيق عبد المجيد خيالي، الدار البيضاء- مركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى، 2004.
- بوكاري، (أحمد الشرقاوي)، الزاوية الشرقاوية: دار علم ودين وصلاح، مراكش- المطبعة الوطنية، الطبعة الأولى، 2010.
- بوكاري، (أحمد الشرقاوي)، الزاوية الشرقاوية: زاوية أبي الجعد...، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، 1985-1989، (جزآن).
- حجي، (محمد)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب، المحمدية- مطبعة فضالة، الطبعة الأولى، 1976 (جزآن).
- حجي، (محمد)، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية، 1988.
- حجي، (محمد)، مادة "أيت إسحاق: قرية وزاوية"، معلمة المغرب، ج:2، ص ص: 400-399، مادة "الدلاء"، معلمة المغرب، ج:12، ص ص: 4066-4067.
- الخليفتي، (امحمد عبد الله)، كتاب الذرة الجليلة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 1986.
- رقاس، (سلمان)، الزاوية الحنصالية: مساهمة في دراسة دورها الديني والسياسي والاجتماعي، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بمراكش، 1999.
- شرس، (لطيفة)، الحركة الصوفية في منطقة تادلا خلال القرنين 10 و11هـ/ 16 و17م، أطروحة مقرونة، كلية الآداب بالرباط، 2004.
- الصومعي، (أحمد التادلي)، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب بأكادير، الرباط- مطبعة المعارف الجديدة، الطبعة الأولى، 1996.

- عربوش، (المصطفى)، أحمد بن أبي القاسم شيخ زاوية الصومعة، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1998.

- عربوش، (المصطفى)، من أعلام منطقة إقليم تادلة وبني ملال، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1989.

- العزفي، (أبو العباس أحمد)، دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط- مكتبة خدمة الكتاب، الطبعة الأولى، 1998.

- عمالك، (أحمد بن محمد)، جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط- دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، 2006 (الجزء الثالث).

- عمالك، (أحمد بن محمد)، مادة: "أحنصال"، معلمة المغرب، ج:1، ص ص: 183-186 + مادة "تانغملت"، معلمة المغرب، ج7، ص: 2218 + مادة "تامجت"، معلمة المغرب، ص ص: 2172-2071 + مادة "أكرض"، معلمة المغرب، ج:2، ص: 612 + مادة "تاخسايت"، معلمة المغرب، ج:6، ص:1998 + مادة "أيت خليفت: القبيلة والزاوية"، معلمة المغرب، ج:11، ص ص:3806-3808.

- القادري، (محمد بن الطيب)، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب، الطبعة الأولى، 1978.

- المقري، (أحمد بن محمد)، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، الرباط- المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1983.

- المنصور (محمد)، مادتا "أمهاوش-أبو بكر وعلي بن المكي"، معلمة المغرب، ج:3، ص ص: 790-792.

- الوارث، (أحمد)، الأولياء ودورهم الاجتماعي والسياسي في المغرب خلال القرن السادس عشر، رسالة مرقونة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بفاس، 1988.

- الولالي، (أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب)، مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار، تحقيق عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء- مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1999.



المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت: أدوارها العلمية وخلفياتها التاريخية

د. عبد الله استيتيتو:
كلية الآداب، أكَادير

تقـديـم:

لا شك في أن مقاربة موضوع المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت يطرح جملة من الصعوبات، منها بالأساس جوانبه الإبستيمية والمعرفية، والتطورات التاريخية التي خضعت لها هذه المدارس منذ بداية تشكلها إلى أن استوت على حالها، وترسخت تمثلاتها للمنشغلين بماهيتها، والمهتمين بوظائفها وأدوارها وطرق التدريس بها[1]، والأدوات المستعملة فيها، والعلوم التي كانت تدرسها، زيادة عن الضوابط والشروط التي كانت تخضع لها من حيث تدبير شؤونها، وكيفية تسييرها، والعلاقات التي تجمعها بالمجتمعات التي تحتضنها، والسلطات السياسية التي ترعاها. زد على ذلك الغموض الحاصل فيما بينها على مستوى المفاهيم المؤطرة لها؛ إذ نجد تداخلا كبيرا بين هذه المؤسسات؛ كـ«الكتاب» و«المسيد» و«الاحضار» و«المسجد» و«الجامع» و«المدرسة»[2]، وما يضاف إليها من رباطات وزوايا وأضرحة، والتي ترتبط كلها بوظيفة التربية والسلوك والتدريس، وتناط بها مهام التنشئة الاجتماعية؛ لذلك سنتناول في هذا المقال مفهوم المدرسة في سياقه التاريخي الذي يجمع بين كل هذه المكونات سواء في صورتها البسيطة أو في شكلها المركب الذي يحوي هذا الخليط من المؤسسات.

ارتبط ظهور المدرسة في المغرب بدخول الإسلام واعتناقه تدريجيا من قبل المغاربة بُداةً وحضراً؛ وذلك منذ أن وطأت أقدام العرب بلاد المغرب على عهد عقبة بن نافع الفهري[3]؛ حيث كانت المدرسة أهم أداة تصاحب نشر العقيدة الجديدة، والقيام بوظيفة التعريب، والتعريف باللغة العربية على حساب اللسان الأمازيغي؛ إذ كانت المجالات الشمالية والشمالية

(1) أحمد، (البوشيخي)، "**المدارس العتيقة: واقع وآفاق**،" مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان: **مؤسسات التعليم العتيق ومناهج التدريس**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2009، ط، ص 15.

(2) حول هذه المؤسسات وما يطبعها من علاقات وتداخلات، وكيف تم تأطيرها من خلال النصوص التاريخية وكتب النوازل والرسائل الخاصة بآداب المتعلمين، أنظر: الحسين بن أحمد (مفراح)، "**الكتاتيب القرآنية في المغرب بين الأحكام الفقهية والممارسة العلمية والآفاق المنشودة**"، ثم محمد (جميل مبارك)، "**الكتاتيب القرآنية بين عوامل النجاح وعوارض الإخفاق**"، وهما مقالان ضمن كتاب جماعي بعنوان: **الكتاتيب القرآنية: الآليات -الأهداف -الآفاق**، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 1430هـ/2009م، ط. 1، جزآن، ج 1، ص.ص 15-61.

(3) انظر، أحمد بن خالد (الناصري)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، [تحقيق وتعليق، أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي، إبراهيم بوطالب، أحمد التوفيق]، الرباط: منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001، ج. 1، ص. 93.

الشرقية للمغرب سباقة إلى احتضان هذا النوع من المؤسسات، قبل أن تمتد نحو الوسط والجنوب الغربي والشرقي، فمرت عبر مرحلة التعريف بها، وتقريبها إلى المجتمع، وتعويد الأمازيغ عليها في حالتها البسيطة، إلى طور الاحتضان والتشييد والإتقان والأبهة والعظمة، فأضحت عاملا موجِّها بالنسبة إلى فن العمارة ومختلف أنواع التجمعات السكنية في المدينة والبادية، وطرأت عليها تحولات شتى، سواء من حيث أعدادها ومجالات انتشارها، أو من حيث وظائفها والمهام المنوطة بها، وازدادت أهمية مع مرور الوقت، وخاصة بعد ظهور مؤسسة الزوايا والأضرحة والرباطات التي كانت تتقاسم معها جملة من الوظائف الرئيسة، أهمها وظيفة التربية والتعليم، ونشر المعرفة، وتكوين التلاميذ والطلبة، وتكريس المذاهب والنحل من إمارة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى.

كانت مناطق الجنوب الشرقي عامة، ومنطقة تافيلالت خاصة، من أهم الأصقاع المغربية التي احتضنت أولى هذه المؤسسات، واهتمت بها أشد الاهتمام، وطبعتها بطابعها المحلي الخاص، وأدمجتها في نسيجها العام، فكانت الحصيلة جد إيجابية على مستوى مراكمة عدد هائل من المدارس العلمية العتيقة التي تؤرخ للذاكرة الجماعية بتافيلالت وضواحيها (مدرسة توات، مدرسة تيغمرت، مدرسة تابوبكرت، المدرسة الحفيانية، المدرسة اللمطية، مدرسة مضغرة...)، وتترجم العمق الفكري والحضاري للقبائل الأمازيغية، وما يضاف إليها من عناصر بشرية أخرى (عرب، أفارقة سود، أندلسيون...)، وتكشف عن الوجه الآخر لمجتمعات الجنوب الشرقي: وجه النخبة والخاصة وأهل الحل والربط، وما يندرج في سلكهم من علماء وفقهاء وصلحاء وأولياء و«إيكَورامن» وطلبة وتلاميذ ومريدين، الذين كان لهم عظيم الأثر في إحداث خلخلة عميقة في بنى المجتمعات الأمازيغية من خلال تكوين أجيال جديدة من أبناء الأمازيغ الذين تولوا- بمعية العناصر العربية- توجيه الأحداث الاجتماعية والتاريخية بتافيلالت وخارجها؛ وشكلوا مستنبتا خصبا لرجالات الدولة من عمال وخلفاء ومختلف الأجهزة المخزنية؛ كالقضاة والمحتسبين وقادة الجيش وأعيان القصور وزعماء القبائل. وهو ما يعني أن مقاربة موضوع المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت، يعد مدخلا حقيقيا لاستقصاء التاريخ العميق لهذا المجتمع من حيث الجوانب المهملة بداخله، ووقائعه المسكونة بالصمت، وأحداثه الغارقة في الظل والتجاهل، ناهيك عن كون رصد هذه التيمة من شأنه إماطة اللثام عن الزمن الطويل لتافيلالت الذي تغلفه قضايا وظواهر تشكلت عبر مُدد مختلفة، مازالت معالمها بادية للعيان إلى حد كتابة هذه السطور، مترجَمة في اليومي والمعيش والآني الذي هيأته المدارس العتيقة في هذه البلدة منذ العهد الزناتي مع بني واسول المدراريين في القرن الثامن للميلاد، إلى غاية الهيمنة العطاوية ثم العلوية على الربوع الفيلالية في منتصف القرن السابع عشر الميلادي[4].

---

(4) حول القبائل العطاوية وانتشارها في الجنوب الشرقي للمغرب، ينظر كتابنا: **التاريخ الاجتماعي والسياسي لقبائل آيت عطا الصحراء إلى نهاية القرن التاسع عشر**، الرباط: منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2011.

فما هي أهم المدارس العلمية العتيقة التي عرفتها تافيلالت خلال الفترة الزمنية المذكورة؟ وما هي وظائفها العلمية وخلفياتها التاريخية؟ وكيف أثرت على البنى السوسيو ثقافية للقبائل الأمازيغية المحيطة بها؟

1. نماذج مختارة من المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت

سنقتصر في هذا العمل على نموذجين للدراسة، هما: المدرسة المدرارية في الحاضرة السجلماسية التي أسسها الخوارج الصفرية خلال القرن 8م، ثم مدرسة تيغمرت التي أسسها مولاي علي الشريف السجلماسي خلال نهاية القرن 14م.

أ. المدرسة المدرارية في الحاضرة السجلماسية

يقتضي تتبع المسار التاريخي للمدارس العلمية العتيقة في تافيلالت النبش الرصين في أرشيف هذه المنطقة وذاكرتها العلمية منذ تأسيس أول إمارة إسلامية بها على عهد الخوارج الصفرية، عام 140هـ/ 757م كما تؤرخ لذلك أغلب الروايات التاريخية[5]. استطاعت الإمارة المدرارية أن تجعل من سجلماسة أهم مدن المغرب خلال العصر الوسيط؛ نظرا إلى موقع هذه الحاضرة وأهميتها الاستراتيجية كهمزة وصل بين جملة من المناطق المطلة على الحافة الشمالية للصحراء الإفريقية الكبرى، ولا أدل على ذلك من الوصف الذي وصفها به السلطان العلوي مولاي محمد الأول، في إحدى رسائله إلى باي الجزائر، بأنها: «غرة جبين الصحاري، وصرة أمصار المغارب والبراري»[6]؛ مما جعلها تستفيد من عائدات التجارة الصحراوية الهائلة، وتتوسع توسعا مذهلا إلى حد أن ليون الإفريقي، عند زيارته لها، تعجب من امتدادها وترامي أطرافها، وكيف أنها تحولت من مفهوم حضري إلى إقليم جغرافي فسيح، يستمد اسمه منها، ويمتد على طول وادي زيز «من الخنكَ من المضيق القريب من مدينة

(5) عبد الرحمن (بن خلدون)، **تاريخ بن خلدون، المسمى بديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، بيروت: دار الفكر، 1996، ط. 3، [8 أجزاء]، ج. 6، ص. 171 – 172؛ أبو عبيد الله (البكري)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر: 1957، ص. 148؛ مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، [نشر وتحقيق عبد الحميد سعد زغلول]، الدار البيضاء: 1985، ص. 201؛ أحمد بن عبد الوهاب (النويري)، **نهاية الإرب في فنون الأدب: الدولة الفاطمية ببلاد المغرب** (296–361 هـ/ 909–972م) [تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد]، بدون مكان الطبع، 1408هـ/1988م، ط. 1، ص. 41؛ أحمد بن خالد (الناصري)، الاستقصا، ج. 1، م.س. ص. 169؛ عبد الرزاق (محمود إسماعيل)، **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، الدار البيضاء: 1985، ط. 2، ص. 117. عبد الله (العروي)، **مجمل تاريخ المغرب**، بيروت: 1994، ط. 4، ج. 1، ص. 149؛ ماك (كول)، **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**، [تعريب وتعليق محمد الحمداوي]، الدار البيضاء: دار النجاح الجديدة، 1395هـ، ص. 9.

(6) **الاستقصا**، ج. 6. م. س. ص. 34.

غار سلوان ونزولا نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلا حتى تخوم صحراء ليبيا. وتسكنه قبائل «بربرية» مختلفة، إما زناتية، أو صنهاجية أو هوارية»[7]. انعكس ثراء أهل سجلماسة وغناهم على سائر مؤسساتهم ومجالات اشتغالهم، ولاسيما على مستوى المؤسسات العلمية وعلى رأسها المساجد والمدارس والزوايا والرباطات، فكان الجامع الكبير بحاضرة سجلماسة من أشهر هذه المؤسسات على الإطلاق خلال عهد الخوارج الصفرية؛ والذي يعود الفضل في تأسيسه إلى أبي القاسم سمكَو الذي جعله بقرب دار الإمارة[8]، فشكل نقلة نوعية في تاريخ المؤسسات داخل هذا الصقع؛ بحيث كانت المدارس قبل قيام الحاضرة المدرارية عبارة عن خيام وأبنية عتيقة مطبوعة بطابع البساطة تماشيا مع ظروف الترحال والتنقل للقبائل الأمازيغية، ورغم ذلك فقد ارتبطت بتلك الأبنية شخصيات علمية شهيرة خلدت اسمها ضمن النخبة الفيلالية الأمازيغية؛ مثل الفقيه والعالم المعلوم سعيد بن واسول، الذي يعد من الأمازيغ الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، وتشبعوا بمبادئه علما وسلوكا، ودرسوه لأبناء جلدتهم في الحال والترحال إلى أن توفي عام 105هـ/723م[9]. يرصع هذا الرجل أول أسرة أميرية أمازيغية تولت إمارة الخوارج الصفرية بسجلماسة على عهد أبي القاسم بن سمكَو بن واسول المكناسي الزناتي الصفري، الذي عينه أتباعه أميرا عليهم في سجلماسة خلفا لعيسى بن يزيد بعد إعدام هذا الأخير؛ لذلك يمكن عد الفقيه سعيد بن واسول من النطف الجنينية الأولى لتافيلالت في مجال الفنون والصنائع؛ لأنه شكل، هو ومن أتى بعده، خميرة العلوم بسجلماسة، وحجر الزاوية لمن سيأتي من فقهاء وعلماء وصلحاء ومشاهير بهذا الصقع. تميز هذا العالم الجليل بكونه من أبناء مازيغ المشهورين، الذين حملوا لواء القلم، فذاع صيتهم، وطفقت الآفاقَ شهرتُهم، وشكلوا حبل الصلة بين المشرق والمغرب، فاستأثروا باهتمام من أرخ لهذا الجنس، واهتم بمناقبه ومفاخره[10].

كان المسجد الكبير في حاضرة سجلماسة يضاهي مسجد القرويين في العاصمة الإدريسية: فاس؛ سواء من حيث مورفولوجيته العمرانية، أو من حيث المساحة التي بني فوقها، أو على مستوى الأدوار والوظائف التي كان يقوم بها وسط تجمعات قبلية أمازيغية كان الأضخم من نوعه داخل الجنوب الشرقي للمغرب، وبذلك تحول هذا المسجد إلى مدرسة تستقطب الأدمغة المهاجرة إليها من مختلف الأصقاع المغربية ومن بلاد الأندلس وشمال إفريقيا؛ بل من بلاد

---

(7) الحسن بن محمد (الوزان) [المعروف بليون الإفريقي]، **وصف إفريقيا**، بيروت: 1983، جزآن، ج. 2، ص. 120-121.

(8) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (المقدسي) [ت. 388هـ]، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن: سنة 1909، ص. 231.

(9) الاستقصا، ج. 1، م.س. ص. 171.

(10) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، م. س. ج.6، ص. 138.

الكنانة واليمن والحجاز أيضا، كما كانت الحال بالنسبة إلى شخصيات عليمة بارزة مثل أبي عبيد الله الشيعي[11]، وأبي الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي الأندلسي، المعروف بابن القطان، الذي استقر بتافيلالت ودرّس في الجامع الكبير بسجلماسة[12].

استفادت هذه المدرسة من العناية الكبيرة التي أولاها إياها أمراء بني واسول ذوو الأصول الأمازيغية؛ لأنهم كانوا أهل علم ومعرفة منذ جدهم، مؤسس إمارة الخوارج الصفرية، أبي القاسم سمكَو الزناتي، باني مسجد سجلماسة سابق الذكر، والذي عده أهل التراجم وأصحاب الطبقات والفهارس من كبراء مكناسة الصفرية بسجلماسة[13]؛ مما أهله إلى تزعم المذهب الصفري بتافيلالت بعد تأسيس حاضرتها في هذه الواحة الصحراوية[14].

ازداد المسجد الكبير في سجلماسة تطورا وتوسعا مع الأمير المدراري اليسع بن أبي القاسم المكنى بأبي منصور[15]، والذي يعتبر من أهم رجال السلطة التي عرفتهم تافيلالت في العصر الوسيط؛ لأن إمارة سجلماسة في عهده بلغت شأوا بعيدا لم تبلغه إمارة أخرى ناشئة في العالم الإسلامي، وذلك بشهادة الرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين سجلوا آراءهم وأفكارهم حول الملوك السجلماسيين الأول[16]، فاتسع عمران المدينة وجذبت إليها القبائل الأمازيغية المحيطة بها، والتي بدأت تضرب خيامها وتبني منازلها على الضفة اليسرى لوادي زيز، والضفة اليمنى لوادي غريس[17]؛ وبذلك استطاع هذا الأمير القضاء على الوضع المائج في الديار السجلماسية، وتغلب على التيارات والأفكار والمذاهب التي كانت تخيم على تافيلالت، وخاصة مذهب الإباضية الذي كان قد حقق نجاحا كبيرا في وادي درعة[18].

---

(11) انظر: حسن (إبراهيم حسن)، عبيد الله المهدي، القاهرة: 1947، ص 14؛ عبد العزيز (محمود إسماعيل)، **الخوارج في بلاد المغرب**، م.س. ص. 211.

(12) حول ترجمة بن القطان يُنظر: مؤرخ مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط. 1، 2005، ص. 157؛ محمد (المنوني)، **المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1404هـ/1983م، ج.1، ص. 57؛ إبراهيم (حركات)، **المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1414هـ/1993م، ط. 3، 3 أجزاء، ج. 1، ص. 353.

(13) **تاريخ ابن خلدون**، ج. 6، م.س. ص. 172.

(14) عبد الرزاق (محمود إسماعيل)، **الخوارج في بلاد المغرب**، م.س. ص. 114.

(15) **تاريخ بن خلدون**، ج. 6، م.س. ص. 172.

(16) انظر: البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، م.س. ص. 150؛ ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج. 6، م.س. ص. 172.

(17) الشريف محمد (الإدريسي) (ت. 558هـ)، **صفة المغرب وأرض السودان ومصر**، ليدن: 1894، ص. 60.

(18) **تاريخ ابن خلدون**، ج. 6، م.س. ص. 172؛ محمد (بن عذاري المراكشي)، **البيان المُغرب في أخبار المغرب**، جزآن، بيروت، 1950، ج. 1، ص. 215؛ **الخوارج في بلاد المغرب**، م.س. ص. 124.

لم يكن من السهل على أبي المنصور تحقيق هذه النتائج لولا توفر إمارته على طاقات بشرية هائلة، وإمكانات مادية متميزة بفضل نشاط تجارة القوافل بها، وما ذرته عليها من مواد سودانية نفيسة كالتبر والعبيد[19]، كما استفادت سجلماسة أيضا من استقرارها الأمني والسياسي، وخمود الفتن بداخلها، وانصياع الكل لحاكمها اليسع، الذي وضع تخطيطا جديدا للمدينة، فأضحت كل إثنية مجتمعة في أحياء خاصة بها (حي للأمازيغ وحي للعرب وحي لليهود وحي للحراطين...)، مما جعل القوى السياسية والقبائل المجاورة، سواء في درعة، أو في تاهرت، تخشى جانب أمير سجلماسة، وتخاطب وده لتتفادى سطوته وغضبه، وهو ما يظهر من خلال موافقة عبد الرحمن بن رستم على زواج ابنته أروى من مدرار بن أبي المنصور اليسع[20]، رغم ما كان يطبع الإباضية والصفرية من خلافات وصراعات مذهبية[21].

بكل هذه الأعمال السياسية والعسكرية والسوسيو اقتصادية، استطاع "أبو المنصور اليسع أن يحقق أهدافه، وأصبح لا ينازعه في الإمامة منازع. ومن هنا يمكن اعتبار حكمه عصر الازدهار والاستقرار في تاريخ دولة بني مدرار"[22]، سيما وأن فترة حكمه دامت قرابة أربعة عقود كاملة، إلى أن توفي عام 208هـ/823م[23].

يحسب لهذا الرجل اهتمامه الزائد بشريحة الفقهاء والعلماء، والإكثار من الإنفاق عليهم، وتهيئ الظروف المناسبة لاشتغالهم. فكان الجامع الكبير يتوسط أحياء المدينة، ويوجد على أمتار قليلة من دار الملك؛ لأن أبا المنصور كان مدركا لأهمية هذه المؤسسة في مختلف شؤون المجتمع تربويا ومعرفيا وحضاريا ودينيا ومعيشيا وسياسيا؛ فالمسجد وأهله مرآة عاكسة للسلطة القائمة عليه، وترجمة للمجتمع الذي يحيط به. الكل معني بالاهتمام به والتضحية في سبيله،

---

(19) حول مسألة العبيد المجلوبين من إفريقيا جنوب الصحراء تأصيلا وتطورا، ينظر: **الاستقصا**، ج 7، م. س. ص. 58؛ **الروايات التاريخية**، م. س ص. 19؛ أبو الحسن إبراهيم (الاصطخري الكرخي)، المسالك والممالك، القاهرة: [تحقيق جابر عبد المالك]، نشر دار القلم، 1961، ص. 36.

- Meunier (D.J), **Le Maroc Saharien dés origines à 1670**, Paris, 1982. p. 245.
- De Lachapelle, **« Esquisse d'une histoire de Sahara oriental du VI au XIV siècle »**, Hesperis, T. XI, p. 39 ; Gabriel (Camps), **« Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara »**, R.O.M.M, T.III, n°7, 1er trime. 1970, pp.35 - 45.
- Lucette (Valensi), **« la route de Babel, groupes et relations ethniques au Moyen Orient et en Afrique du Nord »**, Annales économiques et sociales, n° 4, Juillet- Août, 1986, pp.817 – 838.

(20) **تاريخ ابن خلدون**، ج. 6، م. س. ص. 172.

(21) **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، م. س. ص. 150.

(22) **الخوارج في بلاد المغرب**، م. س. ص. 125.

(23) **تاريخ بن خلدون**، ج. 6، م. س. ص. 172.
- **الخوارج في بلاد المغرب**، م. س. ص. 125.

وتقديره حق قدره؛ لأنه من المصالح العامة الحساسة التي يشترك فيها كل السكان، وتعود منفعتها بالخير العميم على كل المحيطين بها؛ لذلك ترسخت سلوكيات اجتماعية فضلى تجاه هذا الجامع داخل الديار الفيلالية، وأصبحت بمثابة قواعد وأعراف تربط بين هذه المؤسسة والمجتمع القائم عليها بخاصته وعامته. ومن أهم هذه السلوكيات الحسنة، الإنفاق السخي على هذه الدار تحبيسا ووقفا وإهداء وتبرعا واكتتابا، والمساهمة في أشغال بنائها واستصلاحها وتنظيفها في إطار جماعي، والعمل المجاني. كل هذه المبادرات صارت مع مرور الوقت مرسخة في إطار ما يمكن نعته ب"أدب الجماعة تجاه الجامع"، سيما وأنها تتماشى وعادات وتقاليد القبائل الأمازيغية المحتضنة للحاضرة السجلماسية؛ لأن هذه القبائل اعتادت على العمل الجماعي في كل ما يهم شؤون حياتها، سواء ما يتعلق بالانتجاع أو عمليات الحرث والحصاد، أو ما يهم حفر السواقي والآبار والخطارات، وما يتصل بطقوس الأفراح والاثراح. كل هذه المناسبات اعتاد فيها الأمازيغ على العمل الجماعي الذي رسخ فيهم سلوك التعاون وروح التضامن، فوجدوا في المسجد- ومازالوا- بكل خلفياته الدينية وأبعاده الروحية والعقدية، ومعانيه التربوية والاجتماعية، المكان الأنسب لتجسيد كل هذه القيم الإنسانية السامية.

هكذا بنيت أول مدرسة علمية بالديار الفيلالية، وصارت منارة للعلم والمعرفة في الجنوب الشرقي عامة، وفي تافيلالت خاصة، واستقطبت أهم فحول الصنائع وشيوخ المتون، فأصبحت مسؤولة عن التنشئة الاجتماعية للنخبة الفيلالية وعلى رأسها أبناء الأمراء المدراريين؛ إذ يكفي أن نشير إلى كون أبي المنصور ربى ابنه مدرارا الملقب ب"المنتصر" داخل هذه الجامع[24]، فجلب إليه أهم فقهاء الوقت، وأشهر علماء العصر وأنجب أدبائهم، وأحاطه بنخبة من خاصته، وطليعة المقربين إليه، فتعلم داخل هذه المؤسسة رفقة أبناء أعيان الإمارة، ولاسيما أبناء التجار الكبار وأنجال الموسرين والأثرياء والفقهاء والعلماء؛ فكانت أهم وظيفة تقوم بها المدرسة المدرارية هي تلقين اللغة العربية لأبناء الأمازيغ؛ على اعتبار أن تافيلالت وجدت في وسط قبلي أمازيغي صرف، فأسهم الفقهاء المدراريون في مشروع التعريب الذي كان الفاتحون العرب ودعاتهم قد وضعوا معالمه الأولى وتصوراته الكبرى، التي تمثلت في التشجيع على تعلم اللسان العربي، وجعل العربية أداة لولوج المناصب، والحصول على الحظوة، ووسيلة للغنى والثراء، لما تمنحه من فرص لتولي التعليم والقضاء، وتسلق المناصب في الجيش والإدارة والحسبة، وأيضا من أجل معرفة الدين الجديد في مغزاه ومضمونه اعتمادا على اللغة التي نزل بها القرآن، وهي اللغة العربية. كل ذلك جعل الأمازيغ يبذلون كل ما في وسعهم لتعلم لغة الضاد، وإتقان هذه اللغة لما فيها من أهمية في تحسين

---

(24) **تاريخ بن خلدون**، ج.6، م.س. ص. 172؛ أبو العباس أحمد بن علي (القلقشندي) [ت. 821هـ/1418م]، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة، 1963، ج. 1، ص. 125.

أوضاعهم المادية والمعنوية، والتعرف على العقيدة الجديدة اعتمادا على أبنائهم الذين يتلقون تكوينا عربيا في تافيلالت، ثم يعودون إلى قبائلهم لنشر التعاليم الدينية الجديدة، والقيام بنشر اللغة العربية عن طريق تحفيظ بعض آي القرآن الكريم إلى الصغار والكبار من الأمازيغ الراغبين في ذلك.

كانت نتيجة ذلك، نشر اللغة العربية بين أبناء الأمازيغ، الذين أقبلوا عليها، وتفننوا في إتقانها حتى كان منهم من يجيدها أحسن من العربي نفسه، فظهر فيهم الفقهاء والعلماء والمؤرخون والنحاة واللغويون، مما أثبت نجاح خطة التعريب المعتَمَدة، إلى درجة أن الأمير مدرارا الزناتي كان من الذين يحسنون الكلام بهذه اللغة، فأصبح على قدر كبير من العلم والمعرفة، واستطاع أن يبرز على هيئة أبناء السلاطين والملوك والخلفاء العظام؛ كما كانت الحال بالنسبة إلى أمراء بني أمية في دمشق، وأمراء بني العباس في بغداد؛ مما أهله ليصبح أهم حاكم في سجلماسة، بدليل أن إمارة الخوارج الصفرية ارتبطت باسمه وأصبحت تعرف بالإمارة المدرارية، فاستمر على نفس النهج الذي سار عليه سلفه فيما يتعلق بالعناية بهذا الجامع والاهتمام به، وجعله قبلة لمشايخ الصفرية، وربى بداخله ابنيه عبد الرحمن بن الرستمية وميمون بن تقية المعروف بـ "الأمير"[25] الذي دام حكمه بسجلماسة لمدة أربعة عقود، إلى أن وافته المنية في سنة 263هـ (877م)[26]، فكان من الذين أدخلوا عدة تغييرات على الجامع الكبير، وخاصة من حيث التوجهات العلمية والانتماءات المذهبية والأفكار العقدية، فشن حربا ضروسا على الفقهاء الذين كانوا يعتنقون المذهب الخارجي الإباضي والذين استقطبهم أبوه مدرار، الذي تزوج امرأتين: الأولى إباضية تسمى أروى بنت عبد الرحمن بن رستم، صاحب إمارة تاهرت الإباضية، التي أنجبت له ابنه عبد الرحمان – سمي باسم جده– والذي عينه وليا للعهد من بعده، والثانية صفرية تدعى بقية من أعيان سجلماسة، والتي أنجبت لمدرار ابنه ميمون؛ حيث شجع عبد الرحمن بن رستم في تاهرت صهره مدرارا على السماح لفقهاء الإباضية بالاستقرار في سجلماسة والتدريس بجامعها الكبير من أجل نشر مذهب الإباضية، والتعريف به في الديار السجلماسية، فوافق على ذلك بتأثير من زوجته أروى التي كان يؤثرها على زوجته بقية الفيلالية، فتحولت مدرسة الجامع الكبير إلى ساحة للمعارك المذهبية الطاحنة، واشتد الصراع بين فقهاء الصفرية ونظرائهم الإباضية، وانتقل هذا الجدل المذهبي إلى داخل بيوت وأسر الأثرياء والتجار، ووصلت عدواه جوانب من المعاملات في الأسواق والعبادات في المساجد، ووصل لهيبه إلى القصر الأميري الذي تحول إلى ساحة حقيقية للمعارك بين مؤيدي مذهب الإباضية من جهة، وعلى رأسهم الأم أروى

---

(25) تاريخ بن خلدون، ج.6. م.س. ص. 173.

(26) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، م.س. ص. 150.

وابنها عبد الرحمن، ومن خلفهما جمهور معتنقي هذا المذهب من العامة والخاصة سواء داخل سجلماسة أو خارجها، ولاسيما في درعة؛ حيث كان هناك أنصار كثر لهذه النحلة، ومؤيدي مذهب الصفرية من جهة أخرى، وعلى رأسهم الأم بقية الفيلالية وابنها ميمون الملقب بالأمير، ومن ورائهما أتباع المذهب الخارجي الصفري، الذي كان له امتداد عميق في أذهان وكيان ووجدان أهل تافيلالت منذ عقود خلت. انتهى هذا الصراع المذهبي بنجاح فقهاء الصفرية في تثبيت ميمون أميرا عليهم؛ مما دفع هذا الأخير إلى تنقية الأجواء العلمية داخل الجامع الكبير، وسلط عيونه على من شك في ولائهم له، وسعى إلى استئصال شأفة الإباضية بشكل نهائي من الديار السجلماسية[27]، فأمر بإيقاف تدريس كافة المتون والنصوص ذات الصلة بالفكر الإباضي، وعين لابنه محمد فقهاء مخلصين للنحلة الصفرية، وبقي على رأس السلطة المدرارية لمدة قاربت أربعة عقود، إلى أن وافته المنية في سنة 263هـ (877م)[28]، فخلفه ابنه محمد واستمر على نهجه، وشدد الرقابة على أتباع الإباضية متقصيا أخبار عمه عبد الرحمن بن أروى الرستمية في درعة وضواحيها، فنجح في هذا المسعى، واستطاع تجفيف منابع هذه النحلة من الديار الفيلالية، وتابع أشياخها ومعتنقيها نحو القبلة، "فلم نسمع عن حركات لهم طوال حكمه"[29]، فعادت سجلماسة إلى هدوئها واستقرارها، لتتفرغ إلى البناء والتشييد والتوسع، وصار المذهب الصفري فارضا نفسه في الجامع الكبير، ويمثل العقيدة السياسية للدولة القائمة، وبقي محمد بن الأمير على هذه الحال إلى أن وافاه أجله عام 270هـ (884م)[30]، فخلفه الأمير اليسع الذي لم يحد عن هذا الخط في التمكين لهذه النحلة داخل الديار الفيلالية من خلال تشجيع تدريس مبادئ الفكر الصفري، اعتمادا على خلق جملة من المساجد والمدارس في مختلف أنحاء سجلماسة؛ لكن عهد الأمير اليسع، الملقب بـ "المنتصر"، ابتلي بخطرين داهمين كان لهما أشد الأثر على الصيرورة التاريخية للمدارس العلمية العتيقة في تافيلالت، ونعني بهما: الخطر الإدريسي الذي امتد إلى غاية منطقة مضغرة على مشارف مدينة سجلماسة، والذي حمل معه المذهب المالكي السني إلى زيز الأوسط؛ مما يعني أن المذهب الصفري لم يعد بإمكانه التوسع والانتشار نحو الشمال لوجود فقهاء مالكيين يحاربونه في حلقاتهم الدراسة وأنشطتهم التربوية في عدد من القرى والتجمعات السكنية؛ الشيء الذي فرض على اليسع المنتصر أن يفكر مليا في كيفية تخليص أتباعه من القبضة الإدريسية والفكر

---

(27) **الخوارج في بلاد المغرب**، م.س. ص. 127.

(28) **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، م.س. ص. 150.

(29) الخوارج في بلاد المغرب، م.س. ص. 127.

(30) **تاريخ بن خلدون**، ج.6. م.س. ص. 173؛ لسان الدين (بن الخطيب)، **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام**، [تحقيق حسن حسني عبد الوهاب]، جالرمو: 1910، ج.3، ص. 144.

المالكي في جنوب شرق المغرب عامة، وفي تافيلالت خاصة[31]، ثم الخطر الشيعي الفاطمي الذي داهم إمارته وأحدق بمقر إقامته[32]، بعدما "لحق عبيد الله الشيعي وابنه وأبو القاسم بسجلماسة لعهده"[33]، والذي كان سببا في حادثة الغزو الشيعي لسجلماسة، وتوج بقتل الأمير اليسع، وسقوط إمارة بني مدرار عام 297 هـ/911م[34]، وقيام الإمبراطورية الشيعية بزعامة مؤسسها الروحي أبي عبيد الله الشيعي[35].

هذا الحدث العظيم الذي حل بالديار الفيلالية كان له تأثير بالغ على مسار مؤسساتها العلمية والثقافية، وهيئاتها الفكرية، ونخبتها الفقهية؛ إذ لم يتوان الفاطميون في التمكين لعقيدتهم داخل سجلماسة، فأعادوا ترتيب الشأن العلمي بالمدينة بتشجيع النحلة الشيعية وترسيخها في وسط العامة والخاصة، فكان الجامع الكبير وما يندرج ضمنه من كتاتيب ومدارس ومساجد في مختلف أحيائها وضواحيها أهم أداة لمحو الفكر الصفري، وتعويضه بنظيره الشيعي الفاطمي؛ مما جعل فقهاء الصفرية يتعرضون لمحنة حقيقية كان من نتائجها تهجيرهم من تافيلالت، وإرغامهم على إشهار المذهب الجديد وإذاعته بين الناس، وتلقينه للأحداث والتلاميذ والحفظة والطلبة، وتكوين نخبة جديدة مستبطنة للملة الشيعية، ومتشبعة بمبادئ الشيعة تربية وسلوكا؛ الشيء الذي يفسر اليوم البقايا المادية لهذه الذاكرة العميقة في تافيلالت من خلال لباس أهل المنطقة الذي يتجسد في رداء أسود ترتديه النساء، ثم طريقة الخمار الذي يضربنه على وجوههن، ناهيك عن بعض الطقوس والعادات الخاصة بالاحتفالات والمناسبات الدينية؛ مثل طقوس عاشوراء، أو بعض الطقوس الخاصة بالمآسي والمراثي كطريقة الندب والبكاء أيان الجنائز والكرب المهولة؛ لكن هذا التأثير شمل فقط الفئات التي كانت تقطن داخل سجلماسة، أما القبائل الأمازيغية التي كانت محيطة بها فلم تتأثر بالمد الشيعي واحتفظت بعاداتها في اللباس، وطقوسها في المناسبات، وتقاليدها في الإنتاج وتدبير اليومي والمعيشي.

ب. مدرسة تيغمرت

بقيت المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت متأثرة بالانتماءات السياسية والتوجهات المذهبية للدول التي تعاقبت على حكم المنطقة؛ مثل الخوارج الصفرية في العهد المدراري، والفاطميين الشيعة ثم المغراويين من بعدهم، إلى أن قامت الدولة المرابطية، فكانت أول خرجة لعبد الله

---

(31) **الخوارج في بلاد المغرب**، م. س. ص. 127.

(32) **أعمال الأعلام**، ج. 3، م. س. ص. 145.

(33) **تاريخ بن خلدون**، ج. 6، م. س، ص. 173.

(34) **الخوارج في بلاد المغرب**، م. س. ص. 127.

(35) حول التعريف بالشيعة لغة واصطلاحا، ينظر: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (الشهرستاني) [ت. 548هـ] (، **الملل والنحل**، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، بيروت: ط. 1، 2000، ص. 117.

بن ياسين نحو الديار الفيلالية، وذلك بعدما تلقى رسالة من فقهاء مدارسها، وعلماء مساجدها وخطبائهم عام 447هـ[36]، يطلبون منه المجيء إليهم لينقذهم مما هم فيه من فساد الوضع وسوء الأفعال، وخاصة ما يرتبط بانتشار الفاحشة، وشيوع الخمر والمسكرات، وتكاثر ليالي الأنس والغناء، وتعسف الجباة، ومد يد حكام مغراوة إلى أموال الناس، والسطو على المحارم[37]. كان التدخل المرابطي في تافيلالت إيذانا عن انتهاء حقبة من تاريخ المؤسسات العلمية بداخلها، لعب خلالها الجامع الكبير وملحقاته، من مساجد ومدارس وكتاتيب، دورا بارزا في ترسيخ هذه الملل والنحل على يد فقهاء وعلماء وأتباع، وبدعم من الأمراء والحكام وكبار القوم، ليبدأ عهد جديد سيطر فيه المذهب المالكي السني المدعوم من قبل السلطة المرابطية، التي اضطرت إلى تعيين أهم قاداتها داخل تافيلالت من أجل استئصال شأفة الملل السالفة، والتمكين لمذهب الدولة الجديدة، وهو ما يفسر تعيين بن ياسين لأبي بكر بن عمر اللمتوني عاملا على سجلماسة بعد عودته إلى مضارب الصحراء، ثم عين بعده يوسف بن تاشفين ليكمل مهمة ترسيخ المالكية في الديار السجلماسية، فكان على المرابطين القيام بمجهودات مضنية من أجل ترميم ذاكرة قبائل الجنوب الشرقي المثقلة بالأفكار الخارجية والشيعية، فعملوا على ترتيب شأنها الديني والعقدي من جديد، وأعادوا بناء الجامع الكبير، وأدخلوا إلى مدارسها وكتاتيبها ومساجدها كتب المالكية، وأصبح الموطأ موضوع تنافس بين فقهائها وعلمائها، فتغيرت مضامين مناهج وطرق التدريس فيها، وصار على التلاميذ والحفظة والطلبة، على مختلف مستوياتهم ومراتبهم، حفظ أبواب من الموطأ، واستظهارها عن ظهر قلب، وما يتبعها من مختصرات وحواشي ومدونات؛ كمدونة الفقيه بن سحنون.

بقيت مدارس تافيلالت على هذا النحو إلى غاية قيام الدولة الموحدية ذات الخلفيات الشيعية؛ حيث ركز محمد بن تومرت، مهدي الموحدين، على تافيلالت وأحيى ذاكرتها، ومحا رسوم المالكية بها، وترسخت بها أفكار المهدوية والتشيع إلى غاية اضمحلال دولة بني عبد المومن، وقيام دولة بني عبد الحق المرينية التي أحيت من جديد الفكر المالكي السني، ونشرته في مختلف أصقاع المغرب، وبنت من أجل ذلك مدارس حديثة، ومساجد معلومة لتلقين المذهب الجديد، وترسيخ وجود الدولة من خلال نظام تعليمي دقيق، فكانت تافيلالت من المناطق التي تأثرت بالوجود المريني بعد الخلاف الذي وقع بين السلطان أبي الحسن المريني وأخيه أبي علي الذي كان حاكما على سجلماسة منذ عهد أبيه السلطان أبي عثمان. توج هذا الخلاف بحصار شديد لسجلماسة دام نحو عام، و انتهى باقتحامها والانتقام من أهلها بتدمير أسوارها وإحراق مبانيها، وإتلاف معالمها الدينية والعلمية والاجتماعية؛ كالمساجد والجوامع والبيع،

---

(36) **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، م. س. ص. 128؛ **تاريخ بن خلدون**، ج. 6، م. س. ص. 243.

(37) **الاستقصا**، ج. 2، م. س. ص. 171.

والحمامات والقيسريات ودور العامة والخاصة وذلك سنة 733هـ[38]، فقلت الأنشطة بداخلها وتراجعت أدوارها، وهجرها سكانها، واستمرت في التراجع إلى أن اندرست نهائيا في بداية عهد السلطان المريني أبي فارس عبد العزيز عام 1393م[39].

كان من نتائج اندراس هذه المدينة اختفاء جامعها الكبير ومختلف ملحقاته من مساجد وكتاتيب ومدارس، وخلوها من السكان الذين غادروها نحو ضواحيها، واستقروا في إطار تجمعات سكانية معزولة عرفت بنظام القصور، فصار لكل قصر مسجده، وكتابه أو مدرسته[40]. على الرغم من هذه المحنة التي مرت بها تافيلالت خلال هذه الفترة، فإنها سرعان ما استرجعت عافيتها على يد مولاي علي الشريف الحسني السجلماسي، الذي كانت ولادته عام 762هـ/ 1360م بسجلماسة[41]، وعاش أزيد من ثمانية عقود، وعاصر اثني عشر سلطانا من السلاطين المرينيين، أي من السلطان أبي زيان الأول بن محمد بن يعقوب بن أبي الحسن(1361-1365م) إلى آخر سلطان مريني وهو عبد الحق بن أبي سعيد(1420 - 1464م)[42]. وتوفي عن سن ناهزت أربعة وثمانين حولا، وذلك عام 847 هـ/144م حسب أغلب الروايات التاريخية[43].

يحسب لهذا الرجل أنه أسس في تافيلالت أربع عشرة زاوية، أهمها زاوية تيغمرت. سمى مولاي علي الشريف هذه المدرسة باللسان الأمازيغي كناية على اندماج الشرفاء العلويين مع القبائل الأمازيغية في تافيلالت، ودلالة على إتقان النخبة العربية من شرفاء وفقهاء وعلماء

---

(38) إبراهيم (حركات)، **المغرب عبر التاريخ**، ج.2، م.س. ص. 37.

(39) Meunier (J.D), Architecture et habitat de Dades, un ouvrage publié avec le concours scientifique, Paris : 1962, p.101.

- حسن (حافظي علوي)، **سجلماسة وإقليمها في القرن 8 هـ/ 14 م**، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1418هـ/ 1997م، ص. 440

(40). حول نتائج سقوط سجلماسة وانتقال تافيلالت من السكن في حاضرتها إلى السكن القصوري، انظر:
- سعيد (واحيحي)، **سجلماسة/ تافيلالت من اندراس المدينة إلى واحة القصور 796 هـ / 1393 م إلى أواخر القرن 11 هـ/ 17م) دراسة تاريخية، اجتماعية، ثقافية)**، [أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، مرقونة]، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، السنة الجامعية، 2005-2006.

(41) مولاي إدريس بن أحمد العلوي (الفضيلي)، **الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية**، مراجعة ومقابلة الأستاذين أحمد المهدي العلوي ومصطفى بن أحمد العلوي، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1420هـ/ 1999م، جزآن، ج. 1، ص، 193. هناك من يعتبر أن ولادته كانت سنة بعد التاريخ أعلاه، اعتمادا على عملية حسابية تأخذ بعين الاعتبار تاريخ وفاة المترجم في عام 1443م وفق أغلب الروايات التاريخية، وعمره الذي ناهز أربعا وثمانين سنة. فيكون تاريخ ميلاده، رحمه الله، هو 1359م. انظر: أحمد بن عبد العزيز (العلوي الهلالي) [ت. 1101هـ/1689م]، **الأنوار الحسنية**، تقديم عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء، [ب.ت.] ص. 24.

(42) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، م.س. ج.2، ص.ص. 51-61.

(43) الدرر البهية، ج.1، م.س. ص. 139. الأنوار الحسنية، م. س. ص. 12.

للسان الأمازيغي؛ لأن "تيغمرت" في القاموس الأمازيغي تعني "الركن"، أي "الزاوية" وهو ما يعني أن تافيلالت حافظت على هويتها الأمازيغية الصرفة إلى غاية العهد الثاني من الدولة المرينية، بل هذا الطابع ازداد رسوخا مع قدوم الأشراف السعديين ومن بعدهم العلويون الذين كان سلاطينهم يتقنون الأمازيغية، ويخاطبون الناس بها، ولا أدل على ذلك كون أغلب القصور والقصبات والتجمعات السكنية التي أنشئت في تافيلالت بعد انهيار مدينة سجلماسة، كانت جلها تجمل أسماء أمازيغية مؤنثة؛ مثل: تيغمرت، تازكَزوت، تاحسنونت، تابوعصامت، تاغنجاوت، تابوبكرت، تانيجوت، تيغرمت، تنغراست.

شيدت مدرسة تيغمرت على مساحة مهمة في مكان منخفض بمحل بني مولود التيغمرتي، على مسافة قريبة من قصر أولاد عبد الحليم المريني. ضمت هذه المدرسة غرفا لإيواء حفظة القرآن الكريم وطلاب العلم، وغرفا خاصة بحلقات الدرس والتعلم يجتمع فيها الطلبة والأحداث والمشرفون عليهم من الفقهاء والمدرسين، واحتوت أيضا على مسجد للصلاة(44)، وجناح خاص عرف بجناح "المطامير"، يتكون من مجموعة من الغرف المخصصة لخزن وشحن الذخائر والمؤن، التي يحتاجها أهل الله المحلون بحرمها، فكانت خزائنها تكفي أعواما عديدة لمئات الطلبة المرابطين بها، وحوت بداخلها من التمر والتين المجفف والزبيب والحبوب والقطاني، وأقبية الزيت والخليع، وأوعية الشحم، وقِرَب السمن والعسل ما لم تعرفه زوايا أخرى في المغرب قاطبة(45)، كما ضمت خزانة عظيمة عدت من أكبر الخزانات التي عرفتها تافيلالت في تاريخها، نظرا إلى الأهمية البالغة التي كان يوليها صاحب الزاوية إلى قضية الكتب والمخطوطات، التي نذَر لها حياته كلها، فكان يجدُ، في جمعها والتنقيب عنها، متعة كبيرة ولذة غريبة، فكانت همه الأول في حاله وترحاله وكافة أسفاره وتنقلاته. احتوت المدرسة على بهو فسيح، وساحة رحبة، يحيط بها بستان جميل مليء بأشجار النخيل والرمان والكروم والتين، وبه عدة آبار أهمها البئر التي حفرها المولى علي الشريف بداخلها، والتي مازالت قائمة إلى حد كتابة هذه السطور؛ بحيث عايناها مرارا وشربنا من مائها الذي يحظى بتقدير كبير من طرف زوار هذه الخلوة، لاعتقادهم الراسخ في بركة صاحبها.

حبس مولاي علي الشريف، رحمه الله، على هذه المؤسسة التربوية والتعليمية والدينية جملة من الأحباس، وأوقف من أجلها كثيرا من الأوقاف(46)، فبدأت تستقطب طلاب العلم والمعرفة من كل القصور والمناطق المجاورة؛ بل هناك بعض الروايات التاريخية التي تفيد

(44) أبو عبد الله محمد الزكي بن هاشم العلوي المدغري (السجلماسي)، **الشجرة الزكية**، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم، 575 ج. ص. 312.

(45) رواية شفوية أجريتها مع شرفاء أخنوس وشرفاء قصبة مولاي عبد الكريم، وشرفاء قصر مولاي سليمان بتافيلالت.

(46) **الشجرة الزكية**، م.س. ص. 119؛ **سلسلة لجين صيغ من معدن الوفا**، م.س. ورقة 5.

بأن مدرسة تيغمرت ذاع صيتها في شمال إفريقيا وفي الصحراء، وبدأ يفد عليها أهل شنقيط والسوس ودرعة وإفريقية وتلمسان، حتى اشتهرت بلاد بني مولود التيغمرتي التي تحتضن هذه المؤسسة الدينية بـ"بلاد الزاوية"[47]، وذلك بفضل الإشعاع الديني الذي كان يمتاز به صاحبها مولاي علي الشريف، الذي عرف بهذه الخصلة الحميدة المتمثلة في جلوسه في تيغمرت لمدة طويلة يعلم الناس ويقرئهم، ويفقههم في شؤونهم الدينية والدنيوية، فكان يجلب إليها الكتب والنفائس من القراطيس والمخطوطات النادرة ولاسيما الأندلسية منها، نظرا إلى المرات العديدة التي كان يجوز فيها إلى العدوة الأندلسية لإنقاذها من الهجوم المسيحي، وكان علية قومها يهدون إليه مثل هذه النفائس، لعلمهم بتعلقه بالعلم بدل الذهب والأموال.

كان طلاب العلم يفدون على مولاي علي الشريف في تافيلالت من أجل نيل شرف التتلمذ على يديه، والتبرك به، والاستفادة من مشيخته وإجازاته في عدة فنون وعلوم اللغة والشرع؛ كعلم التفسير، وعلم الحديث وعلم التجويد، علاوة على فنون أخرى مرتبطة بعلم الباطن وما يتصل به من أوراد، وسلاسل الأخيار، وسير الأقطاب[48]. كان يتكفل بكل حاجيات الطلبة مؤونة ومسكنا وكسوة؛ بل كان يعطي المسافر منهم زادا يعينه على العودة إلى مسقط رأسه في المشرق والمغرب[49]؛ مما جعل الوفود تفد عليه "من كل صقع من وادي نول إلى أطراف السودان إلى الساقية الحمراء"[50].

اتبع مولاي علي الشريف في مدارسه العلمية بتافيلالت منهجا جديدا في التدريس، مزج فيه بين العلم والعمل والدرس والممارسة والسلوك، إيمانا منه بأن "العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون"[51]، كما جعل الهم الأكبر لمدارسه الأربع عشرة هو تعلم القرآن الكريم رسما وقراءة وإقراء وحفظا وضبطا وتدبيرا وتدبرا[52]، والتمكن من العلوم المرتبطة به؛ كالتفسير والحديث والأصول وضبط المعاني، والإمساك بناصية اللغة التي تعتبر المفتاح الرئيس لكل مدخلاته ومستغلقاته، فسار بذلك على منهج المغاربة في إحياء علوم القرآن، والحفاظ على لغته ونشرها في الأوساط الأمازيغية بتافيلالت وخارجها؛ كما امتاز منهجه العلمي برفضه اتخاذ العلم مطية للرياسة والسياسة، وتسخير طلبته وأتباعه ومريديه في

---

(47) **الشجرة الزكية**، م.س. ص. 119.

(48) **الشجرة الزكية**، م.س. ص. 113.

(49) نفس الرواية الشفوية المأخوذة عن حفدة مولاي علي الشريف بالقصور المذكورة في الهامش رقم: 46.

(50) **الدرر البهية**، ج.1، م.س. ص. 120.

(51) حجة الإسلام محمد بن أبي حامد (الغزالي)، **أيها الولد**، [تحقيق وتعليق وتقديم علي محي الدين علي القرة داغي]، القاهرة: 1983، ص. 30.

(52) حول هذا الموضوع الخاص بتعلم القرآن الكريم وتعليمه، أنظر: **الكتاتيب القرآنية: الآليات -الأهداف -الآفاق. الرواية المتواترة وآليات الرسم والضبط والقراءة**، الجزء الثاني، م.س. ص.ص 191-404.

تحقيق أهدافه الموصلة إلى صولجان الحكم وكرسي السلطة[53]. أشار اليفرني والناصري والفضيلي وغيرهم إلى أنهم وقفوا على رسائل عديدة أرسلها العلماء الأندلسيون إلى المولى علي الشريف، يلتمسون منه الجواز إليهم، ويحضونه على الجهاد في بلادهم، واستنفار رجاله من أجل حماية بيضتهم، مؤكدين له أن كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم، دون توظيف سلطان عليهم "أموالا جزيلة بقصد الإنفاق على الغزاة الواردين معه"[54]، ومع ذلك فقد اكتفى بمنصب العلم عن السياسة[55].

بقي مولاي علي الشريف يسير شؤون هذه المدارس بنفسه، ويسهر عليها شخصيا، وينفق عليها من ممتلكاته الخاصة، ويحضر مختلف حلقها العلمية، ويعرف بمناهجها وطرق تدريسها في المغرب وخارجه، وذلك من خلال طقوس موسم الحج التي كانت تتم في تافيلالت؛ حيث يجتمع حجاج جنوب شرق المغرب جميعهم في ساحة مدرسة تيغمرت لإقامة "ليلة الوداع" التي تتميز بتلاوة القرآن الكريم على الطريقة الفيلالية، وذلك بتجميع الطلبة وحفظة كتاب الله، فيقومون بتخريج "السلكة"، أي تلاوة الفرقان كاملا، وذلك بتقسيم أحزابه الستين على الحفاظ الحاضرين، فيرتل كل منهم قسمته، وبعد ذلك ينتقل الحفل إلى الأذكار والأوراد، وإلقاء الكلمات بهذه المناسبة؛ مما جعل هذه العادة طقسا من طقوس مدرسة تيغمرت، يتم تخليدها سنويا، فكانت تستفيد منها على مستوى تبرعات الحجاج والموسرين منهم فقهاء وعلماء وتجارا، الذين كانوا يحملون إلى هذه المدرسة عددا من القراطيس والكتب النفيسة، فصارت هذه تيغمرت من أعظم مدارس المغرب في العهد المريني.

---

(53) أبو القاسم (الزياني)، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، القسم الأول (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، [دراسة وتحقيق رشيد الزاوية]، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني، مطبعة المعارف الجديدة، بالرباط، ط.1. 1992، ص. 101؛ الاستقصا، ج. 6. م.س. ص. 17.

(54) **الدرر البهية**، ج.1، م.س. ص. 121.
من هذه الرسائل: رسالة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الأندلسي الغرناطي بتاريخ أوائل شعبان عام 841هـ/ 1437م، ورسالة بن سراج الأندلسي مفتي غرناطة، توفي سنة 848هـ/ 1444م. انظر: **الأنوار الحسنية**، م.س. ص. 40. ورسالة أبي الحسن علي بن عبد الله، ورسالة أبي عبد الله محمد بن عمرو العكرومي القريشي شيخ الإمام المواق وبن غازي. انظر: **الدرر البهية**، ج.1، م.س. ص. 128-129. ورسالة أبي الحسن علي بن محمد بن مرشيش خطيب مسجد الأندلس. انظر: **الأنوار الحسنية**، م.س. ص. 44. ورسالة أبي عبد الله محمد بن أملال. انظر: **الدرر البهية**، ج.1، م.س. ص. 132. وغيرها من الرسائل؛ مثل: رسالة أبي عبد الله السراج وأبي العباس أحمد الموالسي، ورسالة الفقيه العلامة المرابط أبي زيد عبد الرحمن الرقعي، ورسالة الفقيه عبد الرحمن بن محمد الصغير بن الشيخ الحسن بن عبيد الله.

(55) أبو القاسم (الزياني)، **البستان الظريف**، م.س. ص. 101.

بقي مولاي علي الشريف ساهرا على شؤون هذه المدرسة إلى أن وافاه أجله في التاريخ أعلاه، فدفن بموضعها، قبل نقل رفاته إلى موقع مشهده الحالي من قبل حفيده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، على إثر فيضان ضرب المنطقة، "والذي أتلف الكثير من رسومها ومعالمها، وجرف عددا من قبروها ومزاراتها"[56]. أما مدرسة تيغمرت فقد استمرت إلى غاية بداية القرن العشرين عندما دمرتها القوات الفرنسية عام 1918 بعد اغتيال الحاكم العسكري الفرنسي بها[57].

3 . خلاصات واستنتاجات:

يمكن الخروج بعدة استنتاجات وخلاصات من خلال استقصاء وتتبع تاريخ هاتين المدرستين العتيقتين في تافيلالت، منها:

- إن موضوع المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت هو موضوع خصب ومنجم ثري، لا يحتاج إلى معالجته ضمن مقال من بضعة صفحات فقط؛ بل يتطلب دراسة وافية وشافية؛ لذلك ألفت انتباه القراء إلى هذه المسألة ليولوها العناية التي تستحقها، ويخرجوا ما في بطن هذا المنجم من كنوز جمة تعود على البلاد بالخير العميم والنفع العظيم.
- إن التأريخ للمدارس العلمية العتيقة في تافيلالت، هو في واقع الأمر تأريخ للمذاهب والملل والنحل التي تعاقبت على الديار الفيلالية منذ قيام إمارة الخوارج الصفرية في منتصف القرن الثاني للهجرة، وما أعقب المذهب الصفري من مذاهب شتى؛ كمذهب الإباضية والمذهب الشيعي الفاطمي والمذهب المالكي السني. هذه المذاهب لم تكن مطبوعة بالتعايش والتساكن، بقدر ما كانت محكومة بالصراع والاقتتال والتنافر والتناحر، وهو ما يعكس خلفياتها السياسية وأبعادها الأيديولوجية التي شكلت عقيدة للأنظمة والسلطات القائمة عليها، وهو ما يعني أن فك خيوط هذا النسيج المذهبي، هو في واقع الأمر نبش في الذاكرة العميقة لتافيلالت، وبحث في زمنها الطويل الممتد، الذي شكل قاعدتها الخلفية لما نراه فيها اليوم من طقوس وعادات في المأكل والملبس، وفي الولائم والجنائز، وفي كافة مظاهر حياتها الاجتماعية عبادات ومعاملات.

---

(56) **البستان الظريف**، م. س. ص. 482.

(57) محمد (المختار السوسي)، المعسول، الدار البيضاء: 1961، ج. 16، ص. 307؛ عبد الله (استيتيتو)، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر: 1873-1932 [دراسة في إشكالية العلاقات السياسية والوقائع الاجتماعية والتاريخية]**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس- فاس، السنة الجامعية، 2006-2007، ص. 322.
Capitaine Georges (Spillmann), **Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra**, Rabat, 1936, p. 99.

❖ إن دراسة المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت يعتبر مدخلا حقيقيا لرصد مدى مساهمة هذه البلدة في ترسيخ جملة من آداب المتعلمين في جنوب المغرب خاصة، وفي كافة البلاد المغربية عامة؛ وذلك لغزارة الفقهاء والعلماء وأهل الولاية والصلاح الذين عرفتهم الأصقاع الفيلالية، والذين مارسوا التعليم والتدريس والسلوك والإيراد، فرسخوا آدابا جماعية وفردية جلى في حقل التربية؛ مثل ربط العلم بالعمل، والحث عل الصبر والتحمل من أجل التحصيل والتعلم، واعتبار الرحلة شرطا من شروط طالب المعرفة، فكانت رحلاتهم مَحليَّة على صعيد الجنوب الشرقي، تجمع بين توات وتامكروت، والأطلس المتوسط، ومنهم من انتقل إلى فاس أو مراكش أو أنكَاد، ومنهم من شد رحاله نحو تلمسان والقيروان والأزهر والقدس الشريف والديار المقدسة في مكة والمدينة بحثا عن المشيخة، وطلبا للعلم.

❖ ساهمت المدارس العلمية العتيقة بتافيلالت، في إنجاح مشروع التعريب في وسط قبلي أمازيغي هائل داخل جنوب شرق المغرب، وذلك من خلال إعطاء الأولوية لتدريس اللغة العربية وتعلمها، وتشجيع أبناء الأمازيغ على الإقبال عليها والتمكن من مداخلها ومخارجها، فكان منهم العلماء والفقهاء، وأبدعوا في هذا اللسان نظما ونثرا، وصارت العربية غاية المقصد ومنتهى المورد بالنسبة إلى عامتهم وخاصتهم؛ وذلك لارتباطهم – ومازلوا – أشد الارتباط بكتاب الله وسنة نبيه، ولا أدل على ذلك من كون أشهر فقهاء المغرب وعلمائه فهم من أبناء هذا الجنس، بل صار الأمازيغ أنفسهم يعملون على نشر هذه المؤسسات التعليمية في أماكن قصية، ومجالات عصية، مثل مدرسة آيت عياش في تازروفت قرب جبل العياشي[58]، ومدرسة تامكَروت في درعة، ومدرسة تابوبكرت جنوب تافيلالت.

❖ يعتبر البحث في المدارس العلمية العتيقة في تافيلالت نافذة تمكن الباحث من الاطلاع على جملة من المجالات ذات الصلة بالعلم والعلماء ومؤسسات التعليم ودُوره؛ مثل الزخارف والأشكال الهندسية التي طبعت معمار هذه المدارس، وما اختصت به من خصائص على مستوى المآذن والصوامع والمحارب، وغرف الإيواء والمخازن وأماكن الشحن، وما ارتبط بهذا الحقل من صنائع وحرف؛ مثل صنعة النسخ والتجليد وتزويق الكتب وتنميقها، فضلا عن فن الخط ومعداته؛ إذ اشتهرت تافيلالت بألواح خشبية رفيعة مازالت مستمرة بها إلى اليوم، ناهيك عن مادة الصمغ، وانتشار غرس القصب على ضفاف زيز وغريس لاستغلال جزء منه في صناعة الأقلام القصبية، وذيوع صناعة وتقطير ماء الذهب لتوظيفه في تنميق القراطيس وتذهيب الكتب وإخراج نسخها في حلة بهية.

---

(58) حول مؤسس هذه المدرسة، ينظر: أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر (العياشي)، **الرحلة العياشية المعروفة بماء الموائد**، ط.2، مصورة بالأفسيط، وضع فهارسها محمد حجي، الرباط: 1397هـ/1977م.

❖ استمرارية هذا الإرث التاريخي الهائل، وترسخيه في وجدان الناس إلى حد اللحظة، بدليل أن تافيلالت تحتضن اليوم مدارس علمية عتيقة كثيرة؛ مثل مدرسة تاغنجاوت بقصر تاغنجاوت، ومدرسة تافيلالت العالمة قرب قصر مولاي أحمد الذهبي، ومدرسة الهدى بحي لمدرسا بالرصاني، ومدرسة مولاي علي الشريف قرب ضريح مولاي علي الشريف، ثم مدرسة سيدي التهامي بمقاطعة الغرفة، ومدرسة كويغلان بمقاطعة السفالات قرب المدرسة الحفيانية. كل هذه المؤسسات مازالت تمارس نفس الوظيفة التي كانت منوطة بها بالأمس، وهي وظيفة التدريس والتربية والتعليم والتأطير والتنشئة الاجتماعية، وترسيخ المذهب الرسمي للدولة (المذهب المالكي)، وتحفيظ القرآن الكريم للصغار والكبار ذكورا وإناثا.



مخطوطات المدارس العتيقة بسوس

ذ. مصطفى الطوبي
جامعة ابن زهر ، أكادير

يوجد في خزائن المدارس العتيقة بسوس عدد كبير من المخطوطات النفيسة والأسفار القيمة التي تشهد على نهضة علمية، حصلت في القطر السوسي، سارت بذكرها الركبان، وهي من كنوز المدارس التي تتوارى على الأنظار، ودونها خرط القتاد. وقد آلت هذه الكنوز حسب إجماع أهل العلم، وعلى رأسهم العلامة محمد المختار السوسي إلى الضياع والتشتت، والتفرق شذر مذر بين يدي الورثة الجاهلين بالعلم إلا فيما ندر من الحالات، وكان المختار السوسي يغمرنا بعبق هذا التراث بين الفينة والأخرى حينما كان يعرج على بيوتات سوس زائرا أو متفقدا أحوالها، أو مدرسا. وقد حوى المعسول نصيب الأسد من هذه الإشارات الثمينة، ومن ذلك أنه قال عن خزانة إليغ ما يلي :"فأتوني بكل ما في خزانة إليغ من الكتب فأمرت أن تماز لي المخطوطة وحدها فأقبلت إليها مفتشا ومما وقفت عليه من المخطوطة: مرائي الزواوي، بخط الأستاذ العلامة أحمد بن إبراهيم السملالي. وكتاب أدبي حسن بيد الأديب سيدي الحبيب البوسليماني ومجلد في أخبار سيدي محمد السنوسي... إلخ "[1]. وكان هذا ديدنه في باقي خزائن سوس الخاصة. وقد كان لي إلى هذه الذخائر سبيلان ضيقان ؛ أولهما هو الزيارة الخاصة التي غالبا ما تكون وعرة المسالك، وشائكة السبل، وثانيهما البحوث الجامعية التي أشرفت عليها في ما يقرب من عقد من الزمن[2]، والتي تتسلح بـ"الديبلوماسية الاجتماعية" إذا صحت هذه العبارة، لأن الإفضاء بدفائن الأسفار إلى الأبناء، أو أبناء العمومة، أو أبناء الدوار أو القبيلة من هؤلاء الطلبة المبتدئين، هو أهون بكثير من كشفها أمام الغرباء المجهولي الهوية. ولذلك لا يجد الباحث الأستاذ بدا من تحريض الطاقات الشابة على اقتحام هذا

---

(1) خلال جزولة، المختار السوسي، تطوان المغرب، الجزء 2. ص90 وما بعدها.

(2) من البحوث التي أشرفت عليها في التراث السوسي أو القريب منه ما يلي :

المحافظة على التراث وأهمية المخطوطات في الجنوب الشرقي، سكورة نموذجا،إنجاز الطالبة سناء مساعد، السنة الجامعية: 2010 / 2011 .

خزانة الإمام البخاري بماسة ؛معطيات عن المحتويات والتنظيم،إنجاز الطالبتين نعيمة ودرا وفاطمة الجواهري ، السنة الجامعية: 2010 / 2011 .

صورة جرد المتن في مخطوطات الزاوية الناصرية بتمكروت؛ دراسة حفرية نسقية، إنجاز الطالب عصام بنصالح، السنة الجامعية: 2009 /2010 .

المجهول في إطار المشاريع الدراسية الجامعية، ويكون العمل، وفق هذا المنظور، مثمرا لأنه يسهم بشكل أو بآخر في استخراج دفائن هذا الموروث الثقافي القيم، من خلال التعريف به، وجعله متداولا بين الباحثين. ومن نماذج الخزائن التي وقفنا بشيء من كنوزها من خلال البحوث الجامعية مخطوطات مدرسة سيدي سعيد الشريف ببيوكرى[3]، ومكتبة المدرسة العلمية العتيقة بأوخريب[4]، ومكتبات المدارس العتيقة بأنزكان[5]، ومخطوطات مكتبة مدرسة تنكرت العتيقة بإفران[6]، ومخطوطات مدرسة سيدي سعيد أومسعود بإقليم شتوكة أيت باها [7]، مع أني ألححت على زيارة عدد كبير منها على نحو المدارس القريبة من أكادير. وهناك خزائن كثيرة أخرى لأشخاص أعرضنا عنها لعدم ارتباطها بالمدارس العتيقة بصورة مباشرة، وقد قلنا فيها في سياق آخر، من مثل قولي في الخزانة الناصرية ضمن "منجزات جمعية علماء سوس في عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله :الجزء السادس" عبر مقال "مكتبة الزاوية الناصرية بين الأمس واليوم" [8]، وقولي في خزانة سيدي عبد الحميد الصوفي في كتاب :"العلامة عبد الحميد الصوفي أعماله العلمية وإبداعه الأدبي" [9]، وقولي في الخزائن الصحراوية من خلال مقال: "التراث الصحراوي المخطوط بين الجرد الأولي والدراسة الحفرية" ضمن كتاب "الصحراء المغربية :العلاقات البشرية والقانونية والثقافية"[10]. إنني لن أقدم شيئا من هذه الخزائن الخاصة إلا إذا تبين ارتباطها بالمدارس العتيقة التي تهمنا في هذا البحث.

---

(3) قامت الطالبة رشيدة الخيدري بإنجاز بحث تحت إشراف مصطفى الطوبي بعنوان : نيل الأماني في شرح التهاني لأبي الحسن اليوسي دراسة مادية للنسخة الموجودة في مدرسة سيدي سعيد الشريف ببيوكرى وذلك في الموسم الدراسي 2004 - 2005 وذلك قبل أن أزور المدرسة وأقف بنفسي على مزيد من نفائسها.

(4) أنجز الطالبان الحسين هوسيس ورشيد ربوع بحثا تحت إشراف مصطفى الطوبي بعنوان :المدرسة العلمية العتيقة بأوخريب -اشتوكة أيت باها -التاريخ والمكتبة والإشعاع العلمي وذلك في الموسم الجامعي :2005 - 2006 .

(5) المدارس العتيقة بإنزكان التاريخ - التنظيم - المكتبة، بحث من إنجاز الطالبة أبوزيا مينة إشراف مصطفى الطوبي الموسم الدراسي :2005-2006 م.

(6) أنجز الطالب إدريس ارجافي الله بحثا في هذا الموضوع، تحت إشراف الأستاذ مصطفى الطوبي بعنوان:مخطوطات مكتبة مدرسة تنكرت العتيقة بإفران الأطلس الصغير، مقاربة كوديكولوجية، السنة الجامعية 2005 - 2006 م.

(7) مخطوطات النحو بمدرسة سيدي سعيد أو مسعود، دراسة كوديكولوجية. بحث من إنجاز الطالبة مليكة كوار إشراف الأستاذ :مصطفى الطوبي، السنة الجامعية :2007 - 2008.

(8) منجزات جمعية علماء سوس الجزء6، مقال مكتبة الزاوية الناصرية بين الأمس واليوم، مصطفى الطوبي، منشورات جمعية علماء سوس، طبعة 2007 م ص338.

(9) العلامة عبد الحميد الصوفي أعماله العلمية وإبداعه الأدبي، تنسيق محمد الحاتمي وحسن الصوفي، منشورات فريق البحث في التراث السوسي، الدار البيضاء :2010 م.

(10) الصحراء المغربية :العلاقات البشرية والقانونية والثقافية، مقال «التراث الصحراوي المخطوط» ص : 143، منشورات جامعة القاضي عياض، المطبعة الوطنية، مراكش :2009 م.

المدارس العتيقة في سوس :

إن المدارس العتيقة التي تحوي هذه الثروة القيمة من الأسفار والكتب الغميسة، أكثر من أن نحصيها هي بدورها في أسطر قلال، فقد تحدث المختار السوسي في كتابه: "مدارس سوس العتيقة نظامها – أساتذتها"[11] على عدد كبير منها، مركزا أحيانا على نشأتها وشيوخها. وترتبط هذه المدارس في جانب كبير منها بالأسر العلمية المشهورة في سوس من مثل الأسرة اليعقوبية، والتزروالتية، والأزاريفية وغيرها كثير [12]. وهناك من تحدث عن المدارس حسب المنطقة التي توجد فيها على نحو ما فعله أحمد بزيد الكنساني الذي ذكر من المدارس العلمية للمنابهة مدرسة أولاد برحيل، ومدرسة عمر بن هارون، ومدرسة آيت صالح، ومدرسة تاماسط، ومدرسة إيكلي، ومدرسة الرزاكنة، ومدرسة السراحنة، ومدرسة تيكمي نتالاخت[13] . .إلخ و في حديث المختار السوسي عن المدارس العتيقة بسوس كان ينتهي، في بعض الأحيان، للحديث عن موضوع الكتب المرتبطة بها أو بفقهائها، وكان يعطي لهذا الباب الأهمية التي يستحقها. ونادرا ما كان يشير إلى مخطوطات المدرسة، كقوله مثلا بشأن المدرسة الأزارايفية: "وفي تلك المدرسة خزانة عتيقة تذكر، ولا تزال محفوظة"[14]. وله إشارات محتشمة في سوس العالمة كقوله في الأزاريفية: و"لهم خزائن محفوظة تزخر بالنوادر من المخطوطات فضلا عن غيرها. . ."[15]، وقوله في السالمية الصحراوية: "من أعاظم الأسر العلمية القاطنة في صحراء سوس، وتسلسل فيها العلم منذ أجيال، وهي ذات خزانة طافحة بنوادر الكتب"[16]. وقوله في التدسية "نسبة إلى قرية تيدسي، وهناك كانت بيعة الأول من السعديين، فمر هناك مجد عظيم وعلم وأدب، ولا تزال خزانة الأسرة محفوظة"[17]. وقوله في المسعودية "صارت المكتبة المسعودية تعد بمآت الدفاتر إن لم تصل ألفا فما فوق، وهي الآن مفرقة تحت يد أحفاد مؤسسها في المدرسة البونعمانية"[18]. وقد تحدث المختار السوسي في المعسول عن مأساة المخطوطات السوسية، ونكباتها المتكررة التي غالبا ما تكون في انتهائها

---

(11) مدارس سوس العتيقة نظامها –أساتذتها، هياه للطبع ونشره رضى الله عبد الوافي المختار السوسي، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة :1987.

(12) سوس العالمة، المختار السوسي، الدار البيضاء ط2– 1984، ص :121.

(13) من تاريخ الأطلس الكبير الحياة العلمية والأدبية في جبل درن الغربي، منشورات جمعية تالكجونت للتنمية والأعمال الاجتماعية، 2008 ص 268.

(14) مدارس سوس العالمة العتيقة، ص 114.

(15) سوس العالمة، ص 132.

(16) نفسه، ص 141.

(17) نفسه، ص 148.

(18) نفسه، ص 168.

إلى من لا يعرف قيمتها، وتفرقها شذر مذر بين الورثة. وبالرغم من النزيف الكبير الذي أصاب هذه المخطوطات عبر الامتهان، أو السرقة، أو البيع للأجانب، فمازال هناك كم منها مغلولا لدى أهله من فقهاء المدارس، وأعيان البلد، وحفدة الأسر العلمية المعروفة، وقد قدر الأستاذ إبراهيم أزوغ مخطوطات تيزنيت وحدها بعشرات الآلاف وخزاناتها بالمئات، ووقف المختار السوسي على حوالي مائة مدرسة من أصل ثلاثمائة إلى أربعمائة مدرسة. إن غلول الكتب[19] هو مرض نفسي تسببه مفارقة الحرص على المخطوط بصفته أثرا ثمينا وعدم الاهتمام بقيمته العلمية. وهذا الحرص هو الذي جعل كل فقهاء المدارس يرفضون نسبة المخطوطات إلى المدرسة، فنحن نقول مخطوطات فقهاء المدارس العتيقة. وللأسف فإن هذا الحرص، كما أخبرني بذلك العلامة الفقيه سيدي احماد اليربوعي، لم يأت إلا بعد فوات الأوان، وانتهاء الحرب على المخطوطات في النصف الثاني من القرن العشرين. لم يبق من المخطوطات إذن إلا النزر القليل وحثالة الكأس. فقد أخنى عليها الدهر، وأخسفها عدم معرفة قيمتها من لدن الورثة الذين يعدمون العلم على نحو ما أخبرنا المختار السوسي في المعسول، فقد ساق من هذه المآسي الأمثلة الكثيرة. وسأعتبر هذه المشاركة بداية البحث في هذا الموضوع الشائك، وإنما اقتصرت فيها على نماذج من المدارس.

إسهام علماء سوس في إثراء مخطوطات المدارس :

لم يكن علماء سوس يجمعون المخطوطات ويصنعون الخزانات فقط، بل كانوا علماء جهابذة، وأدباء كبارا أسهموا بشكل لافت للنظر في حركية الأدب في المغرب[20]، و كانوا يؤلفون الكتب القيمة، والأسفار النفيسة، والشروح الضافية، والحواشي المفيدة، الأمر الذي جعل المخطوط في هذه المدارس مسألة عديمة النظير، إذ إننا، أحيانا، نتجاوز العنوان بمفهومه الدقيق إلى الحواشي أو الشروح أو التشقيقات التي تطرز المخطوطة، والتي تعود غالبا لأحد أعلام المدرسة، والتي ما زالت تنشد منا أعمالا أكاديمية مستقلة. الأمر الذي أسهم ويسهم في رفد الخزانة السوسية، وقد كان المختار السوسي يذكر أحيانا في ترجمته للعلم الواحد عشرات المؤلفات من مثل ما فعله بخصوص العلامة محمد بن العربي الأدوزي، إذ ذكر له حاشية "أيسر المسالك. . ."، الذي ألفه والده في شرح الألفية، وكتاب الموالي، وكتاب الحيل، وكتاب الرحلة إلى الحمراء، وكتاب نظم الحكم العطائية، وكتاب العكاز، وتأليف في بيع الثنيا، وكتاب تشحيذ الأذهان في الأحاجي، وكتاب نظم في السيرة، و كتاب براءة الذمة، وكتاب في حكم

(19) غلول الكتب : احتكارها وحبسها حتى لا يستفاد منها ينظر : معجم مصطلحات، المخطوط العربي، أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي، منشورات الخزانة الحسنية، مراكش، 2005، ص :257 .

(20) ينظر بهذا الخصوص كتاب :الأدب العربي السوسي قضايا ودلالات، منشورات جمعية البحث في الأدب العربي السوسي وكلية الآداب جامعة بن زهر بأكادير، مراكش الطبعة الثانية :2007 م.

اللحن في القرآن، وكتاب العروس المجلوة، وكتاب أنوار الربيع بأزاهير البديع... إلخ[21]. وذكر للطاهر بن محمد الإيفراني نظم مختصر خليل في ستمائة بيت، ونظم رسالة العضد، والحكم العطائية [22]. وقد كان السوسيون يؤلفون في كل المجالات العلمية، ومن ضمن ما ألفوا في آداب العلم : كتاب "تمام النصيحة في إرشاد الطلبة" ليبورك بن عبد الله السملالي، وكتاب "المدرسة الأولى" لصالح بن عبد الله بن محمد الصالحي الإلغي، و"رسالة في آداب التعليم" للعلامة محمد بن أحمد الحضيكي، و"رسالة في تعليم الصبيان" للشيخ أبي عبد الله محمد بن يدير الحامدي الجزولي [23]. ومن ضمن ما ألفوا في الحديث"شرح البخاري" للحضيكي، و"شرح الشفا" للحضيكي، و"مختصر شرح النووي" على مسلم لسيدي عبد الرحمن بن إبراهيم التغرغوتي [24]، ومن ضمن ما ألفوا في الأدب: " شرح الشمقمقية " لعبد العزيز الأدوزي، و"شرح الهمزية" لإبراهيم بن صالح الشريف التازروالتي، و"شرح لامية العجم" لمحمد بن مسعود المعدري، و"شرح الجوهر المكنون في علوم البلاغة" لأبي سالم إبراهيم الإكراري، و"أنوار الربيع بأزهار البديع" وشرحه لمحمد بن العربي الأدوزي [25]، وشرح "بانت سعاد" لمحمد بن علي اليعقوبي الهلالي، وشرح "المقصورة الدريدية" للحسين بن محمد بن إبراهيم الأسغركيسي الولياضي، [26] ومن ضمن ما ألفوا في علوم القرآن" تنبيه العطشان على مورد الظمآن" للحسين بن على الركراكي الشوشاوي، ومن ضمن ما ألفوا في التفسير "الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة" للحسين بن على الركراكي الشوشاوي[27]. وهكذا يتبين لنا بشكل واضح من خلال هذه الأمثلة التي سقناها، أن أهل سوس كانوا أهل علم، وأن خزائنهم كانت، في جانب منها، ملأى بالتصانيف التي جادت بها بنات أفكارهم، وأن أغلب المخطوطات التي توجد في هذه الخزائن هي مخطوطات وأسفار غميسة، إذا صرفنا النظر عن المخطوطات المدرسية التي كانت تدرس في هذه المدارس، وذلك لارتباطها بأعلام هذه المنطقة تأليفا، أو شرحا، أو نظما. ولذلك نجد كل المشروعية في تعقب هذا التراث لأنه ليس في عمومه تراثا مجترا ومعروفا، وإنما يخبئ، في كثير من الأحيان، لآلئ علمية جديرة بالقراءة والتحقيق.

---

(21) المعسول، الجزء :5، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1960 م ص :184 – 185 .

(22) المعسول ج 4، ص230 .

(23) المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي، ص 211.

(24) شعر الجشتيميين، ص 68.

(25) نفسه، ص 94 – 95.

(26) نفسه، ص94

(27) كنا– أعني فريق البحث في التراث السوس –قد عقدنا ندوة عن هذا العلم الجليل بعنوان :«الحسين بن علي الشوشاوي، شخصيته وتراثه العلمي» وذلك يوم الأحد 18 ماي 2008 م بأولاد برحيل إقليم تارودانت .



مخطوطات المدارس العتيقة بسوس :

سأسوق جملة من هذه الأسفار المرتبطة بعدد محدود من المدارس العتيقة، تلك التي سنحت لي الفرصة بزيارتها، وأعترف أن القول في هذا الباب أمر دونه خرط القتاد، بسبب واقع الأبواب الموصدة دون هذه المخطوطات الحبيسة، ثم إن هذه المخطوطات هي، بشكل من الأشكال، ملك للفقيه إلا فيما ندر من الحالات التي ترتبط الخزانة بالعائلة، وأعتبر أن الصهر على إخراج هذه الثروات بكل الإمكانيات المتاحة هو ضربة لازب بالنسبة لكل القيمين على موروثنا الثقافي.

مخطوطات مكتبة مدرسة سيدي عبد الرحمن/ قبيلة ايت آمر:

زرت الفقيه الشاعر إد إبراهيم إبراهيم التامري صاحب "المتعة والراحة في تراجم أعلام حاحة"[28] رفقة الدكتور محمد الحاتمي في بيته بإنزكان، وقد استقبلنا بحفاوة العلماء، ووداعة الأصفياء، وتذاكرنا في قضايا العلم والمخطوطات، فلما انتهيت إلى قصدي من الزيارة أخرج لي الأسفار الآتية : "الأعلام بجرود قواعد الإسلام" للقاضي عياض، و"شرح أبي العباس القباب الفاسي"، و "إيضاح الأسرار المصونة في الجواهر المكنونة" للشيخ سيدي أحمد بن سليمان الجزولي الرسموكي، و"إظهار صدق المودة بشرح قصيدة البردة" لابن مرزوق، انتسخه محمد بن عبد الله أوبلا الودريمي الهشتوكي في رجب 1291هـ، و"عمدة الطالبين لفهم ألفاظ المرشد المعين" لأبي عبد الله محمد أحمد بن يعقوب السملالي الأدوزي، و"نوازل العباسي" (ت1152هـ)، و"حلية الجواهر المكنونة في صدق الفرائض المسنونة" لأحمد بن سليمان الرسموكي ت113هـ، و"نوازل الشيخ بن ناصر دفين تمكروت"، و"الرحلة العبدرية" للعبدري الشهير بابن المعلم، ومجموع فيه الكتب الآتية:

- "إرشاد المتعلم وتنبيه المعلم للفرائض" الشيخ خليل، لعلي بن محمد القريشي القلصدي.
- "تقييد بعض مسائل الحساب" لعلي بن أحمد بن محمد الجزولي الرسموكي.
- تأليف لابن عثمان سيدي سعيد الوجاني.

وتعكس هذه المخطوطات مدى العناية التي يوليها هذا العالم إلى أوعية المعرفة، وحرمة الكتاب إذ إنها مصونة ومحفوظة بعناية كبيرة. وفي هذه الأسفار المذكورة عدد كبير من التقاييد والحواشي وخوارج النصوص، والتشقيقات التي تستأهل دراسات متخصصة في مباحث النساخة بمفهومها الحديث.

---

(28) طبع الكتاب عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، سنة : 1995 م.

مخطوطات المدرسة الأغيلالنية :

قال العلامة المختار السوسي في فقيهها سيدي أحمد المسعودي بن الحاج مسعود الوفقاوي، رابطا إياه بالمدرسة المذكورة :"بقبيلة مسكينة، وهي قديمة كما يظهر، وقد كان هناك الفقيه يحيا المدفون إزاءها مدرسا، على رأس القرن الماضي، وهو من أصحاب الحضيكي، ذكره الاكشتيمي فيهم، ثم لم نعلم أحدا آخر مر فيها، حتى طارت شهرتها أخيرا بالحاج مسعود" [29]، وكان في المدرسة المذكورة أي المدرسة الأغيلالنية ما يقرب من 1000 مخطوط إلى حدود 1947م، ويبلغ عددها اليوم حوالي 250 مخطوط، يشتغل بفهرستها كل من الأستاذ محمد الحاتمي والأستاذ المهدي السعيدي، وقد زرت هذه المكتبة برفقة الأستاذ محمد الحاتمي، ووقفت على شيء من أسفارها ومن ذلك : "نسخة خزائنية من موطأ الإمام مالك"، نسخها محمد بن عبد السلام الوزير الغساني (انتهى منها يوم الجمعة 3 محرم 1193هـ)، و"السفر الأول من شرح الودياني الصنهاجي على مختصر خليل" كتبه إبراهيم الصرغي السكتي الحميدي الأحد 7 شوال 994هـ، وكتاب في الأخبار مجهول المؤلف انتسخه أحمد بن محمد بن عبد العزيز 929هـ، ونسخة من "عقيدة أبي عمران الجوراني"، كتبها عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله الوداي، وانتهى فيها يوم الأحد 18 شعبان عام 1102هـ، ونسخة من" غريب القرآن" لأبي بكر محمد السجستاني، مكتوبة بخط مشرقي جيد، ونسخة من جزء من "ريحانة الكتاب" للسان الدين بن الخطيب، ونسخة من "رسالة السلطان" المولى إسماعيل إلى التربة المقدسة، نسخها بن زاكور، ونسخة من "الفتوحات الواقعة والمراجعات التابعة" للغرناطي، مجهولة الناسخ، ونسخة من "إيضاح مهمات العروض" لأحمد بن سليمان الرسموكي الجزولي، ونسخة من "شرح لامية الأفعال" ليورك بن عبد الله السملالي، ونسخة من "ديوان بن الفارض" مكتوب بخط مشرقي جميل، وتسفير محدث، و مجموع فيه الكتب الآتية ؛ كتاب "نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء الأكابر والأعيان" نسخ في 17 جمادى الأخيرة 1095هـ، و كتاب "تفريج الكرب عن قلوب أهل الأرب في معرفة لامية العرب" لمحمد بن القاسم بن زاكور نسخ في ربيع الأول 1111هـ، و كتاب "موشح وأشعار ومقيدات" للقاسم بن محمد بن زاكور.

(29) مدارس سوس العتيقة نظامها أساتذتها، محمد المختار السوسي، هيأه للطبع ونشره رضا الله عبد الوافي المختار السوسي، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر للشمال طنجة 1987، ص :93

مخطوطات مدرسة " تراس" بانزكان

زرت الفقيه الأغر سيدي احماد اليربوعي في مدرسته بتراس بانزكان، واستقبلني بهشاشة وبشاشة، وكانت فرصة لي للوقوف بواقع التدريس في المدرسة المذكورة وصلة الكتاب المخطوط بصنعة العلم، فكان أن أوقفني، حفظه الله، على مكتبته، ومن ضمن ما وجدت فيها: نسخة من "التبيان على إعراب القرآن" لأبي البقاء عبد الله بن الحسن بن عبد الله العكبري القرطبي، نسخها محمد بن سعيد بن علي سنة 1144هـ، وسفرها الفقيه سيدي احماد اليربوعي، و"شرح بن عاصم لصاحب المنظومة" بن عاصم أبي بكر بن عاصم القيسي" و"السفر الأول من شرح عبد السلام التسولي على تحفة بن عاصم"، و"شرح المرادي على ألفية بن مالك" تسفير قديم، نسخها محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن البعقيلي الجزولي صبيحة الأربعاء أول جمادى الثانية 974هـ، و مجموع قيم فيه الكتب الآتية: "منظوم الأخبار" لابن سعيد اكرام السملالي السوسي، كمل نسخه يوم الثلاثاء 1223هـ بيد محمد بن علي اليربوعي، تقاييد في آخر الكتاب. ومجموع آخر فيه الكتب الآتية: خواص أسماء الله الحسنى وخواص بعض آيات القرآن الكريم، وكتاب يتعلق بالأطعمة والأشربة، وكرامات سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي نسخه محمد بن إبراهيم الوادريمي تم الفارسي سنة 1256هـ، وكتاب التنبيه على بعض مناقب سيدي أحمد بن موسى الرسموكي التزروالتي لأحمد بن محمد ادافال السساني الحسن السوسي.

و نسخة من "مذكرة الحاج" لسيدي احماد اليربوعي فقيه المدرسة، ونسخة من " القول الأفصح في أن سدل اليدين في الصلاة هو المذهب الأصح" لليربوعي، و نسخة من "ذكريات مع الحاج الحبيب التنالتي" للفقيه احماد اليربوعي، ونسخة من "واقع تدريس العلوم الشرعية في المدارس العتيقة"، و"فتاوى أخرى" لليربوعي. وأشير إلى أن مؤلفات الحاج احماد اليربوعي في حد ذاتها كتب غميسة، نتمنى أن يخرجها فقيه المدرسة نفسه، أو أن ينتدب لها من ينفض الغبار عنها، ويظهرها لجمهور القراء.

مخطوطات مدرسة سيدي سعيد الشريف ببيوكرى

زرت فقيه المدرسة الحاج احماد أبو الهنا يوم الثلاثاء 7 فبراير 2006 م برفقة الدكتور عباس البشاري [30]، وبعد أن أظهرت له رغبتي في المخطوطات ضرب لي موعدا بالأحد 12فبراير 2006م مساء. وفي الموعد المحدد، استقبلني، وأبدا جملة من الملاحظات على مشروع المعجم الذي أشتغل به مع الأستاذ أحمد شوقي بنبين، وكنت قد أهديته هذا العمل في اللقاء الأول. وأخرج لي مخطوطات قيمة من خزانة المدرسة، ومما وجدته في هذه المكتبة: "نيل الأماني

(30) أستاذ بكلية الآداب بأكادير .

في شرح التهاني" لأبي الحسن بن مسعود اليوسي، و"كتاب التثبيت في ليلة التبييت" للإمام عبد الرحمن السيوطي، و"شرح علي الأرجوزة الأخضرية في القواعد المنطقية" لمؤلف مجهول، و"مورد الظمآن" لمحمد بن محمد بن إبراهيم الشريشي، و" إرشاد المسافر للرسم الوافر" لمؤلف مجهول، و"حلية الأنوار في أخبار دار القرار" للشيخ عبد العزيز الرسموكي أحد أشياخ اليوسي، و" شرح الدادسية في التوقيت" لأحمد بن سليمان الرسموكي، و"شرح سعد التفتازاني على تلخيص المفتاح للقزويني"، وجملة من التقاييد والمجاميع الأخرى التي يعز المقام على ذكرها.

مخطوطات مدرسة المسجد الكبير بتيكوين

قيل لي إن فقيه المدرسة الحاج عبد الله الفارسي يتوفر على مخطوطات نادرة، وقد زرت المدرسة فلم أجده هناك، ودلني على منزله أحد طلبة المدرسة، فاتصلت بابنه محمد في بيتهم بحي الزيتون بتيكوين، فأخبرني بمرض أبيه، وأهداني بعض مطبوعاته ومنها "الرتائم الجميلة..." . الذي يعتبر أحسن ما كتب عن العلامة الحاج الحبيب التنالتي، ووعدني على أن يطلعني على هذه المخطوطات.

وبعد شهرين بلغني نبأ وفاته رحمه الله، فلم أراود بعد أبنائه على الدفاتر الموجودة في مكتبته إلا مؤخرا، إذ أعدت زيارة الحاج محمد نجل سيدي عبد الله الفارسي، فأوقفني جزاه الله خيرا على مجموعين قيمين، ووعدني أن يبحث عن التقاييد والكنانيش المتبقية في فترة أخرى. ويضم المجموعان الكتب الآتية :

– المجموع الأول : يضم كتاب "الإشارة إلى علم العبارة" لمحمد بن أحمد بن عمر، أبو عبد الله السَّالِمِي (المتوفى: 800هـ) (نسخه الفقيه سيدي أحمد بن علي بن محمد بن أحمد في سنة 1235 هـ، ونسخة من شرح البردة لسيدي سعيد بن سليمان الكرامي السملالي من نسخه أحمد بن علي بن محمد من ذرية سيدي يحيى بن موسى، وقصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مجهولة الناظم أولها :

سكن الفؤاد فعش هنيئا يا جسدْ هذا النعيم هو المقيم إلى الأبدْ

وهمزية البوصيري مشققة مجهولة المشقق، يستأهل تشقيقها تجميعا خاصا يفضي إلى تحشية جديدة أو شرح جديد، انتسخها الفقيه محمد بن علي بن محمد الهشتوكي الشبي في 1238 هـ، ويرجح أن يكون هو صاحب التشقيق. ونسخة من متن البردة خالية من أي تشقيق أوشرح.

– المجموع الثاني ويضم كتابين هما شرح بن عاشر لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي ممزوج برجز وإعراب شرح بن عاشر يرجح أن يكون للشارح نفسه.

مخطوطات المدرسة التيدسية:

قال عنها المختار السوسي في "سوس العالمة"[31] إنها تعود إلى السعديين، وإن خزانة الأسرة مازالت محفوظة هناك، وقد زرتها يوم الأربعاء 7فبراير 2006م، فوجدت المدرسة مغلقة، وقيل لنا إن الفقيه العربي الأنصاري مريض، وإن الطلبة قد تحولوا إلى مدرسة إدامنو. وقد اتصلت بمصطفى بن الفقيه مرارا بدون جدوى، و بلغني أن الأستاذ إبراهيم أزوغ وضع جردا لهاته المكتبة، يتضمن حوالي 750 كتابا. فيها حوالي 500 مخطوط، وتهيمن عليها كتب الحديث، والتصوف، والفقه، كما توجد فيها مجموعة كثيرة من الوثائق، والظهائر السلطانية. ومن المخطوطات الموجودة فيها: نسخة من "الأمالي" للسيهلي، ونسخة من "الروض الأنف" للسهيلي، و مجموع خزائني من الصحيحين، و نسخة خزائنية من دلائل الخيرات، ثم ما لبث أن زرت الخزانة بنفسي وكتبت عنها بحثا منشورا في كتابي: "من أجل دراسة حفرية للمخطوط العربي :محاولات تطبيقية في علم المخطوطات" [32]. فألفيت أنها تضم نوادر الأسفار مثل كتاب:" قواعد الإسلام. . ." لسليمان بن خلف الباجي الذي انتسخه في الزاوية التيدسية أحمد بن محمد بن محمد بن مسعود التيدسي، في ذي الحجة عام 996 هـ، و"متن الرسالة القيروانية"، التي انتسخها الشيخ مبارك بن إبراهيم التيدسي، و"أيسر المسالك إلى ألفية بن مالك" لمحمد العربي الأدوزي[33]، ونسخة من "الأسماء المبهمة "انتسخها علي بن أحمد التشكدلتي في 1293 هـ، و نسخة من كتاب: "المعرفة على مراد الربوبية"، [34]الذي نسخه إبراهيم بن سعيد بن داود الشطاحي سنة 984 هـ، ونسخة من مؤلف في العقيدة[35]، لأبي عثمان بن سعيد بن أبي عبد الله العقباني المنتسخة سنة 909 هـ، ودفاتر أخرى عديدة تعاورت على نسخها شيوخ الأسرة التيدسية نفسها، مثل عبد القادر بن محمد بن محمد التيدسي، ومحمد بن أحمد التيدسي، وأحمد بن أحمد التيدسي، و تضم من جهة أخرى، مخطوطات أجنبية وفدت إليها تحديدا من البلدان الإسلامية الأخرى مثل الجزائر،

---

(31) سوس العالمة، ص 148.

(32) من أجل دراسة حفرية للمخطوط العربي :محاولات تطبيقية في علم المخطوطات، مصطفى الطوبي، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات، القاهرة :2010 م .

(33) حققته الباحثة نجاة أبوية في إطار رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الآداب.

(34) المخطوط رقم : 817.

(35) المخطوط رقم : 800.



وتونس، وليبيا، وتركيا، وفلسطين، ومصر، وإيران، والأندلس، والسودان. ومن هذه المخطوطات المهاجرة في هذه المكتبة العتيدة أذكر نسخة من كتاب"شرح جمع الجوامع في أصول الفقه والدين"[36] لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي (ت791هـ864م)، ونسخة من "صحيح البخاري"[37] لمحمد بن إسماعيل البخاري، نسخها عبد الله بن محمد بن عبد الله النبهاني، ونسخة من "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني[38]، ونسخة من "تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام"[39]، لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون (ت 799 هـ)، ونسخة من"شرح عقيدة السنوسي"[40]، لمحمد بن محمد بن إبراهيم التلمساني (ت 897 هـ 1492)، ونسخة من صغرى السنوسي[41] لمحمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ)، ونسخة من "منظومة التوحيد"[42] المعروفة بـ"الجزائرية في العقائد الإيمانية"، للشيخ الإمام القدوة أبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري، (ت 884 هـ1479م)، ونسخة من "شرح مورد الظمآن"، لمحمد بن إبراهيم الشريشي (ت718)، ونسخة من "أحكام السهو في الصلاة"[43]، لأبي الحسن علي بن يحيى المالقي، وغير هذا كثير من عيون الدفاتر الموجودة في هذه الخزانة العتيدة التي كانت منارة العلم على عهد السعديين، كما ذكر ذلك المختار السوسي رحمه الله، ومازالت إلى الآن قبلة للباحثين والأساتذة المتخصصين في التراث.

مخطوطات المدرسة الأزاريفية

وقفت على مخطوط من المكتبة المذكورة بعنوان : "بهجة الناظرين وآيات المستدلين" تأليف العلامة مرعي الحنبلي المقدسي، وهو منتسخ بخط مشرقي جميل، و مصور على الورق عند أحد أحفاد فقيه المدرسة الأزاريفية، ويتعلق الأمر بالفقيه الشاعر أحمد الشبي المشارط بأحد مساجد تيكوين. وقد كانت لي محاولات فاشلة لزيارة مكتبة الحاج عبد الله الأزاريفي أخ أحمد الشبي المشار إليه أعلاه. وبقيت وفي نفسي شيء منها. وقد استقيت معلومات مأخوذة عن الأستاذين البشير التهالي ورشيد كناني اللذين كانا قد زارا المكتبة في 2001م وعلى هذا الأساس يمكن القول إن مخطوطات المكتبة المذكورة ثلاثة أقسام:

(36) المخطوط رقم : 226.

(37) المخطوط رقم : 70.

(38) المخطوط رقم : 87.

(39) المخطوط رقم : 243.

(40) المخطوط رقم : 205.

(41) المخطوط رقم : م 206 الكتاب : 1.

(42) المخطوط رقم :م 206 الكتاب : 5.

(43) المخطوط رقم : 389.

القسم الأول : مخطوطات المدرسة الأزاريفية بأربعاء أيت حامد، بعيدة بـ26كلم عن أنزي تقدر بـ400 مخطوط. ومن نوادرها: نسخة من "العمدة" نسخت في 630هـ، بخط نسخي قديم منقولة عن نسخة المؤلف، ورقها قديم صامد، فيها بتر لأربع صفحات من الوسط، ونسخة من "ديوان سعيد بن علي الحامدي" (ت973هـ)، أقدم ديوان شعري في سوس حققه رشيد كناني ضمن أطروحة جامعية نوقشت بفاس ظهر المهراز 2005م، واعتمد فيه مجموعا للفقيه المنوني رحمه الله، يوجد فيه حوالي النصف تقريبا (إشراف الأستاذ أحمد العراقي)، ونسخة من "تذكرة الكحالين في أمراض العيون" لعلي بن عيسى انتسخ في 538هـ بخط نسخي جميل فيه تملكات، و النسخة الوحيدة من "جنى الأزاهر النضيرة وسنى الزواهر المنيرة في صلة المطمح والذخيرة مما ولدته الخواطر من المحاسن في المدة الأخيرة"، لأبي الحسن بن الفخار الرعيني الإشبيلي، وتعد هذه النسخة من نوادر هذا القسم من الخزانة الأزاريفية. ونسخة من كتاب الرعيني (ت666هـ) مبتور الأول والأخير، يشتغل بتحقيقه البشير التهالي و رشيد كناني، وأصدرا منه الجزء الأول، ومازال الباقي قيد التحقيق، و"نسخة من رحلة العبدري" مبتورة الأول نسخت في 800 هـ، أتمها إبراهيم التامري، ونسخة خزائنية من "صحيح البخاري" مزخرفة ومذهبة، ونسخة من "شرح حديث الاستخارة" للفيروزيادي نسخت بخط مشرقي جميل في القرن 11هـ، ونسخة من " تمييز المشكل" للجياني انتسخت في 700هـ(طبعتها وزارة الأوقاف)، و نسخة من "الحلل الموشية" لابن السماك العاملي. وكتاب " شرح البردة" للأليري الأندلسي في نسختين تامتين وقديمتين. ونسخة من "شرح الخزرجية" لزكريا الأنصاري، ونسخة من "مختصر العين" للخليل للزبيدي الاندلسي (نسخة تامة)، ونسخة ملوكية من "دلائل الخيرات" أهديت للسلطان محمد السادس في 2001هـ.

القسم الثاني: ويوجد هذا القسم في اشتوكة عند الحاج عبد الله الأزاريفي في مدرسة أيت حمو، وهو فقيهها. ومن ضمن ما يوجد في هذا القسم" شرح سقط الزند " لأبي العلاء المعري لابن السيد البطليوسي، و نسخة من "المستصفى" للإمام الغزالي بخط مشرقي، ونسخة من "تلخيص إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة" لابن مرزوق، انتسخ في 1054هـ نسخه إبراهيم التارودانتي الودريني تلميذ عبد الرحمن التمنارتي. ونسخة من "شرح الجوهر المكنون" للأخضري، شرحها الولالي المكناسي(ت1128هـ).

القسم الثالث : عند الأخ الثالث بأربعاء أيت حامد مشارط بمسجد هناك (لا يعرف ما فيها، وهو أب أحمد الشبي المشارط بتيكوين).

مخطوطات المدرسة التازروالتة

ذكر المختار السوسي أنها تعود إلى القرن 10هـ، ووقف على مجموعة من الفقهاء الذين تعاقبوا عليها، وقد سألت عنها الأستاذ البشير بن الشريف (أستاذ بالمركز التربوي

بأكادير، وسليل بلدة تزروالت)، فذكر لي أن فيها مخطوطات كثيرة مثل نسخة من مخطوط غميس في "الضرائب التي تؤدى محليا"، ونسخة عن مخطوط في "عقود الزواج التي تحيط بتازروالت"، ونسخة من "مسائل التصوف في منطقة تزروالت"، ونسخة من سفر غميس في "العلاقة بين الشرفاء واليهود" إلى جانب نسخ خزائنية كثيرة من المصحف الشريف، و تفاسير كثيرة، ونسخ في علوم القرآن والفقه، ونسخ خزائنية قيمة من "دلائل الخيرات" للجزولي واتفقنا على أن نزورها في وقت لاحق، وتأسف الأستاذ كثيرا على النزيف الذي لحق بها وضياع المئات من مخطوطاتها ودفاترها.

مخطوطات المدرسة اليعقوبية

ذكر لي الفقيه اليربوعي أن مخطوطات المدرسة اليعقوبية في سيدي يعقوب نواحي "أيت بها" قد تفرقت بين الورثة، وانتهت إلى فقيه مدرسة " تعلاط" جماعة الحلات التابعة لدائرة "أيت بها" جل كتب هذه الخزانة. ومازلت مصمما على أن أقف بنفسي على مصير هذا الإرث العلمي الهام.

مخطوطات مدرسة تنالت:

تحولت مخطوطات مدرسة تنالت إلى مدرسة أيت ميلك، لأن الفقيه المشارط في مدرسة أيت ميلك هو ولد أخت الحاج الحبيب وصهره، وحاز مخطوطات تنالت بوصية من هذا الأخير. وأخبرني أحمد المسعودي أنه بمجرد ما توفي الحاج الحبيب التنالتي تشتت خزانته وقد أخذت منها حوالي 200 مخطوط دفعة واحدة سطوا. وقد توفي الآن الحاج إبراهيم الملكي بن أخت الحاج الحبيب، وبقيت المكتبة بين أيدي الورثة. ولا يمكن النظر إليها.

مكتبة مدرسة الوناس بأقا:

ذكر المختار السوسي جدهم الأول عبد الرحمان الوناسي، وقد انتهت المكتبة إلى فقيه المدرسة الآن محمد الهاشم الوناسي. وقد اشتغلت الطالبة فوزية الخطاب بمخطوطات هذه المدرسة تحت إشرافي[44] و مما وقفنا عليه من هذه المكتبة:

نسخة من "التعريف والإعلام بما انبهر من القرآن من الأسماء والأعلام" للشيخ السهيلي، ونسخة من مخطوط نسخه الفقيه محمد بن أحمد الدرعي سنة 994 هـ، ونسخة من "مجموعة من القصائد الشعرية لشعراء سوسيين"، انتسخها محمد بن

(44) مكتبة محمد الهاشم الوناس بأقا إقليم طاطا، الإدارة المحتويات التنظيم، الطالبة فوزية الخطاب، إشراف مصطفى الطوبي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير. السنة الجامعية :2005 - 2006.

أحمد الدرعي سنة 994هـ، و نسخة من "كتاب شمائل الرسول لأبي عيسى محمد أيت عيسى الترمذي"، و نسخة من "كتاب الغزوات" لابن إسحاق انتسخ 1141هـ، و نسخة من "قاموس أمازيغي عربي" لإبراهيم بن علي الأمارتيني، ونسخة من " موازن الحروف" لإمام الحافظي، ونسخة من " النكت والإشارات في شرح المقامات" للأنباري، ونسخة من "شرح ميارة على متن بن عاصم" نسخه أحمد بن عبد الله الزياتي، ونسخة من "علم الفلك" لسيدي عبد الرحمن بن القاضي نسخه الحسن بن أحمد أبعدي التيوبي، في 1090 هـ، ونسخة من "تحفة الفضلاء لبعض فضائل العلماء" لأحمد بابا التنبكتي، ونسخة من "التنوير في إسقاط التدبير" لمحمد بن علي بن إبراهيم التسكلني، ونسخة من "شرح المقدمة الولغيسية" لأحمد بن أحمد البرنيسي الفاسي انتسخت سنة 1168هـ.

مخطوطات مدرسة إداومنو

زرت الفقيه العالم الوقور الحاج عبد الله أغوري المدرس بمدرسة إداومنو العتيقة يوم الأحد 12من فبراير 2006 برفقة الأستاذ الدكتور عباس البشاري، ومدرسة" إداومنو" تبعد عن بيوكرى بحوالي أربعين كيلمترا، ومكثنا في المدرسة من عصر اليوم المذكور إلى ما بعد العشاء. وقد استقبلنا الفقيه سيدي عبد الله الأغوري ببشاشة قليلة النظير، وبحفاوة عالية، وأتحفنا بعرض جملة من نصوصه الشعرية القيمة، وأوقفنا على مخطوطاته في مكتبة مخصوصة بها في بيت ملصق بالمدرسة، ومما وقفت عليه في هذه المكتبة نسخة من " تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومنهج الأحكام" لابن فرحون، ونسخة من " شرح قصيدة الزقاق" لمحمد بن محمد الدليمي الورزازي الدرعي، ونسخة من كتاب "أوزال" للهوزلي، ونسخة من " شرح منظومة بن جماعة التونسي"، ونسخة من "تحفة الأريب ونزهة اللبيب" لأبي مدين أحمد بن محمد بن عبد القادر القاسمي، ونسخة من "الهدية المقبولة" لابن صالح الدرعي، وسفر خزائني بديع في خطه وزخرفته من صحيح البخاري، ومخطوطات أخرى من المصاحف الكريمة، والتفاسير يعز المقام عن تعدادها.

مخطوطات خزانة سيدي عبد الرحمن بن ابراهيم التغرغرثي الهوزلي.

وهي مكتبة كبيرة بدائرة إغرم، يتولاها الآن الفقيه الحاج الطيب الذي تعرفت عليه بزاكورة في صيف 2006 أثناء ندوة "الزاوية الناصرية"[45]، وقد حرص الحاج الطيب على تنظيم هذه المكتبة في غرفة لا بأس فيها، ويوجد فيها من الأسفار مقطوعات كثيرة من المصحف الشريف، وكتب في الفقه مثل نسخة من " الدار الثمين في شرح المرشد المعين" لمحمد بن أحمد

(45) التي نشرت في 2007 تحت عنوان «منجزات جمعية علماء سوس الجزء السادس».

ميارة، و نسخة من "كفاية الطالب الرباني" لأبي الحسن علي بن محمد المنوفي، وكتب في الحديث مثل نسخة من " التوشيح على البخاري" لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، و نسخة من " كتاب الجامع الصحيح" لمحمد بن إسماعيل البخاري، وكتب في التفسير مثل نسخة من " تفسير القرآن العظيم" للحسين بن مسعود البغوي، و نسخة من "الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لأبي الحسن علي الواحدي، وهناك كتب أخرى كثيرة في كل المجالات المعرفية الأخرى.

مآل مخطوطات المدارس العتيقة :

أغلب من قال في هذا الموضوع، تأسف على المصير المأساوي الذي انتهت إليه المخطوطات المرتبطة بالمدارس العتيقة، أو بالأحرى بفقهاء المدارس العتيقة،إذ إن أغلب مخطوطات المدارس العتيقة قد أصبحت أثرا بعد عين، وهكذا فمدارس منطقة إيفني مثلا حسب رئيس المجلس العلمي للمنطقة الفقيه إبراهيم القداح أصبحت فارغة من كل أثر للمخطوطات من مثل مدارس منطقة أيت بعمران(مدرسة بوكرفا–مدرسة تانكرفا –مدرسة سيدي زكري إلخ)، و مدارس منطقة الاخصاص (مدرسة أيت ترخا– مدرسة سيدي همو الحسن –مدرسة ثلاثاء أوفلا –مدرسة اوغللو)، ولم يكن الفقهاء أحيانا مستقرين في مدرسة واحدة الأمر الذي يؤدي إلى انتقال هذه المخطوطات أو بعض منها من مدرسة إلى أخرى. ومسألة انتقال الفقهاء بين المدارس حقيقة يعرفها القاصي والداني. وكان المختار السوسي رحمه الله يشير أحيانا في ترجمته لهذا العَلَم أو ذاك إلى تنقله بين هذه المراكز العلمية على نحو إشارته لتنقل سيدي أحمد البوزوكي الكشَيمي(1365 هـ) بين مدرسة بووابوض في متوكة، ومدرسة تازانتوت في إداوتنان، ومدرسة سيدي ميمون في كسيمة، ومدرسة سيدي بيبي في هشتوكة، ومدرسة أولاد دحو في هوارة، ومدرسة دوار لبير في هوارة [46]، وعلى نحو إشارته أيضا لتنقل الفقيه أحمد بن مسعود المعدري(تـ1263 هـ) بين المدرسة التازروالتية، والمدرسة المرغيثية، والمدرسة المعدرية[47]. وقد قام الأستاذ المهدي السعيدي بجرد هذه المدارس وذكر أسماء الفقهاء الذين شارطوا فيها من خلال كتاب المعسول [48]، وهو أمر يؤكد فرضية ضياع المخطوطات من خلال هذا الاختلاف في المدرسة الواحدة. ويمكن أن نقول إن هناك مجموعة من العناصر أسهمت في تفرق هذه المخطوطات من ضمنها بيع المخطوطات، وتفرقها شذر مذر، كما عبر عن ذلك المختار السوسي، بين الورثة. ومن نماذج الخزائن التي قسمت وانتهت إلى التشتت الخزانة الجشتيمية التي قال عنها الدكتور اليزيد الراضي :"وقسمت كتب الخزانة الجشتيمية إلى

---

(46) ينظر المعسول الجزء 8 ص :256 .

(47) ينظر المعسول الجزء :13 ص 133 .

(48) تنظر المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي، ص 171 – 176 .

قسمين :قسم في قرية تيوت التي سكنها أبو العباس الجشتيمي في أواخر حياته، وقسم في قرية إيمي أوكشتيم البلدة الأصلية للجشتيميين"[49]. قال" فدب إليها بالفعل ما شتت كتبها، وأضعف أهميتها، وعرض ما بقي منها للخطر"[50]. ولخص العوامل السلبية المؤثرة في هذه الخزانة في تدني المستوى العلمي للأحفاد وضياع كثير من المخطوطات، وانتقال البعض منها إلى خزائن أخرى، وتفرق المخطوطات في أيدي الورثة،[51]وغياب الصيانة والعناية، قال :"تعرضها لمزيد من الضياع بسبب انعدام العناية اللازمة بها، والصيانة الضرورية لها، فهي توضع في الغالب في أماكن غير صالحة، فتتعرض للتلاشي والتآكل إما بفعل الأرضة، وإما بفعل الماء الذي يأتيها ليفسدها من تحتها ومن فوقها "[52]. ولعل إشارة اليزيد الراضي إلى عامل الصيانة هو وضع اليد على الجرح أو على تحسيس بالنزيف الذي يعتري هذا الجسد التراثي، وقد سبق أن أشرت إلى هذا الأمر أمام مجموعة من فقهاء المدارس. أن للمخطوط عمرا لا يمكن أن يتجاوزه، وأن للأمدة التي استعملت في الكتابة أيضا عمرا لا يمكن أن تتجاوزه، ورب مخطوطات كثار قد أخنى عليه الدهر وأصبحت أثرا بعد عين فقط، بسبب نوعية الأمدة المستعملة في كتابتها، والتي غالبا ما تكون حارقة. هذا دون أن نتحدث عن نوعية شروط الصيانة، ونوعية خزائن المخطوطات في هذه المدارس والعناية التي يجب أن تكون مستمرة.

خـاتمــة :

نريد أن نقول في نهاية هذا التمهيد إذا صحت العبارة -لأن القول في دفاتر وأسفار المدارس العتيقة أكبر بكثير مما سودناه في هذه الصفحات القلال -إننا بإزاء مجال حساس جدا، ومرتبط أشد الارتباط بذاكرتنا الثقافية والعلمية، واعتبارا لذلك فنحن مدعوون أكثر من أي وقت آخر لتجسيد واقع هذه المراكز العلمية، والتعريف بها، وتحسيس الجهات الوصية بضرورة التدخل بكل الأشكال الحضارية لتدارك ما يمكن تداركه من هذا التراث الذي هو في نهاية المطاف صورة لنا، وامتداد لهويتنا. وقد دعوت مرارا عبر قنوات الصحافة المسموعة والمرئية، وعبر مشاركاتي العلمية، وأيضا عبر اتصالي المباشر بالطلبة إلى ضرورة إنشاء مركز للمخطوطات أو إنشاء مكتبة المدارس العتيقة بأكادير، تكون مكتبة عالمية تعرف بذخائر سوس، على غرار باقي المكتبات الكبرى، تتكفل بها وزارة الأوقاف، أو وزارة الثقافة، أو الوزارة الأولى إذا اقتضى الأمر. ويكون دور هذه المركز أو هذه المكتبة هو فتح حوار

---

(49) شعر الجشتيميين، ص :115.

(50) نفسه، ص 115.

(51) نفسه، ص 117.

(52) نفسه، ص117 .

بينها وبين المؤسسات التراثية الصغرى التي تجسدها المدارس، والمكتبات الخاصة، ومكتبات الزوايا، وذلك من أجل تأبيد المخطوط عبر الميكروفيلم، أو الميكروفيش، أو التصوير الرقمي الذي أصبح ميسرا الآن، وفي نفس الوقت من أجل تأخير ضياع هذه المخطوطات وانتشالها من كل الأخطار المحدقة بها، وتيسير الطريق أمام الباحثين للوقوف بهذا التراث دون معيقات مكانية. والأهم من كل هذا أن تنال هذه المخطوطات حظها من الصيانة، والمعالجة، والوضع، والتفسير، والتعقيم. وتحصل هناك وسائل حضارية في التعامل مع فقهاء المدارس؛ إذ يستفيدون أولا من دورات تحسيسية بقيمة المخطوط، وشروط رعايته، وأهمية المصلحة العامة، وتعارض بعض التحبيسات المدرسية مع هذه المصلحة، وتبقى أمامهم مجموعة من الخيارات التي هي من صلب ضميرهم الصاحي و دينهم الحنيف، من مثل أن يحبسوا مخطوطاتهم على هذه المكتبة، أو أن يبيعوها للوزارة المعنية مقابل مبالغ مالية سخية جدا، لأن قيمة المخطوطات أكبر من كل التقديرات المادية البسيطة، أو أن يسمحوا بالميكروفيلم أو الصورة الرقمية لصالح هذه المكتبة مقابل تعويضات سخية أيضا. وفي كل الحالات، وعلاوة على ضرورة استفادتهم المادية، تكتب أسماؤهم وأسماء مدارسهم التي أسهمت في رفد المكتبة في الأجنحة المخصصة بمخطوطاتهم. وهكذا نحصل على مصلحة عامة هي الملك العام لكل الباحثين والعلماء، ومصلحة خاصة وهي إرضاء هؤلاء الفقهاء وتغيير نظرتهم إلى المخطوطات بشكل إيجابي. وأتمنى من الله أن تكون هذه الكلمات بذرة للنهوض بهذا المجال. وأقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

لائحة المصادر والمراجع :

- الأدب العربي السوسي قضايا ودلالات، منشورات جمعية البحث في الأدب العربي السوسي وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر بأكادير، مراكش الطبعة الثانية :2007 م.
- الرواية الشفهية لمجموعة من العلماء ورؤساء المجالس البلدية. (نظرا لطبيعة هذا البحث من حيث كونه ميدانيا بالدرجة الأولى، فإنني لم أرغب عن هذا المصدر من مصادر المعلومة رغم تشبثي بالتوثيق).
- سوس العالمة، محمد المختار السوسي، الدار البيضاء، 1984هـ، 1404 م.
- سيدي الحبيب التنالتي فكره وجهاده، ندوة بتنسيق محمد الحاتمي منشورات فريق البحث في التراث السوسي 1430هـ 2009 م.
- شعر الجشتيميين (الدراسة)، الدكتور اليزيد الراضي، منشورات مركز بن تومرت للدراسات والنشر والتوثيق وجامعة ابن زهر كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير: 2007 م.
- الصحراء المغربية :العلاقات البشرية والقانونية والثقافية، مقال «التراث الصحراوي المخطوط» ص :143 منشورات جامعة القاضي عياض، المطبعة الوطنية، مراكش : 2009 م.
- الصحراء وسوس من خلال الوثائق والمخطوطات، تنسيق عمر أفا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء :1422 هـ 2001 م.
- مدارس سوس العتيقة نظامها أساتذتها، محمد المختار السوسي، هيأه للطبع ونشره رضا الله عبد الوافي المختار السوسي، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر للشمال، طنجة، 1987م.
- المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب المدرسة الإلغية بسوس نموذجا، المهدي بن محمد السعيدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1427 هـ 2006 م.
- معجم مصطلحات المخطوط العربي أحمد شوقي بنبين ومصطفى الطوبي، منشورات الخزانة الحسنية، مراكش 2005م.
- المعسول، محمد المختار السوسي، الجزء :5-4، مطبعة النجاح الدار البيضاء 1960 م.
- مكتبة محمد الهاشم الوناس بأقا إقليم طاطا، الإدارة المحتويات التنظيم، الطالبة فوزية الخطاب، إشراف مصطفى الطوبي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير. السنة الجامعية :2005 – 2006م.



- من أجل دراسة حفرية للمخطوط العربي : محاولات تطبيقية في علم المخطوطات ، مصطفى الطوبي ، منشورات مركز نجيبويه للمخطوطات ، القاهرة :2010 م .

- من تاريخ الأطلس الكبير الحياة العلمية والأدبية في جبل درن الغربي ، أحمد بزيد الكنساني ، منشورات جمعية تالكجونت للتنمية والأعمال الاجتماعية ، 2008م .

- منجزات جمعية علماء سوس في عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله، الجزء السادس ، مقال مكتبة الزاوية الناصرية بين الأمس واليوم مصطفى الطوبي، منشورات جمعية علماء سوس ، طبعة 2007 م .



بعض المصطلحات المرتبطة بالمدارس العلمية العتيقة بسوس

الوافي نوحي -مبارك أيت عدي

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقديـــم:

تصنف المدارس العلمية العتيقة بالمغرب ضمن المؤسسات التربوية والدينية التقليدية التي كان لها دور مهم في انتشار الإسلام وعلوم العربية ومعارفها بكثير من الجهات. وقد تنافست القبائل في بناء هذه المدارس ورعايتها، حتى صار لكل قبيلة مدرسة أو أكثر، تضطلع بمهمة تلقين العلوم الدينية واللغوية والمعارف الأدبية وغيرها لأبنائها، وللوافدين عليها من الطلبة الآفاقيين. فكان الفقه والنحو أساس التدريس بها، ثم التفسير والحديث، فعلوم أخرى مكملة، مثل الفرائض والحساب والمنطق، والبلاغة والعروض، والآداب والتصوف، والسيرة النبوية والتاريخ، والطب والفلك والتنجيم.

ولعل أول مدرسة نشأت بالغرب الأقصى كانت بالصقع السوسي، موضوع هذه المساهمة، وهي التي تُنسب للفقيه وكّاگ بن زلّو اللمطي[1]، ثم انتشرت في تالي العقود والسنين بمختلف جهات المغرب، مثل الحوز، ودكالة، والجنوب الشرقي، والريف.

وكانت القبائل تسهر على حسن سير تلك المدارس وتنظيمها، فوضعت لذلك أعرافاً (قوانين محلية)، يشرف عليها إنْفْلاسْ (أهل الحل والعقد)، الذين يسهرون على تدبير أمور المدارس، من جمع الأعشار والمؤن، كما ينفذون العقوبات المنصوص عليها على من يخلون بالتزاماتهم اتجاه المدرسة من أفراد القبيلة. بالإضافة إلى تعيين من يقوم بوظائف المدرسة الدينية والتعليمية والغذائية، مثل اختيار الفقيه المشارط، وأمين المخزن، والخادمة التي تتولى طبخ الطعام للطلبة.

ومن الناحية المنهجية، عمد الفقهاء والمدرسون بهذه المؤسسات إلى تلقين كثير من العلوم باللغة الأمازيغية، تسهيلاً على المستفيدين الذين كان جلهم لا يتقنون غيرها. وهكذا أغنت المدارس -بقاموسها المعتمد- الثقافة الشفوية المغربية بثراء مصطلحي كبير وملحوظ. فمن المصطلحات، ما هو عربي الأصل وقع "تمزيغه"، باستعماله بصيغة أمازيغية، ومنها ما انبثق من صلب اللغة الأمازيغية، كما وقع تعريب بعضها أيضاً.

---

(1) ارتبط اسم وكّاگ بقيام دولة المرابطين، من خلال انتدابه أحد طلبته، وهو عبد الله بن ياسين الجزولي، ليرافق يحيى بن إبراهيم الگدالي إلى الصحراء لترسيخ تعاليم الدين الإسلامي لدى صنهاجة.

تتوخى هذه المساهمة الوقوف عند نماذج من المصطلحات المتداولة، أمازيغيةً كانت أو "مُمزّغة"، سواء تلك التي لها علاقة بالمكان، أي معطيات البناء والعمران؛ أو رواد المدارس وكذا القائمون على شؤونها (التدبير والتسيير)؛ أو لها صلة بالتدريس والتلقين والتربية (وسائل التعليم وآليات الكتابة، وأوصاف الطلبة، وأنواع العقاب وألوان الضرب...)، والمصطلحات المتعلقة بالواجبات وبالهدايا والأفراح، ثم المصطلحات الجامعة العامة.

1. المصطلحات المكانية (البناء والعمران):

- **تمزگيدا**: هي المكان المُعدّ للصلاة بالمدرسة العتيقة، وتتكون من عدة مرافق، منها الميضأة، وأماكن الاغتسال، فضلاً عن البئر أو النطفية في الأماكن الجبلية.

أخُرْبيشْ: جمعه إخُرْباشْ، أو: إخُرْبيشْنْ، ويطلق على قسمين من أقسام المدرسة. أولها، ويسمى أخربيش ن ئيمحضارن، أي القاعة التي يتلقى فيها الطلبة العلم ويحفظونه بحضور الفقيه. وفيها يدع فيها الطلبة الألواح نهاية اليوم.

ويسمى ثاني القسمين: **أخربيش وَّامان**، وهو عبارة عن غرفة لتسخين الماء والتدفئة، توجد في ركن منها كميات من الخشب المعدّ لذلك، وتتدلى من سقفها سلسلة يربط فيها إناء كبير من النحاس، يسمى **أَزّالّو** (بتفخيم الزاي)، أو: **تافْضْنا** (أي المرجل)، يملأ بالماء وتوقد النار من تحته لتسخين ماء الوضوء، يؤخذ منه الماء بواسطة إناء صغير يسمى **أغْنْجا**.

كما يقضي الطلبة بالمكان أجزاءً من ليالي الشتاء البارد يتسامرون ويستدفئون، أو يحفظون على ضوء ناره، وفي النهار يُدفئون ألواحهم وينشفونها من الصلصال لتصلح للكتابة عليها[2].

- **تحانوت ن الطالْب**: هو موضع إقامة الفقيه، ومكان حفظ مكتبته وأدواته وأموره الخاصة.

- **تيحونا ن ئمحضارن**: هي الغرف التي يقطنها الطلبة الآفاقيين المعروفين باسم "الْمسَافْرين"، ومفردهما أَمْسافْري، أي القادم من خارج محيط المدرسة، المقيم بها للقراءة والأخذ عن الشيخ المشارط في المدرسة.

- **تَنْطْفي**: هي النطفية، أو المطفية، أي ذلك الخزان الذي يُبنى في مكان آمن، ويخصص لخزن مياه الأمطار، خاصة في المناطق الجبلية التي يبعد فيها عمق المياه الجوفية.

---

(2) الإلغي، صالح بن عبد الله: **المدرسة الأولى، وصف شامل للتعليم الأوّلي بالمدرسة القرآنية في سوس، نموذج مدرسة إلغ**، الدار البيضاء، مكتبة النجاح الجديدة، ط1، 1998، ص. 15.
وقارن بما ورد عند:
–حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة، صور من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدارس القرآنية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، دار أبي رقراق، 2006، ج1، ص. 435.

• **لْمْياضي (الميضأة):** أي محل الوضوء، وهو عبارة عن مصطبتين متقابلتين مملستين بالجير الناعم، تتوسطهما ساقية لتصريف المياه، تصطف فيها أواني للوضوء، كانت تُتخذ من الفخار، واحدتها تسمى تِدْقِّيتْ، أو من النحاس، وتسمى تَناسْتْ. وتُتخذ مؤخراً من البلاستيك أيضاً[3].

• **تامْصْرِيتْ:** غرفة متميزة في المدرسة، تستعمل عادة لسكنى الفقيه الكبير في المدرسة. كما تستعمل في نفس الوقت قاعة الضيافة التي يجتمع فيها إِنْفلاس أو الفقيه لاستقبال ذوي الحاجات (التداوي بالرقية وغيرها...).

• **تضوحانت:** هو المكان المخصص لطحن الحبوب التي منها تُحضر الوجبات لفائدة فقهاء المدرسة وطلبتها وكذا زوارها. يضم المكان مجموعة من الأرحية الحجرية مثبتة على طول الغرفة، تباشر فيها خادمة المدرسة (تَوَيّا نْ لْمدرْستْ) عملها.

2. المصطلحات البشرية:

• **الشيخ:** المراد به من يُتلقى عنه القرآن أو العلم، وقد يطلق الشيخ أيضا على مفيد العلم، فكل من أفادك علماً بقوله أو فعله أو حاله فهو شيخك فيه.

• **الطالْب:** يطلق على حامل القرآن الكريم مطلقاً، وعلى القائم بالتعليم في المساجد وإمامة الناس في الصلوات، وهذا المعنى هو الشائع إلى اليوم في الجنوب المغربي. ويستعمل في الجمع صيغة طْلْبا، ويتداخل لقب **الطالْب** مع لقب **الفقيه** في مناطق مغربية كثيرة.

أما صيغة طَّلَبا بفتح الطاء المشدّدة واللام فهي مستعملة عند طلبة المدارس العتيقة.

• **أَمْحْضَار:** جمع إِمْحْضارن يطلق على الصبي المبتدئ في تحصيل العلم[4].

• **أوْرّاشي:** يطلق على الماهر في رواية ورش، وربما قُصد به حفظ القرآن لا خصوص الرواية. ويراد به أحيانا من لا يعرف غير رواية ورش من باقي الروايات المتداولة بالمغرب، أي: ورش وقالون والمكي والبصري[5].

• **أمْسافْري:** جمعه: لْسافْرين أو: المسافرية: وهم من كبار السن من المتعلمين، ولو كانوا ابناء الجماعة، ما داموا يتابعون قراءتهم في المسجد او المحضرة[6].

---

(3) انظر للمزيد: صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 15.

(4) اختلف كثيرا في معنى الاسم، هل هو من الحضور، او من الحظْر...، وتفصيل ذلك عند: النحوي، الخليل: شنقيط، المنارة والرباط، تونس، 1987؛ حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة**، ج1، ص. 470.

(5) حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة**، ج1، ص. 464.

(6) حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة**، ج1، ص. 437، و470.

• **تَوَيّا نْ لْمدْرسْت:** هي الخادمة التي تتكفل بإعداد الطعام الفقهاء والطلبة والزوار بالمدرسة، تأخذ الكمية اليومية من الشعير عند الفقيه، فتعجنه وتخبزه لوجبة الغذاء، وتفتله كسكساً لوجبة العشاء. وهي التي تتكلف بإحضار مستلزمات الطهي من جلب للمياه وتوفير للحطب اللازم لذلك.

كانت تَوَيّا ن لْمدْرسْت في القديم تشترى من ضمن الإماء في سوق النخاسة وتُحَبُس على المدرسة، لكن بعد تراجع تجارة العبيد وتحرير من يوجد منهم بالمغرب، أصبحت القبيلة تستأجر للمدرسة الأرامل من الإماء أو المسنات منهن.

3. مصطلحات وسائل التعليم وآليات الكتابة:

• **أقْلمْ:** (القلَم) يكون عادة من القصب العادي وربما صنع في بعض الجهات من عيدان النخيل، ذلك أن الطلبة يعمدون إلى شقّ أنبوبة القصبة السميكة إلى رشقات، فيستخرجون من كل رشقة قلماً في عرض الإصبع، يسهل إمساكه والكتابة به بشكل مريح. ثم ينحتون للرشقة لساناً بعد أن تُحدث في وسطها ساقية، ويُحدث شق خفيف في عمق الساقية لينساب منه الحبر من أعلى إلى أسفل بيسر وسهولة، ثم يقطّ رأس الرشقة فتكون قلماً قابلاً للكتابة به. وغالبا ما يكون طول الاقلام دون الشبر[7] (الصورة رقم1و2).

• **تَلّوحْتْ:** هي اللوح التي يكتب فوقه الطالب ما يمليه عليه فقيه المدرسة من سور وآيات قرآنية، ومتون فقهية أو لغوية ونحوية وغيرها. ذلك أن المتعلم يعمد إلى اللوح فيطليه بالصلصال، ثم يكتب عليه. وهي تلازمه من أول يوم يلج فيه المدرسة الى ان يتخرج منها. وتُتّخذ عادة من خشب الجوز أو العرعار وهما أجودها، أو من الأرز أو من الصفصاف أو غيرها من أنواع الخشب. يختلف حجمها بحسب سن المتعلم وقدرة استيعابه. تتباعد الكلمات والسطور فيها حسب تقدمه في الحفظ. يعلوها، في الغالب، ثقب تعلق منه بخيط في الأوتاد المخصصة لذلك في أخْرْبيشْ عند الفراغ من القراءة (الصورة رقم 3 و 4).

• **أكْرّاجْ:** ويسمى بالعربية: الكرّار، وهو عود يُتخذ غالباً من غصن الزيتون، ينحت من كل وجه من الوجوه الأربعة، وقد يُزخرف بنقوش، وتُحك به اللوحة أثناء القراءة بطريقة يتيسر معها حفظ المقروء (الصورة رقم 3 و 4).

• **السّمْخْ/ الصّمْخْ:** (الصمغ)، ويقصد به المداد المستعمل في كتابة **تَلّوحْتْ**. يُصنع غالبا من الصوف المتلبد غير النقي المنزوع من حواشي بطون الخرفان وآباطها، والودحة المتجمدة عند أذيالها، ومن قرون الكباش التي تحرق على النار ثم تفتّ في إناء خاص، يضاف إليه عادة شيء من نبات إِيكّ (العصف)، وقشور الجوز والرمان المدقوق بعد إحراقها. يضاف إلى كل هذا كمية

---

(7) انظر تعريفا حسناً ودقيقاً عند: صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 49.

من تونِينْ (الصمغ العربي) المستخرج من جذوع شجر أمْراذْ (الطلح). ويمنح المدادَ لمعاناً ولزوجة. وقد توضع في المداد بعض حبوب الحنظل كي لا يشربه الذباب[8] (الصورة رقم 5و6).

◆ **تدْواتْ (الدواة):** وهي وعاء المداد، تُتخذ من الفخار أو الخشب، أو من الزجاج أو الخزف أو من غيرها. يوضع فيها مقدار من مادة الصمغ، تُحشى بليقة من الصوف أو القطن أو الإسفنج لإمساك الصمغ والحيلولة دون انكسار سن القلم عند الاستمداد من الدواة أثناء الكتابة (الصورة رقم 7).

◆ **الصّنْصار:** (الصلصال)، وهي مادة طينية تستخرج من أماكن خاصة، تكون على شكل حجارة يسهل ذوبان جزء منها وتحلله بالماء عند تمريره على صفحة اللوح المبتل، ويحرك حجر الصلصال على صفحة اللوح عدة مرات إلى أن يكتمل طلاؤه، ثم يسوى بالكف أوالذراع حتى يعم جوانبه، ويترك في حرارة الشمس أو يقرب من النار ليجف بسرعة، ثم يحك اللوح حكّاً خفيفا بخرقة أو بكف اليد حتى يسلس لمرور القلم عليه (الصورة رقم 7).

◆ **لْمْحي:** هو المكان الخاص الذي يمحو فيه الطلبة ألواحهم، وذلك بغسلها وتنشيفها بعد حفظها وعرضها أمام الفقيه. وفيه أيضا "تُصلصَل" الألواح وتُعدّ لكتابة جديدة.

◆ **أسْضّارْ أوفْلاّ:** (السطر الأعلى)، هي طريقة تعليمية فريدة، تجعل الطالب يتذكر كل الآيات التي تتشابه مع ما يقرأ في لحظته، في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم [9].

4. مصطلحات قدحية يوصف بها بعض الطلبة:

◆ **إمْزّْوي**[10]: هو اللقب الذي يطلقه الطلبة على زميلهم الذي لا يتقن حفظ القران أو يتعثر في قراءة الحزب الراتب[11].

◆ **الثّمايني:** الذي لا يحفظ من القرآن الكريم سوى بعض أثمان الأحزاب المتفرقة، يقرؤها في مختلف المناسبات فيُظن أنه متمكن[12].

◆ **المشلل/ المزفّت/ الأزرق:** كلها نعوت قدحية، تعني البليد الفارغ[13].

---

(8) انظر بخصوص الأمدّة والأحبار وطرق إعدادها:
نوحي، الوافي: «إنتاج الكتاب المخطوط بالمغرب»، مجلة **أسيناگ**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ع.7، 2012، ص ص. 45-74، ص. 54-56.

(9) راجع تفصيل هذه الطريقة عند: صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 115-119.

(10) من فعل/ إزْوا، أي جاف وفارغ.

(11) حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة**، ج1، ص. 465.

(12) المرجع نفسه، ج1، ص. 466.

(13) المرجع نفسه، ج1، ص. 466.

5. المصطلحات المتعلقة بالواجبات وبالهدايا والأفراح:

• **لِيحْضار:** يطلق في العرف الخاص على حانوت الفقيه الذي يبيت فيه ويجمع داخله حوائجه، ويقصد به عند العوام الشرط (الشرض).

• **الشرض: (الشرط):** عرّفه صالح الإلغي بأنه "قدر معلوم من غالب قوت البلد يأخذه الطالْب آخر السنة، وهو في بلدتنا وما حواليها (يقصد إلْغ) الشعير وشيء من الصوف، الجزة أو ما دونها، بحسب الغنم ورجاء المعطي، وزبدة أو زبدتان في فصل الربيع على من يستعمل ممخضته"[14]. ويختلف الشرط حسب العرف من منطقة لأخرى، وإن كان لا يخرج بالجملة على ما ذُكر إلا شيئاً يسيراً بحكم التقاليد المرعية في كل منطقة. ويُحفّ الشرض بكثير من المحاذير، لخصها عمر المتوكل الساحلي في كتابه[15].

• **لْعْرْبا (الأربعاء):** هي أعطية يقدمها المتعلم للفقيه بعد زوال كل يوم أربعاء، وهي عبارة عن بيضة دجاج واحدة يقدمها كل تلميذ للطالْب، وإن لم يجد في المبيض إلا الداعية أخذها ولا يبالي[16].

• **تانْعْريفْتْ:** مايؤتى به للفقيه من بسيس وتمر أو أحدهما كلما افتتح التلميذ حزبا من الأحزاب[17].

• **النْزاهْتْ ن طْلْبا:** هي جولة سنوية ينظمها **إنْفْلاسْ** لفائدة الفقهاء وكبار الطلبة في أعقاب موسم الجني والحصاد والدراس، بغاية المبالغة في إكرامهم والاحتفاء بهم. ولا يسمح للمشاركة في هذه الجولة إلا لمن حفظ القران الكريم برواية ورش على الأقل. وتتناوب مختلف أفخاذ القبلية على استضافتهم بطريقة تسمى: **أدْوالْ**[18].

ويستغل إنفلاس المناسبة أحياناً فيُسندون لهؤلاء الفقهاء والطلبة النظر في بعض القضايا الطارئة والنزاعات العادية التي تنشأ بين الناس في القبيلة.

• **واوْزْويتْ أو: واوْزْدْويتْ**[19]: هي وجبة تحضرها القبيلة مناوبةً إلى المدرسة بعد صلاة العصر، يكاد يكون الإتيان بها فرضاً على كل دار من دور القبيلة، فمن تأخر في ذلك تطبق عليه الأعراف الموضوعة في ذلك. يكون الطعام غالبا خبزاً يأتي به محضّروه على البهائم أو في القفف فوق رؤوسهم. وتُقدر عدد أقراص الخبز في هذه الوجبة بحسب عدد الطلبة، فإن زاد العدد أو نقص تُعلم بذلك الأسرة المعنية للأخذ في الحسبان.

---

(14) صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 23.

(15) المتوكل الساحلي، عمر: **المعهد الاسلامي بتارودانت، والمدارس العلمية العتيقة بسوس**، البيضاء، دار النشر المغربية، 1985، ج1، ص. 148.
وللتفصيل أكثر في مسألة الشرط والمشارطة، راجع:
– حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة**، ج1، ص. 471، و474، و487–500، و523–537، و542...

(16) صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 99–101.

(17) المختار السوسي: **المعسول، ج1**، ص. 34.

(18) ذكر المختار السوسي **النْزاهْتْ** في مواطن كثيرة من **المعسول**، منها: ج4، ص126، ج6، ص69، ج10، ص148.

(19) مشتقة من تَزْدْويتْ، وهي العشية، أي فترة ما بعد الزوال.

• **لْعواشِر**[20]: هي العطل التي يستفيد منها المتعلمون في مختلف المناسبات الدينية. وصف المختار السوسي الاحتفالات المصاحبة لها، فأشار إلى أنهم "يحملون لوحة مزوقة بآيات من القرءان ويغلفونها بزيف أحمر أو أرقط، فيجعلونها فوق قصبة فيحملها أحدهم فيدورون أمام الديار بقفة كبيرة يضعون فيها الزرع الذي يعطى لهم من الديار. والنساء يتبركن باللوحة، والتلاميذ يرفعون أصواتهم بنشيد خاص لهذا الموقف فيه تمجيد القرءان وحملته"[21].

6. المصطلحات الجامعة العامة:

• **تاربعيت:** كيل تكال به المواد أو الحبوب المراد إعداد الخبز أو الكسكس المقدم للطلبة والفقيه منها.

• **أَسّوفْغْ أو: تامْغْرا ن القْرانْ:** يقصد بهما ختم المتعلم القرآن الكريم تلاوةً وحفظاً على رواية واحدة على الأقل. ويستعد الآباء للاحتفاء بالمناسبة منذ أن تفصل أبنائهم خمسة أحزاب عن ختم القران، فتقام احتفالات ابتهاجاً بالحدث.

• **الحذاقة (تحدّاقت؟):** هي عملية تصاحب ختم الطالب للقرآن الكريم، ذلك أنه متى ختمه تزوق لوحته بأبيات شعرية مهلهلة، تستدير بأواخر سورة البقرة "آمن الرسول"، ويلبس من الثياب أجملها، ويصحبه كل طلبة القرية ليزوروا مشهداً يتبرك به، ثم يكتب كل واحد منهم على اللوحة كلمة من حزب الرحمن، وينتهون الى بيت والديه، حيث تقام لهم حفلة هناك[22].

• **تاسْبْنِيتْ:** هي قناع من الثوب الرفيع تُلف به لوحة الطالب أثناء ختمه للقرآن الكريم، وعادة ما تكون في منديل جديد من الخز[23].

• **أرّاتْنْ**[24]: وهي الوثائق، مثل العقود والرسوم المتعلقة بالبيوع والرهون والملكية والإرث والتقاييد، الخاصة بالأسر وكذا الأشخاص المنتمين للقبيلة. ومخافة ضياعها بسبب الفتن والحروب، فإن أصحابها يعمدون إلى إيداعها بالمدارس العتيقة باعتبارها –بجانب الزوايا– أماكن مقدسة ولها حرمة خاصة عند القبائل، فلا تتعرض محتوياتها للنهب أو للسلب.

• **تَحزّابْتْ:** قراءة القرآن الكريم بطريقة جماعية، وتختلف من مدرسة لأخرى باختلاف المناطق.

• **لْحيسْبْ (الحزب الراتب):** هو قراءة حزبين من القرآن الكريم بعد صلاتي الفجر والمغرب، ويدخل الالتزام به –عرفاً– ضمن متطلبات ليحضار ولوازمه، بحيث يتأتى معه

---

(20) لعل الأصل في تسميتها يعود للعشر الأوائل من ذي الحجة.

(21) المختار السوسي: **المعسول**، ج1، ص. 34؛ صالح الإلغي: **المدرسة الاولى**، ص. 102.

(22) المختار السوسي: **المعسول**، ج1، ص. 34؛ صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 101 وما بعدها.

(23) صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 115.

(24) صيغة الجمع لمفرد: أَرَّا، وهو مشتق من فعل: يُورا، أي: كتَب.



ختم القران الكريم مرة كل شهر كما يجرى عليه العمل في أكثر جهات المغرب. وبعضهم قال إن المدة التي يدور عليها الحزب الراتب بالجماعي كل خمسة وثلاثين يوماً[25].

◆ **السْلْكتْ:** هي الحفلة التي تقام بمناسبات شتى مثل العقيقة أو الختان أو الزواج، أوختم صبي للقرآن الكريم، ويُدعى اليها الفقيه وطلبة المدرسة، ويقرؤون فيها عادة الحزب الراتب المقرر لمساء ذلك اليوم وأجزاء من قصائد المديح النبوي، مثل البردة والهمزية، وتختم بدعاء جماعيٍ لصاحب المنزل، الذي يوزع عليهم مبلغاً من المال لكل واحد، أو يعطي لفقيه المدرسة مبلغاً يوزعه عليهم بعد خروجهم.

◆ **السْلكتْ نْ القران:** هي ختم القران أو الحزب الراتب مرة في الشهر أو كل خمسة وثلاثين يوما حسب الحزب الناصري الواسع الانتشار في المغرب. تختم سلكت حزب الشيخ يوم الأحد وتفتح أخرى صباح يوم الاثنين. تختم هذه السلكت بحزب **(سبح)** بعد صلاة المغرب. يحضرها الكبار والصغار وأهل الحي من آباء الطلبة وغيرهم، ويعدون لذلك العدة بالنهار، بتوفير أدوات الشاي وإطعام الطلبة والحاضرين للختمة.

◆ **التْفْريقْ:** يقصد به المصحف المجزأ إلى اثنى عشر جزءا، في كل جزء خمسة أحزاب منفردة على حدة، تقرأ خلال السْلكتْ. يقرأ كل واحد من الطلبة الحاضرين، الذين يكونون ستة على الأقل، أو اثنى عشر على الاكثر جزءا أواثنين منها في نفسه، أو بصوت لا يكاد يُسمع.

بعد قراءة التفريق يقرأون جماعة سورة الإخلاص والمعوذتين وأوائل سورة البقرة ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وتعقب الختمة أدعية كثيرة ومقطعات من قصيدتي البردة والهمزية في المديح النبوي[26]. وتوضع الأجزاء الإثني عشرة المكونة للتفريق في صندوقة (ربيعة) من خشب العرعار النفيس.

خلاصة عامة:

يتضح من هذه الجولة بالمدارس العلمية العتيقة بسوس، من خلال مصطلحاتها ذات الاستعمال اليومي، أن هذه المؤسسات التعليمية المبكرة متجذرة في بيئتها ومحيطها، لما راكمته من تقاليد وأعراف ومراسيم موغلة في أزمنة تعرّف فيها المغاربة على الإسلام؛ كما أنها تتوفر على بنية متكاملة يتداخل فيها التربوي التعليمي بالمعيشي، وتوفر لخرّيجيها موارد شغل؛ فضلاً عن تمكنها من الحفاظ على موروث لغوي غني ومتنوع، من شأنه أن يشكل مَعيناً يساعد المهتمين بالشأن اللغوي الأمازيغي لتأسيس نواةِ معجم للمصطلح الديني، مع وضع خرائط لغوية ستكون في غاية النفع والفائدة.

---

(25) انظر زيادات لطيفة عند: صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 78.

(26) صالح الإلغي: **المدرسة الأولى**، ص. 102.



قائمــة المراجــع:

1 – الإلغي، صالح بن عبد الله: **المدرسة الأولى، وصف شامل للتعليم الأوّلي بالمدرسة القرآنية في سوس، نموذج مدرسة إلْغ**، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، 1998.

2 – حميتو، عبد الهادي: **حياة الكُتاب وأدبيات المحضرة، صور من عناية المغاربة بالكتاتيب والمدارس القرآنية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، دار ابي رقراق، جزآن، 2006.

3 – السوسي، محمد المختار: **المعسول**، 1960 الدار البيضاء ج: 1، و13.

4 – المتوكل الساحلي، عمر: **المعهد الاسلامي بتارودانت، والمدارس العلمية العتيقة بسوس**، البيضاء، دار النشر المغربية، 1985.

5 – النحوي، الخليل: **بلاد شنقيط، المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعان البدوية المتنقلة (المحاضر)** تونس، 1987.

6 – نوحي، الوافي: "إنتاج الكتاب المخطوط بالمغرب"، مجلة أسيناگ، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ع7، 2012، ص ص. 45–74.

فهرس المحتويـــات



يسعى هذا الكتاب إلى المساهمة في تعميق النقاش حول علاقة المدارس العتيقة بالأوساط الذي ظهرت فيها، حيث ظلت وفية لأعراف القبائل في ميدان التدبير والتنظيم، الشيء الذي يمكن ملامسته من خلال الاعتماد على نظام إنفلاس في البناء والتمويل ورعاية أحوال الطلبة والفقهاء. اعتمد المشرفون على هذه المؤسسات على اللغة الأمازيغية منهجا للتلقين والحفظ، كما ترجموا العديد من الكتب إلى هذه اللغة، بما في ذلك معاني القران الكريم وأمهات الكتب في الفقه والعقيدة والتصوف. ولقد حاول هذا الكتاب عبر نماذج من الأوساط الأمازيغية مقاربة هذه القضايا من خلال الوقوف عند علاقات المدارس العتيقة بالخصوصيات الحضارية والثقافية الأمازيغية، ودور القبائل في تأسيس هذه المدارس و الإشراف على موارد عيش الطلبة والفقهاء والزوار، وحضور اللغة الأمازيغية في مناهجها ومقرراتها.

ⵉⴳⴰ ⵓⵡⵜⵜⴰⵙ ⵏ ⵓⴷⵍⵉⵙ ⴰ ⵜⴰⴷⵔⴰⵡⵜ ⴷⴳ ⵓⵎⴹⴰⴽⴰⵕ ⵅⴼ ⵜⵓⵇⵇⵏⴰ ⵉⵍⵍⴰⵏ ⴳⵔ ⵜⵏⵎⴰⵍ ⵜⵉⵇⴱⵓⵔⵉⵏ ⴷ ⵓⵎⵏⴰⴹ ⵏⵏⵙⵏⵜ. ⴰⵇⵇⴰ ⵄⴰⴷ ⵍⵍⴰⵏⵜ, ⴷⴳ ⵉⵎⵏⴰⴹⵏ ⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵏ ⴷⵉ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ, ⵜⵉⵎⵢⵓⵔⵉⵏ ⵏ ⵜⵇⴱⵉⵍⵉⵏ ⴷⴳ ⵢⵉⴳⵔ ⵏ ⵓⵙⵡⵓⴷⴷⵓ ⴷ ⵓⵙⵏⵎⴰⵍⴰ, ⴰⵎ ⵓⵏⵎⴰⵍⴰ ⵏ ⵉⵏⴼⵍⴰⵙ ⴷⵉ ⵜⵓⵚⴽⴰ ⴷ ⵓⵙⵉⵥⵕⴼ ⴷ ⵢⵉⵡⵉⵥ ⵏ ⵉⵎⵃⴹⴰⵕⵏ ⴷ ⵉⵎⵓⵙⵏⵏ. ⵙⴷⵓⵙⵏ ⵉⵏⵎⵀⴰⵍⵏ ⵏ ⵜⵎⵔⵙⴰⵍ ⴰ ⵅⴼ ⵜⵓⵜⵍⴰⵢⵜ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⵉⴳⴰⵏ ⵉⵏⵏ ⵏ ⵢⵉⵎⵉⵙ ⵏ ⵓⵙⵍⵎⴷ ⴷ ⵓⵃⵙⵙⵓ, ⵙⵙⵓⵖⵍⵏ ⴰⵟⵟⴰⵚ ⵏ ⵉⴷⵍⵉⵙⵏ ⵖⵔ ⵜⵎⴰⵣⵉⵖⵜ, ⴰⵎ ⵍⵇⵓⵔⴰⵏ ⴷ ⵉⴷⵍⵉⵙⵏ ⵉⴳⴰⵜⴰⵔⵏ ⴷⵉ ⵜⵓⵙⵙⵓⵏⵜ ⴷ ⵜⵖⴰⵍⵜ ⴷ ⵜⴳⵔⵔⵎⵜ. ⵉⵙⴰⵡⵍ ⵓⴷⵍⵉⵙ ⴰ ⵅⴼ ⵜⵎⵙⵙⴰⵢⵉⵏ ⴰ ⴷⴳ ⵉⵎⵏⴰⴹⵏ ⴰ ⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵏ ⴷ ⵜⵓⵇⵇⵏⴰ ⵉⵍⵍⴰⵏ ⴳⵔ ⵜⵏⵎⴰⵍ ⵜⵉⵇⴱⵓⵔⵉⵏ ⴷ ⵜⵥⵍⴰⵢⵉⵏ ⵜⵉⵖⵔⵎⴰⵏⵉⵏ ⴷ ⵜⴷⵍⵙⴰⵏⵉⵏ ⵜⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵉⵏ, ⴷ ⵜⵍⴰⵍⵜ ⵏ ⵜⵇⴱⵉⵍⵉⵏ ⴷⵉ ⵜⵓⵚⴽⴰ ⵏ ⵜⵏⵎⴰⵍ ⴰ ⴷ ⵉⴱⴷⴷⵉ ⵅⴼ ⵉⵙⵓⴳⴰⵎ ⵏ ⵜⵓⴷⵔⵜ ⵏ ⵉⵎⵃⴹⴰⵕⵏ ⴷ ⵉⵎⵓⵙⵏⵏ ⴷ ⵉⵏⵔⵣⵓⴼⴰ, ⴷ ⵜⵍⵉⵜ ⵏ ⵜⵎⴰⵣⵉⵖⵜ ⴷⴳ ⵉⵖⴰⵡⴰⵙⵏ ⵏⵏⵙ.

30 درهم

المدارس العتيقة بالمغرب : دور القبائل في التدبير والتمويل

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط 2015 (CTP)

2015